المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الرابع والتسعين

١ فبراير سنة ١٩٣٩ — ١٢ ذي الحجة سنة ١٣٥٧

النوم واليقظة

بحث علمي عملي جديد

الأرض والجبل

منذ عهد قريب ذهب رجل شيخ الى مستشفى لتعمل له عملية جراحية في الحبل الشوكي. وبعد اجراء العملية ، وضع في حجرة خاصة في طابق يسوده السكون ليقضي فيها فترة الشفاء والنقه . ولكنه على الرغم من سكون الحجرة كان يقضي ليالي متوالية أرقاً . فولج بالمقاقير المنومة إلا أنه لم تمض أيام حتى ظهرت عليه أعراض تنذر بالخطر ، إذ كان يصاب في ساعات اليقظة بضرب من الجنون . وفي مثل هذه الحالات يعرض المصاب على الطبيب العقلي . ففحصه وأمر بالتوقف عن معالجته بالعقاقير المنومة . وانقضى يوم ونصف يوم قبل أن زالت آثار العقاقير. ثم قال له الطبيب العقلي « لا تخف ، ان العقاقير كانت تقسرك على أخذ قسط من النوم أكثر مما أنت في حاجة اليه . أنك في الثامنة والستين من العمر ، والرجل في مثل عمرك لا يحتاج إلا الى بضع ساعات من النوم . وأنت ملقى في سريرك أربع وعشرين ساعة ، لا تنفق جهداً عقلياً أو عضلياً ، يقتضي منك الراحة التي تصيبها في النوم . أعمل ذهنك . اقرأ متى شئت . اقرأ في الساعة الثالثة صباحاً اذا طاب لك ذلك . اشعر بالحاجة الى النوم ثم نم نوماً طيباً هانئاً »

فقال المريض دهشاً . ان في تولك شيئاً جديداً لم أفكر فيه من قبل. فلما زاره الطبيب صباح اليوم

التالي وجد أنه كان قد نام سبع ساعات، وقضى بعد ذلك أياماً في المستشفى لم يصب في خلالها بأرق ما.

وليس ثمة ريب في أن أحد العوامل في إطالة الارق اعتقاد المصابين به انه في الارق خطراً على الصحة قد يؤدي بالعقل الى الخبل. ثم يؤرق الانسان. فاذا أدرك انه مؤرَّق تفاقم همُّهُ. بل لقد أشار أحد نطس الاطباء الانكليز الى ذلك بقوله ان المصابين بالأرق تتلبهم مخاوف عظيمة حتى ليأبون أن يعرضوا أنفسهم على طبيب خشية أن يؤيد مخاوفهم. إما من حيث الخطر الذي يجلبهُ الأرق على العقل فقد قال هذا الطبيب انه لم ير بعد مخبولاً يرتدُّ خبلهُ الى الأرق. ومن الذين عنى بهم أناس لم ينـاموا إلاَّ بضع ساعات كل ليلة مدى سنوات ومع ذلك لم يصابوا بالخبل

ويروى عن الفيلسوف پامر Palmer استاذ الفلسفة سابقاً في جامعة هارفرد أنهُ كان يقول لطلبته أنهُ لم ينم ليلة كاملة منذ شبابه. وقلما نام أكثر من ساعتين متواليتين. وبعد ذلك يأرق ساعة أو ساعتين. ثم يتنام. ولكنهُ تعلم بالاختبار أن يسترخي في ساعة الأرق ويجتنب التفكير في ما يشغل البال، فيقضي الليلة بين النوم واليقظة من غير أن يصاب بتعب ما، ثم ينهض في الصباح، وافر النشاط كأنهُ نام نوماً هانئاً طوال الليل. وقد عاش على ذلك حتى بلغ الحادية والتسعين

الا ان الأرق اذا اصاب رجلاً عصبيَّ المزاج مرهف الاحساس شديد الانفعال فعندئذٍ يتعرَّض ذلك الرجل لما يضعف صحتهُ، لان قلة النوم في هذه الحالة ليست اساس المشكلة التي تواجههُ وانما اساسها تلك الساعات التي يقضيها يقظاً في سواد الليل. وقد كتب طبيب من هذا القبيل يصف ارقهُ فقال: اذا كنت وانا طبيب اعتقد انَّ فكرة الارق خرافة يجب ألاَّ تقتضي همَّنا وغمَّنا، فقد تبدَّد ذلك الاعتقاد في خلال السنوات التي اصبت فيها بارق شديد فعلمت حينئذٍ انهُ من أشدّ ما ينزل بالانسان، حتى ولو كان عقلهُ يملي عليهِ أنَّ قلة النوم وحدها لا تضرُّ كثيراً. اني اعلم ان الطبيب يتعين على المؤرق بأن يضبط نفسهُ في ساعة الارق ويحجب عن ذهنهِ الافكار التي تعني المفكر فيها، وانا ذو مشيخة طبية واعرف قيمة هذا النصح الطبي وطالما اشرت بهِ على من اعالج، ولكنني لم اكن ادري ما افعل بعد ان اقضي يوماً كاملاً في مؤتمر طبي وساعة في القاء محاضرة والمناقشة فيها، ذلك اني كنت عند ما آوي الى فراشي، احسُّ فكري سباقاً الى اشياء وسوانٍ لاحيلة لي في حجبها عنهُ وكنت احاول ان اقنع نفسي بأنَّ المسائل التي تتركز فيها عناية فكري من المسائل التي استطيع ان انظر فيها في غد ومع ذلك كان فكري يأبى الاَّ ان يبقيها في المركز من وعيي

ان رجلاً من هذا القبيل في حاجة الى عقارة الباربيتورات » اذا شاء ان ينهض بعمله على الوجه الذي يرضيه في اليوم التالي

الادمان والعقاقير

لابدَّ لحديث الارق من ان يتصل عاجلاً ام آجلاً بحديث العقاقير . والغالب ان يسعى المؤرق الى التغلُّب على ارقه باساليب مختلفة لانهُ سمع في الاندية والمجتمعات ان فلاناً اصيب بضعف في قلبه بعد تناوله الساحيق المنومة . او ان آخر استعبدتهُ عادة الاعتماد على هذه العقاقير فغدا هو وعبد المورفين او عبد الكوكايين سواء. او ان آخر اخذ من احد هذه العقاقير جرعة كبيرة قضت عليه . والروايات التي من هذا القبيل كثيرة ، وهي لا تخلو من نصيب من الصحة. الاَّ انَّ الدكتور سوما فيس Weiss الاستاذ بكلية هارفرد الطبية قرأ رسالة من عهد قريب (١٩٣٦) في الجمعية الطبية الاميركية ، بين فيها الاضطرابات المختلفة التي قد تنشأ عن تناول العقاقير المنومة ولكنهُ عزاها الى اساءة استعمال تلك العقاقير . قال : اذا احسن استعمالها وكان الطبيب عارفاً معرفةً تامَّة بخصائصها الصيدلية والسمّية فوائدها ترجح مساويها

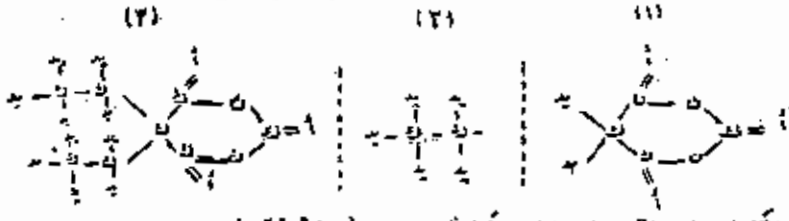

ان حديث كشف المواد المختلفة التي تحدث هذا التأثير حديث طويل . واقدمها يرتدُّ الى ألوف من السنين عند ما تبين الانسان التأثير المنوم للكحول والافيون . ثم اضيف اليها بعد ذلك مواد طبيعية وكيماوية متنوعة تشترك على تفاوت بينها في تأثيرها المنوّم. فمن اربعين سنة كان مواد البرومور Bromides اكثر هذه العقاقير استعمالاً في الطب لهذا الغرض . اما الآن فقد أخذت مواد « الباربتورات » Barbiturates تحلُّ محلَّها

هذه المواد تصنع من الحامض الباربتوريك[1] وهو ليس بالحامض الجديد في علم الكيمياء. جزيئهُ لا يرى بالمجهر لصغره ، ولكن الكيمياويين توصلوا الى معرفة تركيب الذرات فيه فاذا هو كما ترى في الشكل الاول

ان الجزء الخاص من هذا الجزيء الذي يهمنا بوجهٍ خاص في هذا المقال هو ذرّتا

(١) الحامض الباربتوريك Barbituric Acid مركب عضوي مبلور ابيض قوامه اربع ذرات من الكربون واربع من الايدروجين وذرتان من النتروجين وثلاث من الاوكسجين وجزيئان من الماء و ($C_4H_4N_2O_3 2H_2$)

الايدروجين المفردتان . في مستهلّ هذا القرن ، كان الكيماوي الالماني اميل فيشر يجرّب التجارب بجزيء هذا الحامض محاولاً ، ان يحذف ذرتي الايدروجين ليحلّ محلهما ذرتي (او مجموعتين من الذرات) مادة اخرى لعلّهُ يتوصل الى تركيب مادة جديدة ،لها خاصة التنويم ومع ان الحامض لهُ ليس له هذه الخاصة رأى فيه فيشر اساساً لمادة جديدة منوّمة

وقد تحقق ما يبغيه فيشر في سنة ١٩٠٣ اذ تمكن من ان يحلّ محلّ كلّ ذرّة من الايدروجين مجموعة من الذرّات ، توجد في الايثر. وكانت كل مجموعة مؤلفة من خمس ذرات ايدروجين وذرّتي كربون (ترى رسمها وتركيبها في الشكل الثاني) فلما تمّ الحذف والتركيب ، اصبحت ذرة الحامض المذكور ، وهي كما تراها (الشكل الثالث) ، اي انها غدت ذرة مادة جديدة كان فيشر يتوقع ان تكون المادة المنومة المتوخاة

كان فيشر يتوقع أن تكون هذه المادة الجديدة ذات تأثير مخدّر وذلك بما لها من ألفة للمادة الدهنية (ليبويد) في خلايا الدماغ فتجعل غشيتها الخارجية أصفق مما هي . وقبل أن يتمكن من الفصل في هذه المسألة دعي الى رحلة فقام معاونهُ بالتجارب وانبأهُ بنجاحها . وكان فيشر عند بلوغه نبأ نجاحها في مدينة فيرونا الايطالية فدعا هذه المادة الجديدة «فيرونال» Veronn . هذا العقار يعرف في الاقرابادين الانكليزي باسم « باربيتون » Barbitone وفي الاقرابادين الاميركي باسم « باربيتال » Barbital . وهو الأول من سلسلة من العقاقير المنوّمة المستخرجة من الحامض الباربيتوريك وذلك بحذف ذرتي الايدروجين من جزيئه واحلال مجموعة من الذرات محلّ كلّ منهما. فاذا أحللنا محلّ ذرة واحدة مجموعة من نوع الاثيل Ethyl ومحل الأخرى مجموعة من نوع الفنيل Phenyl كان المادة ذلك العقار المعروف باسم لومينال luminal وهو عقار يؤثر تأثيرهُ المنوم في بعض الناس في نصف الوقت الذي يستغرقه الفيرونال . وعلى هذا النسق صنعت عقاقير أخرى منوّمة مثل « النيونال » و « الافيبال » وهي لا تتفاوت في تركيبها فقط بل تتفاوت كذلك في سرعة تأثيرها ومدى النوم الذي تحدثهُ

هل استعمال هذه العقاقير ينطوي على خطر وكيف تتفاوت من حيث تأثيرها في مختلف الناس ؟ ان التجارب التي أجريت للاجابة عن هذه الاسئلة وغيرها مما هو من قبيلها ، أجريت على الأرانب والخنازير الهندية . ولكن اجراء التجارب على هذه الحيوانات لا يمكن أن يحسب دليلاً أكيداً الى الحقيقة ، لان الأحوال النفسية تؤثر أعظم التأثير في شؤون الأرق والنوم ، بل ان الاقصال الناشيء من رؤية ولد وحيد أصيب بحادثة اصطدام يؤثر في احوال الجسم الكيماوية ، ومن هنا لا يمكن الاعتماد كلّ الاعتماد على نتيجة التجارب بالحيوانات . ولكن المشاهدات السريرية تبين للباحث تبايناً شاسعاً بين الناس من ناحية تأثرهم بأحد هذه العقاقير .

فالجرعة السليمة من « الفيرونال » تتفاوت بين ٣ قمحات و١٠ قمحات . ولكن أحد اطباء لندن عرف فتاة شفيت بعد تناولها ٩٠ قمحة وعرف كذلك شابًّا توفي بعد تناوله ١٥ قمحة . ثم يختلف الناس من حيث كبر الجرعة التي يحتاجون اليها لكي يناموا . بل هنالك من تحدث فيه أحد هذه العقاقير تيجاً بدلاً من التخدير . وهذا الضرب من التأثير يغلب في النساء . ويقول الدكتور « الفارز » أحد اطباء عيادة مايو بامريكا انهُ لا يذكر انهُ رأى رجلاً تأثر بالبار بيتورات على هذا النمط

من الصفات التي تغلب على المرهفي الاحساس المرضين للأرق الشديد تعرضهم للكابوس عندما ينامون، أو للاحساس ان بعضهم أعضائهم مصاب بتخدير شديد او بورم ومنهم من يبقى ساعات وأياماً وهو متنبه الذهن يقظ الشعور على حين ان السواد من الناس يكون قد نام إغياء. ومن المعروف ان التأثير الأول للتخدير قبل العمليات الجراحية هو التهيج . ولتفسير ذلك يذهب « الفارز » الى ان المخدّر البطيء الفعل عندما يصل الى الدماغ ويحدث تأثيره الأول وهو التهيج ، يجتاز المصاب فترة صعبة جدًّا قبل ان يرين الكرى عليه ويستولي التخدير على أعصابه. ولعلّ الجهاز العصبي يتأثر بهذه الفترة فيطل تأثير المخدّر بفعل كيمياوي حيوي . فيبقى الشخص متنبهاً يقظاً . ويقيم الفارز الدليل على رأيه هذا بقول ان «الكلورال» من خير العقاقير لمعالجة هذا الطراز من الناس وذلك لأنهُ سريع الفعل جدًّا فيحدث التخدير او النوم قبل أن يجتاز الانسان تلك الفترة الصعبة التي تحفز الجهاز العصبي الى إبطال فعل المخدّر . على ان السواد من الناس يتأثر بالعقاقير المنومة كالفيرونال والشاذ منهم يحتاج الى عقار من قبيل «الكلورال »

وهناك نوع من الأرق يصاب به صاحبهُ بعد نوم قصير . أي انهُ لا يجد صعوبة ما في أن ينام ولكنهُ بعد قليل يستيقظ ويتقلّب في فراشه . وخير علاج لهذه الحالة هو عقار منوّم لا يستمرّ فعله أكثر من أربع ساعات . ولكن الطبيب الذي يصفهُ يجب الاّ يصفهُ الاّ بعد ان يتبين تركيب المرء العصبي ونوع الأرق الذي يصاب به، لأن الغرض من وصف العقاقير المنوّمة هو حمل المرء على أن يعود النوم الصحيح بغير أن يتعوّد تناول العقار فلا يستغني عنهُ

وكان زعم الباحثين في مبدىء الأمر ان المركبات المستخرجة من الحامض الباربيتوريك لا تنشىء عادة الادمان في متناولها . ومما لا ريب فيه أنها في طبقة من العقاقير تختلف عن طبقة المورفين والكوكايين والافيون . ولكن هناك مدمنون للفيرونال بمعنى أنهم أصبحوا لا يستغنون عن برشان الفيرونال قبل النوم كلّ ليلة . وقد روي ان أحد الاطباء وضع في البرشان مسحوق سكر اللبن بدلاً من مسحوق الفيرونال فأحدث تناول هذا البرشان التأثير المنوّم المطلوب في شخص تعوّد أخذها كلّ ليلة . ولكن ليس جميع مدمني الفيرونال من هذا النوع القائم على الوهم . ومع ذلك

فعدد هؤلاء المدمنين قليل . ويقول الفارز انهُ لم يرَ اكثر من سبعة مدمنين من هذا الطراز خلال ثلاثين سنة من المباشرة الطبية . ويقول جلسبي Gillespie انهُ لم يعثر في جميع الرسائل والمؤلفات الطبية المنشورة في ربع قرن قبل سنة ١٩٢٩ على اكثر من اربعمائة مدمن من هذا النوع

والخلاصة انَّ هذا النوع من العقاقير قد يولِّد عادة الادمان في الضعاف المصابين بجهاز عصبيّ مضطرب ولذلك يجدر بالطبيب ان يستوثق من ان تناول العقار سيبقى خاضعاً لسيطرته وامره قبل الاشارة باستعماله ، وان يقنع المصاب بانَّ تناولهُ من تلقاء نفسه ينطوي على خطر

سرّ النوم في الرضّع

يتفق الشعراء في جميع اللغات على وصف النوم بانه ضرب من الموت او هو «الموت الاصغر» ومع ان الكتب الطبية لا تحتوي على ذكر امرئ مات بقلة النوم او أتلفته فالصينيون والاسكتلنديون كانوا — على ما يقال — يعاقبون المجرم بفرض اليقظة الدائمة عليه حتى يموت . اما التجارب في الحيوانات فقد اثبتت ان كلاباً نفقت بعد ١٤ يوماً من اليقظة الدائمة المفروضة عليها والارانب بعد ثلاثة أسابيع

ولعل هناك فرقاً بين اليقظة المفروضة على الكائن الحي من الخارج بمنبهات دائمة واليقظة الذاتية التي يدعوها «الأرق» . ومما يروى في هذا الصدد ان العالم الهولندي هرمان بوير هاف الاستاذ في جامعة ليدن في مستهل القرن الثامن عشر ، قضى مرة ستة أسابيع دائم اليقظة لانشغاله ببحث خطير يهمه . ويروي « فوزبز ونسلو» قصة رجل كان يسير على قدميه مسافات طويلة في النهار ثم يشغل ليلاً في مناقشات محتدمة مع أشخاص موهومين ، وانه قضى على ذلك ثلاثة أشهر لا ينام . وفي مذكرات احد الاطباء ان رجلا أصيب بالأرق خمسة عشر يوماً متوالية فكان ينهض من فراشه في الليل ويسوق مركبة يجرها ثلاثة جياد حتى ينهكها إعياء لعله بذلك ينهك جسمه فينام

يقابل هذا ان الدكتور هرتزلر — مؤلف كتاب « طيب العربة والجواد » أي طيب الريف — يروي عن نفسه انه دعي في احدى الليالي وهو متعب جداً للعلاج حالة طارئة فاستقل عربته وحقيبة أجهزته وعندما وصل الى الكوخ الذي دعي اليه أعد مبضعهُ لشق خراج خبيث ثم ران الكرى فجأة على عينيه ، فاعاد المبضع الى الحقيبة وعاد الى داره ولم يتذكر إلاَّ في الصباح ان الخراج لم يشقّ

وكذلك نرى من هذه المقارنة في مسألة النوم ان النوم يأخذ بأجفان أناس وهم في أشد الحاجة الى اليقظة ويجتنب غيرهم وهم في أمس الحاجة اليه

وليس ثمة ريب في ان احدى الفجوات الكبيرة في علم الحياة الانسانية ، جهلنا سرّ النوم . نحن نعلم علماً لا بأس به أساليب التنفس ودوران الدم والهضم والاتصال العصبيّ في الجسم

واسرارها. اما النوم فلا نجد رأياً واحداً في تفسيره وفهمه يفوز باجماع العلماء او بما يقرب من اجماعهم في الآراء المطروحة على بساط البحث رأي يعزو النوم الى تغيُّر في مقدار الدم او محتوياته. ولعلَّ القول بان سبب النوم هو فقر وقتي في دم الدماغ من اقدم الآراء في فهم النوم وقد وصفهُ « الكيون » اليوناني من ٢٥٠ سنة بقوله « ارتداد الدم من الدماغ الى الشرايين ». الاَّ ان جماعة من الاطباء في مستشفى مدينة بوسطن الاميركية حاولوا من عهد قريب قياس مايجري من الدم من الدماغ الى الأوردة . فوضعوا في حبل الوريد الداخلي — وهو الوريد الذي يفرغ فيه الدماغ دمه — اجهزة كهربائية دقيقة لا تسبب لصاحب الوريد المآ ما ، فقاسوا بها سرعة جريان الدم من الدماغ الى الوريد مدى ساعتين . واخذ الكرى بمعاقد اجفان الرجل في خلال التجربة ، فلم يحدث تبديل ما في سرعة جريان الدم لا في بدء النوم ولا في اثنائه ولا قبيل الافاقة منهُ . وقد اعيدت التجربة في غيره فاسفرت عن النتائج نفسها

واذن ليس في الوسع ان يقال ان هناك سنداً للرأي القائل بوجود صلة بين مقدار الدم في الدماغ والنوم . ولكن هناك ما يدل على وجود صلة بين النوم ومحتويات الدم . فمن سنوات ذهب احد علماء الفسيولوجيا الى ان الدم المأخوذ من الاوردة المحيطة Peripliera في اثناء النوم يحتوي على مقدار من الكلسيوم اقل من مقداره في دم الأوردة نفسها في اثناء اليقظة . فحفز هذا القول العلماء الى البحث وهم يسألون : ترى هل يتجمع الكلسيوم في اثناء النوم في الدماغ ؟

وكان من ابرع من تقدَّم لبحث هذا الموضوع عالم سويسري يدعى ديمول Demole فحقن ملحاً من املاح الكلسيوم في ادماغ الهررة وجعل الحقن في جذر الدماغ المعروف باسم المهاد (عن شرف: thalamus) فران النوم على الهررة . ووجد ديمول بالتجربة انهُ يستطيع ان يجعل مدة النوم متفاوتة من دقائق الى ساعات بزيادة مقدار الحقنة او نقصها . وعرف بالاختبار انهُ في مكنته ان يوقظها من نومها هذا ولكنهُ عرف كذلك انها اذا استيقظت من تلقاء نفسها بدا عليها النشاط والانتعاش كأنها نامت نوماً طبيعيا

واجريت تجارب اخرى من قبل تجارب ديمول فثبت منها انَّ املاح الفلزات طا فعل منوِّم كفعل ملح الكلسيوم اذا حقن في « مهاد » الهررة وهناك مايدلُّ على ان للكلسيوم تأثيراً في منطقة الدماغ التي تحت المهاد (التالاموس) ومن المعروف ان للكلسيوم تأثيراً خاصًّا في الخلايا الحيَّة . اذ يلوح انهُ يجعل جدرانها اقل شفوفاً واشدَّ مقاومة فتغدو اقلَّ تنبهاً او تأثراً بالمنبهات . واذن يمكن ان يحسب الكلسيوم ضابطاً (قرملة) كيماويًّا حيويًّا وهذا يفضي بنا الى ان نقول ماقالهُ جلسي في رسالته « النوم » انَّ الحقائر المنوِّمة (المخدرة) تؤثر باضعاف شفوف الاغشية الخلوية في الجهاز العصبي المركزي

وتدلُّ الدراسات المختلفة على ان الجسم يتلقى من هذه المنطقة في قاعدة الدماغ الأوامر العصبية الخاصة بالنوم واليقظة

ومن بضع سنوات قام الاستاذ هس العالم الفسيولوجي المشهور بجامعة زوريخ يبحث طريقاً اذ تمرُّ اقطاباً كهربائية دقيقة كالابر في أدمغة الهررة وأحدث بوساطتها صدمات كهربائية فسبَّب ذلك النوم في الهررة . وعني ايكونومو النمسوي العالم بالأعصاب بدراسة أدمغة المتوفين بالتهاب الدماغ السحابي (مرض النوم) عندما فشا هذا الوباء في أوربا خلال الحرب الكبرى فوجد التصاقات او كتلاً من النسيج المؤوف في المنطقة التي عند قاعدة الدماغ في كل حادثة تولاها بالبحث . ومن عهد قريب قام جماعة من علماء شيكاغو يبحث دقيق ثبت لهم منهُ ان الجزء الخاص الذي يصاب في قاعدة الدماغ هو الجزء المعروف باسم «هيبو تالاموس» (وهو الجزء الذي تحت المهاد اي تالاموس) . فوجدوا ان تيبُّس هذا الجزء من الدماغ في الهر تيبُّساً يسيراً يفضي بالهر الى رفع رأسه واتساع بؤبؤه وازدياد تنفسه ونشاطه حالة ان تيبُّس مناطق بأخرى من الدماغ لا يفضي الى مثل هذه النتائج . يقابل ذلك انه اذا أصيب هذا الجزء من دماغ الهرّ بآفة او باصابة أحدث ذلك سباتاً في الهر ، فاذا هيج بعد حدوث النوم تعذَّر التهيج عن ايقاظ الهرّ من سباته

وتحوَّلت جماعة شيكاغو بعد ذلك الى حيوان اعظم نشاطاً وأقل نوماً من الهرّ فاتخذوا نوعاً من القرد لا يستقرُّ على حال عندما يكون امام الناس ، فاحدثوا التصاقات في ذلك الجزء من دماغه المعروف باسم (هيبو تالاموس) فتحوَّل هذا الحيوان الصاخب الذي لا يستقرّ الى حيوان متراخٍ يغالبهُ النعاس فيغلبهُ حتى لقد يرين النوم عليه وهو يتناول طعامهُ . ولم يندر ان تستمرَّ هذه الحالة بضعة اسابيع . فاذا عاد القرد المعالج بهذه الطريقة الى اليقظة التامة كان أكثر استقراراً وألمَّ منهُ قبلها . واللافت ان الآفة التي أصيب بها «الهيبو تالاموس» غيَّرت من طبيعته الانفعالية ، وهذا يتفق والنتائج التي أسفرت عنها مباحث العلماء الآخرين ، وهي ان «الهيبو تالاموس» هو مركز الانفعالات

وقد تناولت تجارب جماعة شيكاغو عدداً كبيراً من الهررة وخمسة وخمسين قرداً ، فكانت النتائج التي اسفرت عنها يؤيد بعضها بعضاً . ذلك بأن الاصابة في الهيبو تالاموس تفضي الى النوم . اما اذا كانت في جزء آخر من الدماغ فانها لا تفضي اليه . ومما يجب ذكره في هذا الصدد ان الالتصاقات التي كانت تصيب هذا الجزء من الدماغ لم تمسَّ مسالك الاعصاب الرئيسية الممتدة من الجسم الى الدماغ ومن ذلك خلص رئيس هذه الجماعة الى القول بأنَّ النوم في هذه الحيوانات لم ينشأ عن قطع سبل الرسائل العصبيَّة الحيَّة السائرة من الجسم الى قشرة الدماغ . ومهما يكن من امر فهو مقتنع بأن «الهيبو تالاموس» متصل اتصالاً وثيقاً بتنظيم اليقظة والنوم وان كونهُ مركز الانفعالات يجعله عاملاً فعالاً في المحافظة على اليقظة

[ملخص بتصرف يسير عن مجلة هاربرز]

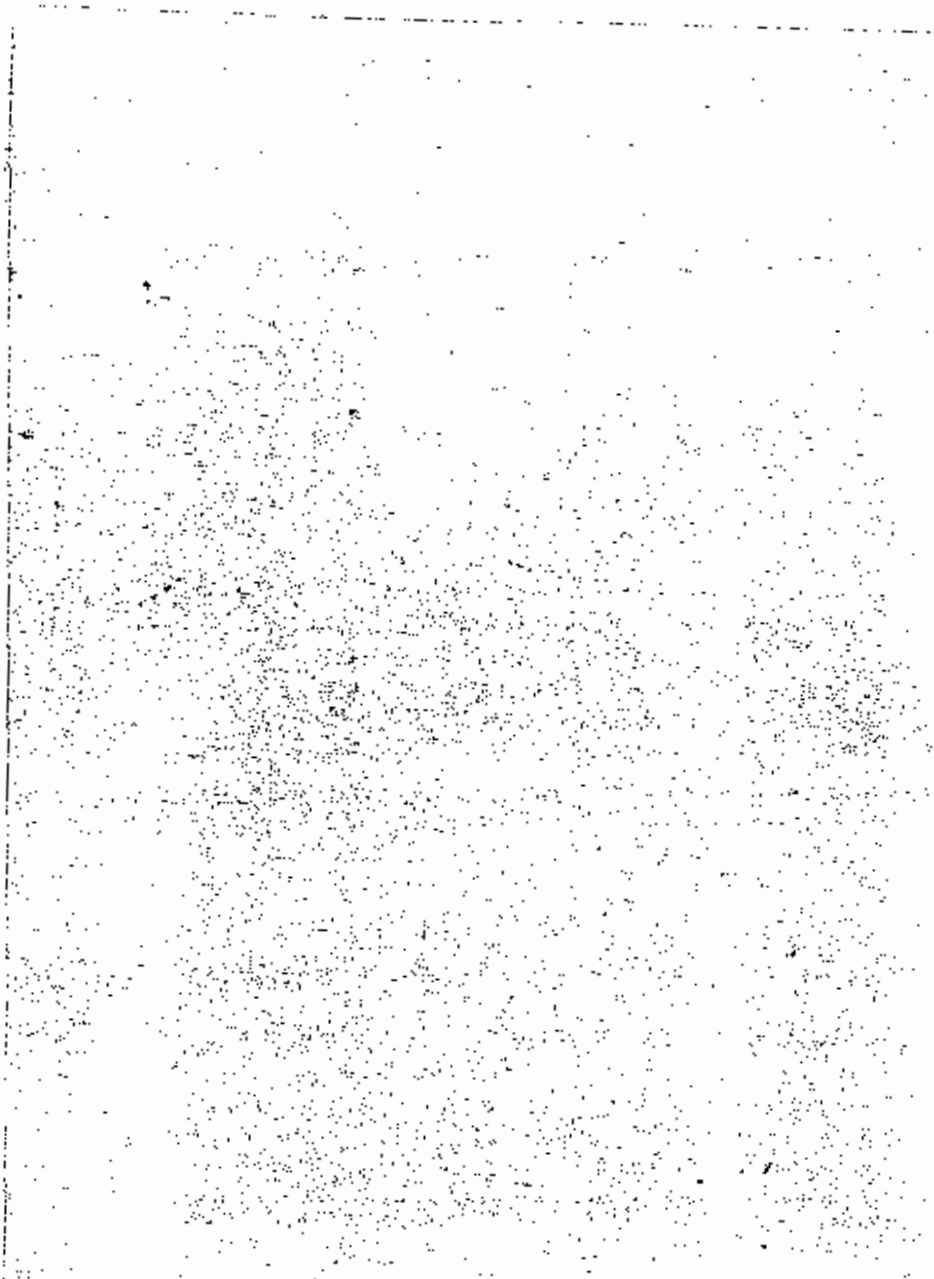

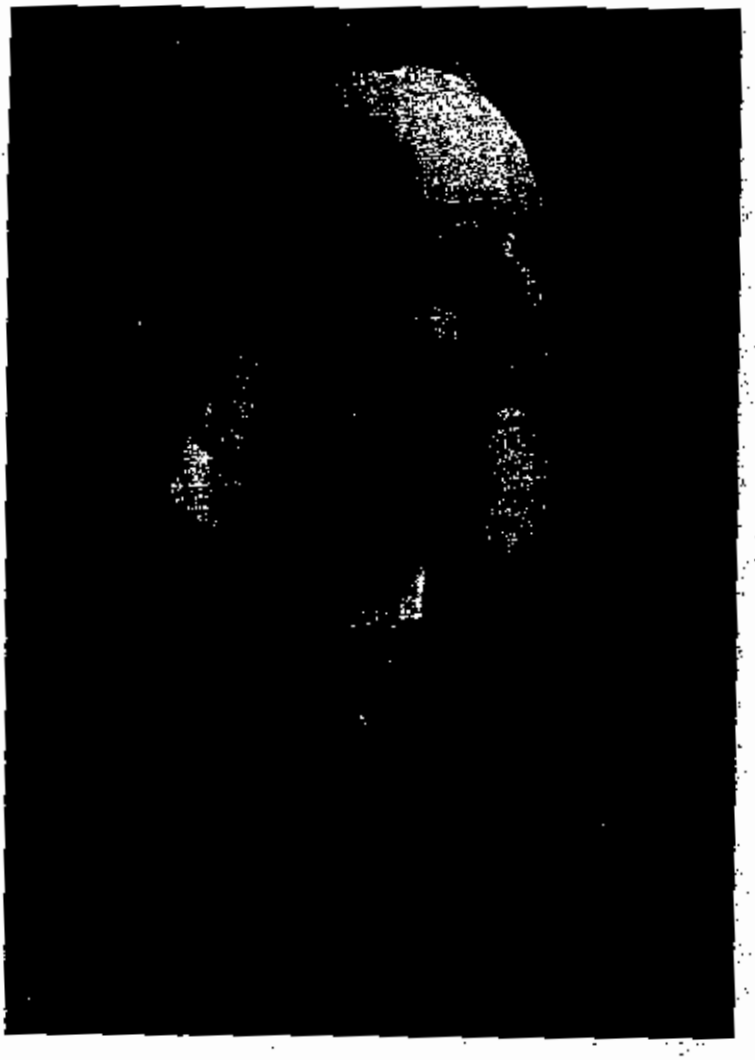

المستشرق بلنير

[تفضلت الآنسة سوزي بلنوكرمة
المصورة له الاستاذ بلنير باهداء
هذه الصورة التي وهي من أثمن
« أولمبيا » بروما و تقلها محفوظ]

المستشرق نلينو

مباحثه وآثاره

للعلامة المستشرق البروفسور ليفان
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الاستاذ كارلو الفونسو نلّينو (C. A. Nallino) علم من أعلام الاستشراق وامام المشتغلين بالمشرقيات في ايطاليا . عرفهُ طلبة الجامعة المصرية أمس واليوم أستاذاً وصديقاً وعالماً وديعاً فأحبوه وأحبهم وقد زاد تعلقهم به على قدر رعايته لهم وتشفيقهم.

حول الاستاذ نلينو أعين تلاميذه المصريين الى القطب الآخر الذي ينيب عنهم . ذلك أنهُ عرف فيهم النباهة وسرعة الخاطر وحب الاطلاع وقوة الذاكرة ثم كشف عن النقص فلاحظ ما يحتاجون اليه من تنظيم معلوماتهم وحصرها وضبطها حتى يتهيأ لهم التأليف بعد البحث فتعمد في درسه الدقة العلمية الشديدة ووقف على كل مسئلة يوقيها قدرها من الفحص ليصلح بنا أن نحرف وليجعل من هذا اثبات المذهب شجراً مثمراً . توصل الى غايته دون ان يرهق تلاميذه أو يكلفهم شططاً وهم يعترفون له على إختلاف مناحيهم بالفضل والأثر

وكذلك كان له خير ذكر عند زملائه علماء المشرقيات في أوربا والشرق العربي.

واليك المرثية التي كتبها المستشرق ليتمن من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية وأستاذ اللغات الشرقية في جامعة توبنجن بألمانيا . وهذه المرثية تبرز — على الطريقة الألمانية في المراثي — خصائص الراحل ومناحي مباحثه وألوان تأثيره

مراد كامل

— ١ —

خسر العلم بفقدان زميلنا الاستاذ نلّينو نابغة من اعظم العلماء وأجلهم قدراً . وقد ظهر نبوغ الاستاذ نلينو في علم المشرقيات وعلى الخصوص في العلوم الاسلامية ، ويندر ان نجد عالماً مثله بين اولاء الذين درسوا العلوم الاسلامية : بحث في كل فروع هذه العلوم المتشعبة فكشف لنا عن حقائق علمية جديدة في كل ناحية من نواحيها . وقد قال الاستاذ نلينو مرة لزميل من زملائه في مدينة بلرمو « لا يحوّلني عن دراسة العرب كائن ما كان ولكني أحاول أن

أعرف كل شيء عن العرب » . وفضلاً عن ان اللغة العربية والعلوم الاسلامية على تعدّد فروعها كانت موضع عنايته الخاصة فقد كان على علم يقين ومعرفة ثابتة بسائر لغات الشرق الأدبي وآدابها وقد عرف كيف يستعملها عند الحاجة فكان يتقن الآرامية والعبرية والفارسية والتركية ، وفي مؤلفاته شواهد باللغة الارمنية واللغة الحبشية . ولكنهُ حصر جهده في دراسة العربية كزميله المستشرق الهولندي ده غويه de Goeje (يعني بغ زميلاه الاستاذ نولدكه Noeldeke الالماني وكذلك الاستاذ جويدي Ignazio Guidi الايطالي في علم اللغات السامية عامة بل تعدياها احياناً الى فقه لغات اخرى) وأتقن الاستاذ نلينو دراسة علوم اخرى : فدوس علم الفلك والرياضيات والفلسفة والفقه وتاريخ الاديان دراسة محقق ليستعملها في مباحثه المختلفة . وكان يتعمق في الدرس ويتعقب اغلاط العلماء المتقدمين وينقّي الحبّ من التبن — كما تقول — ويحلّ المشكلات العلمية على وجه جديد صحيح . وقال عن نفسه مرة « اذا صادفني مسألة علمية فلا بدّ لي أن أتعمق في بحثها فأنا لا اكتفي بمعرفة نصف الشيء » . وبدأ احياناً بدراسة نقطة ظنّ انها تافهة فوصل منها الى مسائل مهمة حقّقها على اتمّ وجه . وقال في معرض الكلام عن هذا النوع من الدراسة في رسالة له تقع في خمس وعشرين صفحة عنوانها (أفلسفة مشرقية أم مُشرقية عند ابن سينا):« إنّ المسألة التي اقصد حلها تظهر تافهة ولغوية بعينها ولكن حلها في الحقيقة على غاية من الاهمية فهو يبيّن بطلان فكر ابن سينا ومنصبه الحقيقي في تاريخ الفلسفة عند مسلمي الشرق،فأملي ان اكون على حقّ في توسمي في هذا المقال والتدقيق في بحثه »

كان الأستاذ نلينو يملك زمام اللغة العربية كاتباً وناطقاً ، فقد ألقى بعض مؤلفاته بالعربية وألقى محاضرات في الجامعة المصرية بها من سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١٢ ثم من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣١ .وكان في جلسات مجمع فؤاد الاول للغة العربية كثيراً مايثوب عن الاعضاء الأوربيين في الكلام . وقد قرأتُ في جريدة مصرية « أن الاستاذ نلينو يعرف العربية كأنها لغة آبائه »

ولد الاستاذ نلينو في السادس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٧٢ في مدينة تورينو من اعمال بيمونت Piemonte ونشأ في أودينه Udine من أعمال البندقية ، ثم درس في مسقط رأسه تورينو تحت اشراف الاستاذ بزي Pizzi وحصل في سنة ١٨٩٣ على درجة الدكتوراه في الآداب وكان الاستاذ Pizzi يؤثر تدريس اللغة الفارسية فالغالب على الظن أن الاستاذ نلينو انتفع من تعليمه لتلك اللغة . أمّا الفضل في دراسته للغات الشرقية الأخرى فيرجع لنفسه واجتهاده . وقد ارسلتهُ وزارة المعارف الايطالية على نفقتها الى القاهرة في شهر ديسمبر سنة ١٨٩٣ فأقامها الى شهر مايو من السنة التالية ليتزيد من العلم . وفي خريف تلك السنة بعثهُ مرصد ميلانو الى الاسكوريال في اسبانيا لدراسة المخطوطات العربية فيها . وكان قد سافر سنة ١٨٩١ وهو ابن تسع عشرة سنة

الى مونيخ في بافاريا لكي يفحص عن بعض المخطوطات العربية وينسخها . ثم صار معلماً وهو ابن احدى وعشرين سنة أي في سنة ١٨٩٤ حين عيّن لتدريس اللغة العربية في المعهد الشرقي بمدينة نابولي ، وبقي في هذا المنصب الى سنة ١٨٩٩ . ثم رقي في المعهد نفسه الى منصب استاذ مساعد وظل كذلك ثلاث سنوات . وكان في الوقت عينه مدرساً للغة العربية وآدابها في جامعة روما الملكية ، ثم دعي في سنة ١٩٠٢ الى الجامعة الملكية في پارمو كأستاذ مساعد ، وبعد ثلاث سنوات عيّن أستاذاً للغة العربية بها حتى سنة ١٩١٤ ، وكذلك ألقى محاضرات في الجامعة المصرية القديمة من سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١٢ عن تأريخ علم الفلك عند العرب وعن تأريخ الآداب العربية ، ثم عُيّن أستاذاً بالجامعة الملكية في روما للتاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية فأنتج في التعليم والبحث والادارة ، وألقى محاضرات في تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام في الجامعة المصرية كأستاذ زائر من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣١ . وكلفتهُ حكومته بعد الحرب التي نشبت بين ايطاليا وتركيا ان يقوم بتنظيم ما تبقى من الأوراق الرسمية التركية السياسية وتأسيس مكتب للترجمة ، وكان ذلك في أواخر عام ١٩١٢ ، ثم عهدت اليه وزارة المستعمرات بأعمال مختلفة منها أن يكون مندوب الملك في تنظيم المعهد الشرقي في نابولي تنظيماً جديداً ، وكان ذلك فيما بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩١٤ فنرى أن الاستاذ نلينو لم يكن صاحب علم نظري فحسب ، بل اكتسب تجارب عملية مفيدة من أسفاره العديدة ومناصبه المختلفة أهّلتهُ كوطنيّ غيور لاستخدامها بغطنة زائدة في منفعة وطنه ، فكان كذلك عضو المجلس الأعلى للتعليم من سنة ١٩٢٣ الى سنة ١٩٢٨ وقد عُيّن سنة ١٩٢١ مديراً للمعهد الشرقيّ بجامعة روما فقام بادارته خير قيام إلى أن وافتهُ المنية . وفي اثناء ذلك أسّس مجلة (الشرق العصري) Oriente Moderno وكان رئيس تحريرها . وهي مجلة فريدة في بابها يحق للمستشرقين الايطاليين ان يفخروا بها إذ لا مجلة هنالك على اسلوبها في العالم يُذكر فيها كل ما يتعلق بالشرق العصري بمثل هذه الدقة والأمانة العلمية ، ويجانب هذا كلّه أسندت اليه ادارة القسم الشرقي من دائرة المعارف الايطالية وكذلك نيابة رآسة المجمع العلمي بروما

عرف الاستاذ نلينو في اسفاره المتعدّدة البلدان ، التي حول البحر المتوسط من المغرب الاقصى الى بلاد الشام ، فبعد ان زار القاهرة للمرة الاولى في سنة ١٨٩٣ سافر مراراً الى بلدان إفريقية الشمالية ثم حملتهُ الرغبة في البحث على زيارة بلاد السودان والعراق فسافر اليها عقب إقامته في القاهرة ، واخيراً شاهد بلاد العرب التي طالما بحث عنها نظريًّا ، فبينما كنا الى مائدة طعام في يوم من ايام شهر يناير في السنة الماضية اذ بادرني بقوله « اني سأسافر مع كريمتي الى جدة » وقد ودّعتهُ في اوائل شهر فبراير ونحن نجهل ما يخبأه لنا القدر وأنا لن نتقابل مرة اخرى . أفلته

سيارة السفير الايطالي مع كريمته من القاهرة الى السويس ومنها ساروا على باخرة صغيرة الى جدة فظلا هناك الى اواخر شهر مارس فسنحت لها الفرصة فسافرا بالسيارة الى داخل الجزيرة مارين بالطائف، وقد كتبت إليَّ الآنسة ماريا نلينو عن هذه الرحلة قالت: — «اضطررنا في رحلتنا هذه ان نلبس ملابس العرب فلبس أبي المشلح والعباءة. أما أنا فلبست الجلباب الأسود ووشاحاً مضاعفاً يغطي الوجه كله، وبتنا في طريقنا في قرية النيل في غرفة صغيرة خالية من الأثاث لا نافذة فيها ولا باب بدون مصراع تطل على السهل الواسع تسرح للكلاب والقطط وما اليها أن تدخلها وكل ما كان لدينا من الترف كرسيان من القش اضطجعنا عليهما بملابسنا». ومع ان الاستاذ نلينو كان يتحمل متاعب الاسفار ومشاقها فأنا أظن أن متاعب تلك الرحلة اضرت بصحته ولكنه رجع الى روما فرحاً مرحاً فبدأ عمله هناك بما عهد فيه من النشاط. وكان يريد أن يشترك في مؤتمر المستشرقين في بروكسل ولكن توفاه الله في الخامس والعشرين من شهر يوليه سنة ١٩٣٨ بسكتة قلبية، فحزنت عليه ايطاليا اذ كان من أعظم علمائها وحزن عليه جميع علماء المشرقيات وحزن عليه اصدقاؤه وتلاميذه الكثيرون في الشرق والغرب، وكذلك كان حزن أعضاء مجمع فؤاد الاول شديداً عندما اوصل اليهم معالي رئيسه خبر الوفاة قال: «مع عظيم الأسى وبالغ الحزن أبلغ حضراتكم نبأ وفاة زميلنا المغفور له السنيور نلينو. ولا شك أننا جميعاً نشعر بأن المجمع قد خسر بوفاته عضواً غزير العلم جليل النفع كريم الخلق، نسأل الله أن يلهمنا وإياكم جميل الصبر ويهبنا جميعاً العزاء»

— ٢ —

أما مؤلفات الاستاذ نلينو الاولى فأظهرت تشعُّب دراساته واتساع أفقه العقلي، فقد كتب أول مؤلفاته وهو ابن عشرين سنة وكان موضوعهُ جغرافيًّا، وكتابه الثاني عنوانه «منتخبات قرآنية» أضاف اليها معجماً له شأنهُ في علم اللغة، وكان موضوع رسالته الثالثة تاريخيًّا والرابعة فلكيًّا، ثم أفاضت علينا مؤلفاته الوانًا وانواعاً فشملت تقريباً كل علوم اللغة العربية والثقافة الاسلامية العربية. واهم ما نشر وأوسعه بحث عن علم الفلك عند العرب وتاريخ الفقه الاسلامي وفتح له هذا البحث باباً الى دراسة الفقه عند مسيحيي الشرق وهو أول من دلنا على حقيقة الكتاب المسمى (بكتاب الفقه السرياني الروماني)

والآن أحب أن أعرض مجملاً تآليف الاستاذ نلينو، ولما كان فهرست مؤلفاته المطبوع لم يُذكر فيه نقده العامي للكتب المختلفة ولا مقالاته المنشورة في دائرة المعارف الاسلامية ولا الايطالية فأنا لا يمكنني أن أتكلم عنها كلها هنا، وكل ما في وسعي أن أقوله إن نقده للكتب المختلفة كان في دائرة الموضوعات التي بحث فيها وقد يتعدّاها أحياناً، ولم يكن الاستاذ نلينو ممن يكرر القول في نقده بل يوضح المسائل بأفكار جديدة، وكثيراً ما أظهر بنقده أخطاء المتقدمين

وحدّد واجب الناقد والحاكم بقوله « أجتهد ان أقوم بهذا الواجب على وجهه محايد كما يجب على كل من دعي ان يحكم حكماً »

أما أول كتبه في اللغة وتاريخ اللغة فهو (منتخبات قرآنية) كتبهُ في سنة ١٨٩٢ ونشرهُ في السنة التالية ، وقد رتّب السور المختلفة بحسب تاريخ نزولها كما أثبت ذلك الاستاذ نولدكه Noeldeke في كتابه عن تاريخ القرآن ، لقراءة النصوص القرآنية ومسائل أخرى ظهرت بعد ما نشر برجشتر سر Bergstraesser وجفري Jeffery وبرتزل Pretzl أبحاثهم ولكن قصد الاستاذ نلينو ان يكتفي بالنصّ المبروض ، وأضاف الى كتابه تعليقات وملاحظات ومعجماً على غاية من الدقة ذكر فيه اشتقاق الكلمات كما كانت معروفة في ذاك الزمان ، وقال في ذلك « إني أعرضت أحياناً عن المعاجم العربية وبذلت جهدي لكي أعرض في معجمي هذا معاني الكلمات كما دارت في خلد النبي » . فهذا يظهر لنا الروح العلميّة الصحيحة لعالمنا الشاب ، وقد سمحت له اسفاره في افريقية أن يتعلم اللهجات العربية الحديثة فكان يتكلم باللهجة المصرية بطلاقة كما كان يتكلم بالعربية الفصحى ، فنشر أولاً (ملاحظات في اللهجة العربية التونسية على كتاب قواعد هذه اللغة الذي نشره الاستاذ Stumme) ، وتلا ذلك كتابه المشهور الذي عنوانه (اللهجة العربية في مصر) وهو يحتوي على قواعد اللغة العامية المصرية ومحادثات وستة آلاف كلمة تقريباً . وكتابه هذا عمدة لكل من أراد ان يدرس اللهجة المصرية فنفدت طبعتهُ الأولى لكثرة الاقبال عليه ثم ظهرت طبعة ثانية منقحة واقبل الاستاذ نلينو بعد ذلك بهمة عالية على إكمال هذا الكتاب وكذلك اعتنى بعلم النقوش العربية فنشر مقالتين عن رُجتين عربيتين منقوشتين وجدتا في ايطاليا الجنوبية ، ونشر ايضاً في مجلة الهلال مقالة عنوانها (كيف نشأت اللغة العربية) ثم مقالة أخرى عنوانها (الحروف اللاتينية هل تصلح للكتابة العربية) ونشر في مجلة المجمع العربي بدمشق مقالة سماها (تصحيفات غريبة في معجمات اللغة) وكتب في مجلة الدراسات الشرقية عن المعنى الاصلي لكلمة « ليصبّة » واستعمالها عند الفلاسفة وعلماء الفلك بناء على شواهد عربية مختلفة . ومقالة أخرى عن كلمة « ياض » بمعنى « قار » ، وردت في معاهدات بين مصر وأهل أرغون في القرن الثالث عشر الميلادي ، ونجد في بقية كتاباته الكثيرة ملاحظات شتى مفيدة عن تاريخ اللغة ومعاني الكلمات ، مثلا كلمة « هاهنا » التي استعملها ابن رشد بمعنى « يوجد » كما تستعمل لفظة « فيه » في العاميّة ، وكذلك نجد في كتابه الفلكي المشهور عن البتاني قسماً لغويًّا على غاية من الأهمية ، وله مقالة عن كتابين في اللغة العربية الجنوبية قبل الاسلام وهما كتاب قواعد اللغة العربية الجنوبية للاستاذ جويدي Guidi والمنتخبات العربية الجنوبية للاستاذ كونتي روسيني Conti Rossini اوضح فيها مسائل لغوية وتاريخية هامّة .

أما الآداب العربية وتاريخها فكان الاستاذ نلينو على معرفة يقينية بها فكان يعرف مئات من المطبوعات العربية من جميع البلدان الاسلامية القريبة منها والبعيدة ويحفظ مضمونها في ذاكرته بدون حاجة الى الجذاذات ، وكان لا يكلّ عن جمع الكتب ويأخذ معهُ من القاهرة كلما جاءها صناديق عديدة من الكتب إلى روما ، وكتب عن موضوعات أدبية منها (حيقر الحكيم وكتاب طوبيا) — (تاريخ آداب اللغة العربية) — (نقص تاريخ آداب اللغة والعلوم التاريخية عند العرب) — (بيت الثابتة عن الإله ودّ) — (آثار كتب يونانية وصلت العرب عن طريق السريانية) — (عمّ متولى ، حكاية عربية تأليف محمود تيمور مترجمة مع مقدمة وتعليقات) — (ملاحظات عن ابن المقفع وأدبه) . ومن أهم مقالاته تلك التي كتبها عن الكتب اليونانية التي وصلت العرب عن طريق السريانية دلّ فيها على أن كتب Cassiodorus Bassus Scholasticus وVegetius Valerius وTenkros نقلت الى اللغة السريانية أولاً ومنها الى العربية ، وفسّر بنظره الثاقب الأسماء المصحفة عند العرب بتعدّد دلالات الحروف السريانية ، فحصل من ذلك ان تيكلوس وطيقروس وتكلوشا صيغ مختلفة لاسم Tenkros وان كتاب تكلوشا تروبركا هو كتاب الفلاحة النبطية المعروف ، وبذلك يستدلّ القارىء على مقدرة الاستاذ نلينو في اللغة السريانية وما عدا ذلك فلهُ نقد كتب كثيرة عن الآداب العربية

من أهم أعمال الاستاذ نلينو التاريخية نشره كتاب تاريخ مسلمي صقلية الذي ألفهُ Michele Amari . فقد نشر الجزء الأول في سنة ١٩٣٣ والثاني في سنة ١٩٣٥ ونصف الجزء الثالث في سنة ١٩٣٧ . ووافتهُ المنية قبل ان يتم طبع الكتاب كله ، ولا شكّ أنهُ كان العالم المستعدّ للاعتناء بمثل هذا العمل لما لهُ من تجارب طويلة في بلورة مع معلوماته التاريخية الفذة . ونحن نتبين من مقدمة هذا الكتاب التي تقع في ثلاث وثلاثين صفحة قيمة هذا العمل الجسيم وما يحتاج اليهِ الانسان من عناء واجهاد . أما أعماله التاريخية الأخرى فيتعلق معظمها بتاريخ العرب قبل الاسلام لا سيما بتاريخ العرب الجنوبيين الذين ألقى عنهم محاضراته الدقيقة في الجامعة المصرية . أما الرسائل التي كتبها فهي (عن تشريع القبائل العربية قبل الاسلام) — (البندقية وسفائنها في القرن الثامن عشر حسب وصف المؤرخ العربي مقديش) — (تاريخ اليمن قبل الاسلام) — (روّاد اليمن من الأوربيين) — (هل كانت مصر تتعامل رأساً مع جنوب جزيرة العرب قبل عصر البطالسة) — (علاقة العالم الاسلامي بأوربا) — (عن العرب والبربر في بلاد برقة) — (مخطوطان عربيان عن تاريخ بلاد اليمن موجودان في مجموعة كايتاني Caetani)

أما الجغرافية ، فكان اول ما نشره الأستاذ نلينو فيها (القياس الميتري لدرجة دائرة نصف

النهار عند جغرافي العرب) وأهم ما كتبهُ من هذه الناحية مقالة عنوانها : الخوارزمي وتجديده لجغرافية بطليموس) ، وقد ترجم ملخص هذه المقالة الى اللغة الفرنسية ، وهو المستشرق الوحيد الذي قارن من نواحي عديدة مختلف العلوم الاسلامية العربية بالعلوم اليونانية وبين علاقة بعضها ببعض لفهم الواحد من الآخر ، فاهتمّ بالأسماء الجغرافية وكتب عنها رسائل شتى وهي (كيفية كتابة الأسماء الجغرافية باللغة العربية والفارسية والتركية) — (الأسماء الجغرافية في العالم الاسلامي في بعض مؤلفات عربية جديدة) — (كيف تكتب الأسماء الجغرافية في طرابلس الغرب وبرقة باللغة الايطالية واللغة العربية) . وبينما كان ينشر ويترجم كتاب البتاني بحث أيضاً عن جداوله الجغرافية وألّف رسالة عنوانها (الجداول الجغرافية للبتاني مترجمة ومفسّرة) ، وكتب بياناً عن المكتبة الجغرافية التي نشرها الاستاذ de Goeje وكتب أيضاً في خارطة عربية من القرن السادس عشر الميلادي لعلي بن أحمد من مدينة سفاقس وعن رحلة سافر في ليبيا في القرن الثامن عشر ، وبهذه المعلومات الفذّة للأسماء الجغرافية استطاع ان يساعدنا كل المساعدة في جلسات مجمع فؤاد الأول عند المناقشة في هذه المسائل .

— ٣ —

أما علم الفلك عند العرب فالاستاذ نلينو هو السيد فيه ، وكتب أحد المستشرقين عن كتابه المسمى بالبتاني الذي يقع في ثلاثة مجلدات (إنهُ الحجر الأساسي لعلم الفلك ومن يعرف استعماله يجد فيه ملاحظات في هذا العلم الصعب وهو فوق ذلك يهيء للقارىء ابحاثاً أهمّ منها) ، وعنوان هذا الكتاب لاتيني وترجمتهُ (كتاب البتاني الفلكي منشور بالعربية عن المخطوط الموجود في الاسكوريال ومنقول الى اللاتينية ومفسّر بتعليقات) ، طبع المجلد الاول في سنة ١٩٠٣ ويقع في سبع واربعمائة صفحة من القطع الكبير ويحتوي هذا المجلد على ترجمة الكتاب والشروح وعلى مقدمة يخبر المؤلف فيها بحياة البتاني الحراني وبرسائله والكتب التي نسبت اليه خطأ ، ثم تكلم عن الكتاب نفسه ، فطبع المجلد الثاني بعد أربع سنين ويقع في اربع وأربعين وأربعمائة صفحة وهو ترجمة كل الجداول مع تعليقات ومعجم وفهارس ، والمعجم العربي فيه مقدمة نحوية قصيرة ثم ملاحظات كثيرة عن الاصطلاحات الفلكية العربية وهي مهمة جداً من الجهة النحوية واللغوية . ويلي ذلك فهرس جغرافي وآخر تاريخي . اما المجلد الثالث ويقع في تسع وسبعين ومائتي صفحة فطبع قبل المجلد الاول بأربع سنين وهو المتن العربي . وله كتاب فلكي مشهور كتبهُ بالعربية وهو (علم الفلك : تاريخهُ عند العرب في القرون الوسطى) ويقع في احدى وسبعين وثلاثمائة صفحة وهو نص الاربعين محاضرة التي القاها الاستاذ نلينو في الجامعة المصرية القديمة فنشرتها منها كاملاً وتمها مختصراً ، وأضاف اليها ملاحظات اخرى عديدة وثمانية عشر ملحقاً تختلف

طولاً وقصراً وفهرست المواضيع وفهرست اسماء العلماء الاوربيين المذكورين في الكتاب وقائمات المضيون في كل محاضرة . وكثيراً ماكان الاستاذ نلينو يضيف مثل هذه المختصرات الى مؤلفاته وهي تدل على تنظيم عمله وترتيب افكاره وهي فوق ذلك تسهل على القارىء سرعة فهم الكتاب . وهذه المحاضرات تشمل جميع الكتب العربية في علم الفلك ،فنقدها المؤلف وحدّد علاقتها بعلم الفلك عند اليونان والفرس والهند وأظهر ايضاً المعلومات الفلكية عند العرب قبل الاسلام، وألّف فيما عدا ذلك رسائل قصيرة في علم الفلك واصطلاحاته وتاريخه ، منها (علم الفلك عند جميع) — (الاشتقاق العربي لكلمتين الايطاليين azimut و zenit وملحق عن كلمة nadir — (هل يقال زَرَق ثم رزق في علم الفلك الدائر عند العرب)— (كلمة قطع في علم الفلك عند العرب) — (الشمس والقمر والكواكب عند المسلمين) ، وله فوق هذا نقد كثير لكتب فلكية عربية .

—٤—

درس الاستاذ نلينو تاريخ الفقه الاسلامي وكذلك فقه الشرق القديم والشرق المسيحي كما انهُ درس كل فروع الثقافة الاسلامية فألف رسالة عن (كتاب البيان لابن رشد الحفيد) وهو جد ابن رشد الفيلسوف. وكان هذا في سنة ١٩٠٤ ثم ابتدأ منذ سنة ١٩٢١ بتأليف كتب ورسائل عن علم الفقه الذي كان علك ناصيته ، وكان السبب الذي دعاه الى هذا هو ان الاستاذ E. Cerusi الذي عينتهُ الحكومة لتدريس الفقه الشرقي في كلية الحقوق بجامعة روما ادعى انهُ عضو المدرسة الشرقية فرد المدرسة ولكنها لم تقبل ذلك الا مضطرة ، ثم نوهت الى الاستاذ نلينو هذا الواجب الثقيل أن ينتقد ما كتبه الاستاذ كاروزي في تاريخ الفقه الشرقي مع قلة كفايته وضعف معلوماته في اللغات الشرقية فقام الاستاذ نلينو بهذا الواجب الصعب بما عهد فيه من دقة في البحث وعدل في الحكم ، ولهذا السبب وجب عليه أن يدرس كتاب الفقه الملقب بالسرياني الروماني وكذلك كتاب الهدايات أي القوانين لابي الفرج بن العبري وتحت له دراسة هذه الكتب ابواباً مختلفة الى ابحاث مهمة ، ورفض على حق مازعمهُ الاستاذ كاروزي من ان هناك فقه سامي أصليّ ، ثم اقتفى أثر كتب الفقه السريانية والعبرية وقارنها بالفقه اليهودي ، فبدأ بكتابة رسائل في مسائل مختلفة منها (الفقه الاسلامي في القوانين السريانية المسيحية لابن العبري) وبرهن فيها على أن ابن العبري اقتبس قسماً من قوانينه من الفقه الاسلامي دون أن يشير الى ذلك ، ورسالة (Parrhesia والزواج بلا عقد كتابي حسب الكتاب السرياني الروماني) ثم (ملاحظات جديدة عن الكتاب السرياني الروماني وابن العبري) — (كُتُب فقه رومية في تراجم عربية مسيحية) — (Apotemnein والمنع من الميراث في كتاب الفقه السرياني الروماني) — (بعض مواضيع تتعلق بالفرائض في الكتاب السرياني الروماني) — (Pherne بمعنى مهر في كتب سريانية ويهودية)

ثم كمّل هذه الرسائل كلها برسالته (عن الكتاب السرياني الروماني وعن الفقه السرياني الوهمي) وقد كان علماء تاريخ الفقه قد عرفوا أن بعض أبواب كتب الفقه السريانية التي نشرها الاستاذ Sachau ترجمت من كتب فقه يونانية — رومانية، ولكنهم ظنوا أن باب الفرائض هو فقه سرياني محض معمول به في بلاد الشام وأن هذا الفقه أصيل موجود في الشرق القديم وأخذ الاستاذ نلينو في الفصل الذي سماه (مراجعة الافكار الشائعة من كتاب الفقه السرياني) يقول «لو أردنا أن نظهر ونصلح كل الآراء الخاطئة والأغلاط والالتباسات التي وقعت في درس هذا الكتاب لوجب علينا أن نكتب سفراً ضخماً». ولكنهُ أثبت أن الجزء الذي كان يظنه العلماء سريانيًّا بحتاً هو في الحقيقة يحتوي على قوانين رومانية قديمة من قبل زمن يوستنيانوس قيصر الروم المعروف عند العرب بهرقل وأن كتب الفقه هذه لم يكن معمولاً بها عند السريان ومن الواضح أنها ترجمت من اليونانية، وقد برهن الاستاذ نلينو أن قصد مؤلفها — الذي يجهل اسمه — كان تعليميًّا عمليًّا وانه انما أراد ان يكتب كتاباً تعليميًّا مختصراً وأثبت كذلك ان الكتاب الملقب بالفقه السرياني الروماني لم يترجم في القرن الخامس بعد الميلاد بل في القرن الثامن وان هذا الكتاب لم يستعمل قط لمجموع القوانين عند الأساقفة بل اعتبروه تحفة لمسيحي الغرب. هذه هي النتائج الجديدة المفاجئة لابحاث الاستاذ نلينو في مسألة كثر البحث فيها ولم تفهم قبله. أما رسائله الأخرى في الفقه نعني الثالثة (الكفالة في الفقه الحنفي) — (تحريم المؤاخاة في الفقه الروماني الفيصري وما يماثله عند العرب)، وكذلك كتب مقالات عن (الفقه الاسلامي) و (بيت المال) و (القاضي) في المجموع الايطالي الجديد.

وكان الاستاذ نلينو يفهم جيداً الدين الاسلامي والفكر الاسلامي وأمور المسلمين وكلّ ما يتعلق بهم، وكتب رسالة عن الاسلام في العصر الحاضر سماها (مقاصد الاسلام العصرية)، وفسّر تسمية فرقتين إسلاميتين تفسيراً جديداً بناء على بحث لغوي تاريخي دقيق فبيّن أن كلة المعتزلة معناها «المحايدون» لا «المفصولون» كما يظن العلماء وقال إن القدرية الذين لم يقبلوا القدر بل رفضوه سموا بذلك الاسم لأنهم اشتغلوا بالقدر، ووصف أيضاً الصلة بين كلام المعتزلة وكلام فرقة الاباضية في إفريقية الشمالية وشرح العلاقة بين الاثنين شرحاً واضحاً ولكنهُ ترك هذه المسألة دون ان يفصل فيها، ثم نشر مقالة مفيدة عن رأي غريب منسوب الى الجاحظ يخصّ القرآن الشريف بأن القرآن جسد يتقلب تارة إنساناً وتارة حيواناً، فلم يفهم العلماء هذا الرأي بل أولوه على أوجه مستحيلة شتى، وشرحه الاستاذ نلينو على وجه بسيط قائلاً انهُ اذا زعم ان القرآن مخلوق فهذا الرأي لا يقصد تبديلاً بديعيًّا وحقيقيًّا بل تغيراً محتملاً نظريًّا بقدرة الله لأن الله يقدر ان يغير ما خلق. وكتب أيضاً عما نشر في العراق

منذ زمن قليل عن مجادلة سياسية دينية ، وفي السنة الماضية ظهرت لهُ مقالتان « الحديث » و « الاجماع » في الموسوعة الايطالية الجديدة ، أما النبي فكتب عنهُ مقالتين الأولى عنوانها (الأستاذ Gabrieli ورسالة لم تنشر عن مصدر عربي للسيرة) والثانية سماها (في القرن الثالث عشر لوفاة النبي) ، ومقالتاه عن الخلافة احداهما (ملاحظات عن الخلافة عامة وعن الخلافة العثمانية المزعومة) فنقلت هذه المقالة الى الفرنسية والانكليزية ، والثانية (انتهاء الخلافة المسماة بالعثمانية) ، وما نشره عن التصوف في الاسلام أهميته عظيمة ، ولهُ رسالتان عن هذا الموضوع أولاهما (القصيدة الصوفية العربية لابن الفارض مترجمة الى الايطالية) والثانية (ملاحظات أخرى على ابن الفارض وعلى التصوف الاسلامي) . ولتمكنه من الأدب الصوفيّ الشرقيّ والعربيّ أمكنهُ ان يشرح جليًّا الفرق بين تصور الشاعر وبين المذهب الفلسفي ويبّن أيضاً كيف يمكن ان يكون المسلم الصوفي ثابت العقيدة ، وتوصل بمعرفته التامة لعلم النفس والفلسفة الى ان يفهم نفسية الشاعر فهماً متقناً ، فحدّد معانيه وفسّر لغته ، وصوّر « خيال الظلّ » عندما ذكر في الأدب الصوفي تصوراً حيًّا لأنهُ كان يعرف كل ما نشر عن هذا الفن في المسرح . واذا نقد كتب المؤلفين العرب أظهر مقدرة أدبية فنية في الحكم على مؤلفاتهم فيصف الأسلوب أحياناً بأنهُ جامد لا حياة فيه وأحياناً بأنهُ جيل ظريف .

كان الاستاذ نلينو خبيراً بالفلسفة الاسلامية ولكنهُ لم ينشر عنها الاّ قليلاً ، ومن أهم أبحاثه المقالة التي نشرها عن كلمة مَشْرِقية أم مُشْرِقية عند ابن سينا ، وقد قرأها بعض العلماء مشرقية أي مضيئة وبنوا على هذه القراءة آراء شتى وبرهن الاستاذ نلينو ان قراءة مُشرقية مستحيلة صيغة ومعنى وقرأها مَشرقية فشرح معنى الفلسفة الشرقية وتاريخها شرحاً مفصلاً ، وأصبح هذا الشرح ذا شأن عظيم في طريقته ومضمونه وهو باب دقيق من أبواب تاريخ الفلسفة الاسلامية . ولم يشر أيضاً بحثاً عن كلة استعملها ابن سينا وفسّرها العالم الايطالي I. Campanella خطأً ، وقد ترجمة اسبانية لكتاب ابن طفيل الذي تكلم عنهُ في رسالته المشهورة عن الفلسفة المشرقية ، وله ما عدا ذلك نقد لكتب اخرى عديدة عن الفلسفة العربية .

أما علم الآثار القديمة فدرسهُ الاستاذ نلينو ايضاً ونقد كتباً تتعلق بهذا العلم بنفس المقدرة التي نقد بها كتباً أخرى ، وألّف رسالة عنوانها (الأساطير التي تدور حول قبر النبيّ داود ووجوده تحت المكان المقدس للعشاء السريّ)

وقد ظهر من كل مؤلفاته انه كان يلمّ بعلم الكتب وتاريخ العلوم والف ايضاً في هذين العلمين رسائل كثيرة ، منها (ملاحظات على علم الكتب الشرقية)—(المخطوطات العربية والفارسية والسريانية والتركية في دار الكتب الوطنية ودار الكتب للمجمع العلمي في تورينو) —

(فهرست كتب تخص العربية الشمالية) — (طبع المؤلفات العربية وقانون حمايتها)—(رسالة من ايطاليا) وهو تقرير عن حالة دراسة اللغة العربية والعلوم الاسلامية في ايطاليا من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩٠٥ (عن تاريخ العلوم : رسالة في تاريخ الرياضيات)—(المخطوطات العربية التي استعملها Ludovico Marracci كمصدر له في كتابه عن القرآن) — (هل كان أبو أفلح سيراقوسيا أم مرقسطيا) — (أهم النتائج التي وصل اليها E. Cerulli في رحلته الى بلاد الحبش الغربية في سنة ١٩٢٧ و١٩٢٨ و١٩٢٩ . وأضاف ذيولاً كثيرة الى كتاب المؤرخ الرياضي القلكي المشهور H. Suter المسمى بتاريخ علماء الرياضة والفلك عند العرب ومؤلفاتهم »

كان الاستاذ نلينو على معرفة يقينية باللغات الايرانية ولكن لم يؤلف فيها إلا رسالتين إحداهما عن الشاعر ميرزا فتح علي آخند زاده من اذربيجان الذي الف روايات تمثيلية غربية في بابها بلغته التركية ونالت هذه الروايات اهتمام المستشرقين وأنا اذكر أيام كنت ادرس على الأستاذ E. Jacob أنه وقف جهده على هذه الروايات ، ومنها رواية اسمها سيو ژوردان مترجمة الى الفرنسية وكتب عنها الأستاذ نلينو ، وكذلك ألقى في الاحتفال التذكاري للفردوسي محاضرة عن هذا الشاعر المشهور ، وكان فوق ذلك يستعمل معلوماته في اللغات الايرانية لحل مسائل في تاريخ الادب . وأظهر نقده لكتاب الأب بيدار في قواعد اللغة الكردية معرفته اللغات الهندية الايرانية » . وكتب ايضاً لخدمة الادارة الايطالية في المستعمرات مذكرتين احداهما «التعليم في المستعمرات» . والثانية «معاملة الوطنيين واشتراكهم في ادارة المستعمرات» . وقام دائماً بالواجب نحو زملائه واصدقائه يعدد فراقهم لهذه الدنيا فأنبهم بكلمات موافقة أخص بالذكر الايطالي Caetani والاستاذ Snouck Hurgronje الهولندي الذي سمي في الحجاز الحاج عبد الغفار .

وكان الأستاذ نلينو طالباً نابغاً وعالماً فذاً وجمع الى هذا البساطة والوداعة وهاتان الصفتان أحسن زينة لعظماء الرجال ، وكان له مراكز مختلفة كنائب رئيس المجمع العلمي في روما وكذلك عضو أو عضو شرف في كثير من الجمعيات العلمية في ايطاليا وفي بلدان اخرى وحاز ياشين ورتباً كثيرة فكان Officier للمجمع الفرنسي ، ومن لم يعرفه حقاً لم يكن يظن ان هذا العالم المتواضع صاحب سعادة وحامل لوسام الجمة الايطالية . عاش للعلم ولابنته ولأخته ولوطنه بعد ما انتزع الموت منه قرينته وابنه ، وقد جمعني به صداقة ثلاثين سنة لم يعكر صفوها وكنا اذا التقينا في القاهرة سكنا في دار واحدة واجتمعنا كل يوم ، وكما قدم كتابه عن البتاني بهذه الالفاظ « الى والدي العزيزين اللذين اذكرهما دائماً واللذين لا اقدر أن اعبر عن مقدار شكري لهما» أقدم أنا هذه المرثية لصديقي العزيز الذي اذكره دائماً والذي لا أقدر أن أعبّر عن مقدار شكري له .

لحسن كامل الصيرفي

دمعة الحسناء

دموعُكِ أغلى من الأُمنيّاتِ فصُوني دموعَكِ يا غاليَهْ!
ولا تحزَني لليومِ الثّقالِ ثمرٌ يقبّلكِ الصافيَهْ
ولا تحمي ظُلُماتِ الحياة ستمتدُّ أمواجُها الطاغيَهْ
فتَمْسَكِ تحلمُ في خِدْرِها ببهجةِ غُدْوَتِها الصاحيَهْ
ستنفضُ عنها خمولَ الدُّجى وتنهضُ سافرةً لاهيَهْ
وتُرسِلُ فوق عَراءِ الوجودِ خيوطَ أشعّتِها كاسيَهْ
وتوقظُ من غَمَراتِ الكونِ أمانيَّكِ الحُلْوَةَ الغافيَهْ
وتختالُ في موكبٍ من ضياء يمدُّ أشعّتَكِ الداجيَهْ
صاحُكِ يُنبُوعُهُ القُدْسِيُّ يفيضُ على روحيَ العافيَهْ
فكيف تظنّين أن الظلامَ ستخلدُ رايَتُهُ الباغيَهْ؟
يدُ الفجرِ تمحُلُ ماتزهينَ وتُطلِقُ أطيارَها الشاديَهْ

وتمسحُ أعيُنَنَا الدامعاتِ وتشفي جِراحاتِنا الداميهْ

* * *

رأيتُكِ تبكين في غَمْرَةٍ من اليأس مُوحِشَةٍ قاسيهْ
كأنكِ زَنْبَقَةٌ في الدُّجَى تعطّر أندِيَةَ الباكيهْ
فأحسستُ كَفَّ الظلام الدَّيْجُوريِّ تُطْفِيهِ أحلامَ الزاهيهْ
وأحسستُ أنّاتِكِ الشاردات تُرَجِّعُها نَسْمَةٌ حانيهْ
تمزّقُ سِتْرَ الدجى والكونِ وتُقْلِقُ أنْجُمَهُ الراعيهْ
وتبعث في خَفَقاتِ القلوبِ كَوامِنَ أشجانِها الماضيهْ
فذُودي عن النفس أشجانَها تُعيدي ابتسامَتَكِ الشافيهْ
وإنْ حَبَسَتْ في السماء الغيومُ فغنّي بأمْنِيكِ الغاليهْ
فما تَطَرانُ دموعِ الحنانِ سوى سُبْحَةِ الخالقِ الساميهْ
اذا قَرَطَتْ حبَّةٌ من غُرافها تُدَكُّ لها الأجْبُلُ الراسيهْ
وتُغْلَقُ أبوابُ فردَوْسِهِ وتَنْضَبُ أنهارها الجاريهْ
وتسكتُ أطيارُها الصادحاتُ وتَخْفُتُ أصداؤها الساريهْ ا

خليل مطران

شاعر العربية الإبداعي

البحث الثاني

الدكتور اسماعيل احمد ادلفي
عضو اكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

الشعر العربي : طبيعته وتطوره

يقول الازهري : «الشعر القريض المحدود بعلامات لايجاوزها . والجمع اشعار ، وقائله الشاعر ، لأنهُ يشعر ما لايشعر غيره» . والكلمة استعملت بمعنى العلم والمعرفة عند العرب في الجاهلية من حيث ان الشعور مقدمة للمعرفة والعلم ، فتقول شعرت به اي علمت ، وليت شعري ماكان اي ليت علمي محيط بما كان ، وشعرت بكذا فطنت له

وفي القرآن الكريم « وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون » بمعنى ما يدريكم . فالأصل في الكلمة الشعور ومنها نقل اللفظ لباب المعرفة والعلم . ومن هنا لانجد بدًّا من رفض مانوهمه البعض من أن أصل الكلمة العلم . اما ما يراه بعض علماء المشرقيات في أوروبا من ان الكلمة ذات اصل في لغة العبريين بمعنى الترتيلة والتسبيحة المقدسة فهذا وهمٌ سببه ان الكلمة استعملت بهذا المعنى في بعض مواضع من العهد القديم . وهي في الأصل تفيد معنى الشعور ، ومنها نقل اللفظ لباب العلم والمعرفة في لغة العبريين . فلفظة «شار» العبرية تستعمل بمعنى المسكة من العقل والمعرفة كما هو في ملاخي — اصحاح ثان فقرة ١٥ . وهذا الأستعمال المقابل في العبرية للاستعمال العربي ، يحمل في نفسه أصلاً يدل على الشعور . ولاشك ان نقل اللفظ من معنى الشعور الى معنى العلم والمعرفة في العبرية والعربية قديم حتى اشتركت فيه كل من اللغتين

والشعر عند العرب شعر من حيث هو فيض الشعور . وهذا وجه تفرقة الشعر عن بقية ضروب الكلام في الأصل عند العرب

والشاعر وجمعهُ شعراء ، لفظ يطلق عند العرب على من يقرض الشعر . ومن حيث ان لفظة الشعر نقلت من باب الشعور بالشيء الى العلم به فان لفظ شاعر أستعمل للدلالة على أهل الحجى من العرب من حيث هم اصحاب المعرفة والعلم ، ولما كان العلم والمعرفة عند العرب لهما أصل مستمد

من الغيب ، فان اصحاب الحجى هم أصحاب المعرفة من المتصلين بقوى الغيب من الجن والشياطين ومن هنا جاء ان لكل شاعر شيطاناً يوحي اليه بما يقول . والارتباط الذي حدث بين معنى الشعور والعلم نظراً لأنه قديم أفضى الى تداخلهما وأصبح الشاعر يتطلب منهُ تمثيل الحياة الجاهلية في كلامه

والواقع ان الشعر الجاهلي قد نجح في تمثيل الحياة الاجتماعية والشعورية والعقلية عند عرب الجاهلية تمثيلا قويًّا الى الحدّ الذي تسمح به القريحة العربية

هذا وقد نشأ الشعر العربي كما نشأ الشعر عند بقية الأمم السامية مقفى ولكن بلا وزن ، وأقدم ما وصلنا من شعر الأمم السامية ، مقطوعات من الشعر العبري يرجع تاريخها الى القرن الثامن والتاسع قبل ميلاد المسيح . وهي مقفاة لكنها ليست موزونة ، وقافيتها قائمة على انغمة بدائية تقوم فيها ، وهذا ما يظهر الباحث من مراجعة سريعة لسفر الخروج اصحاح ١٥ من الفقرة الثانية وما بعدها حيث ترنم موسى وبنو اسرائيل للرب عند الخروج ، ومن سفر خاطئة لسفر العدد اصحاح ٢١ فقرة ١٧ وما بعدها . فهنا في هذين المصدرين يجري الكلام على أساس الصلاحية للغناء . ومن هنا يمكنك ان تجد ان هذه الترنيمات منتهية بمقاطع متعارفة كانت مقدمة لنشأة القافية ، او بتعبير أدق هي صورة بدائية للقافية . مثال ذلك — anonnaun — في العبرية . فهنا نجد لنا مقطعاً يتكرر بنغمة واحدة في أواخر الفقرات ، وهذا ما يمكنك ان تلحظه في القرآن الكريم وفي سوره المكية على وجه خاص ، ولا شك ان العرب حين لحظوا روح التصور الشعري في القرآن الكريم مع التزام مقاطع واحدة في أواخر العبارات عما يقرب من القافية ، قالوا هذا شعر بالقياس على الشعر في كلامهم . وبعد فالقرآن الكريم — كما يرى الدكتور زكي مبارك — نثر روحي في كتابته أساس الغناء . وهذا ان دلنا على شيء فانما يدل على ان العرب الى عهد الرسول كانوا ينظمون الشعر مقفى ولكن بلا وزن كما كان يفعل قدماء العبريين غير أنهُ يظهر ان مثل هذا الشعر فقد في تنقله في خلال الأجيال فلم ينته الى العصر الثاني من الهجرة حتى بدون [1] . ولا شك ان الوزن مستحدث في الشعر العربي بعد ان تكاملت فيه القافية ، نشأ من ملاحظة تكرار المقاطع اللفظية ، كما هو الحال في الشعر العبري ، ومن هنا لنا ان نحكم بأنهُ لا صلة بين نشأة الوزن وحدو الجمال كما ظن وتوهم بعض باحثي الافرنج والعرب [2]

(١) « القرآن والشعر » في Z.R.G.I. م ٣٦ ج ١ ص ٧٢ — ٩٦ وج ٢ ص ١١٤ — ١٣٨ وكذا زيدان في الهلال م ١٤ ج ٤ ص ٣١٦

(٢) Dr. G. Jacob في Hafe-Studien in Arabischen Dichtern ٣ ص ١٧٩ والزعاوي في مجته « تولد الغناء والشعر » بالمقتطف م ٨٥ ج ٥ ص ٤٩٤ — ٤٩٧

— ١ —

تباينت نظرات الباحثين الى الشعر العربي تبايناً كبيراً ، فبينما نرى نفراً من أعلام المدرسة القديمة يرفعون من شأن الشعر العربي حتى يصل بهم الغلو الى جعله فوق شعر أمم الارض قاطبة ، ذاهبين الى ذلك بوحي اعتقادهم أن كل ما أُثر منسوباً الى العرب فهو عظيم لم يأت لهُ مثيل في الدنيا ، حتى أنك تراهم بهذا الوهم يسيئون ظناً في جميع ساحات المعرفة [1] ، فانك لواجد من جانب آخر نفراً من رجال المدرسة الحديثة وقد نزلوا عند وحي العقل وآمنوا بالعلم والمنطق الغربي فمضوا للمقارنة بين آداب العرب وبقية الأمم كالاغريق واللاتين والجرمان والكسون والفرس ، وخرجوا من مقارنتهم باصغار شأن الشعر العربي وانزاله دون بقية شعر الأمم . وأنت من وراء هذا كله تقف على تضارب في الرأي ومغالاة في التصوير ونكران للواقع . والحقيقة ان موضوع الشعر العربي ساحة فسيحة تمتد على الزمان حقبة متطاولة يقصر عمر الباحث دون تبيُّن أجزائها معاً حتى يمكنهُ ابداء رأي صحيح فيها . إلاَّ أنهُ يخيل اليَّ أن في الامكان ابداء رأي يطمئن اليهِ العقل وترتاح له النفس في الشعر العربي عن طريق دراسة خصائصهِ ومميزاتهِ في الطبيعة العربية من حيث أن الشعر العربي مظهر لتلك الطبيعة والفطرة ، ودراسة هذه الخصائص هامة لانها الكأة التي تستند اليها الاتجاهات الحديثة في الشعر العربي وتمضي استناداً اليها متطورة في الزمان الى حالات جديدة

ولا ريب في ان خصائص اي أدب لأية أمة لا يمكن تخليصها من العوامل والمؤثرات التي التي كونت طبيعة هذه الامة وجعلت لها روحاً ثابتة تميزها عن غيرها من الامم . ودراسة هذه الروح الثابتة التي تعبر عنها بروح الامة والتي تظهر في جميع ادوار تاريخها وفي مختلف صور حياتها العقلية والشعورية والمعاشية ملونة اياها بلون خاص يشيء لاغنية الباحث في الآداب وتاريخها . لان الفنون والآداب تتأثر بالعوامل والمؤثرات التي تتكيف تبعاً لها النفس البشرية ، فاذن دراسة خصائص الشعر العربي لا يمكن ان يخلص بها الباحث بمجردة عن دراسة روح العنصر العربي

والعنصر العربي يتميز بانهُ في التفكير والعمل يبدأ من ذاته لينتهي عندها ، فهو يعيش في الحاضر ولا يلحظ تحول الماضي وارتباطهُ بالحاضر وتمخض المستقبل ، فهو في تجليه غير تاريخي إذ يرى التفاصيل في الظواهر جنباً الى جنب ولكن يفوته تطورها وتحولها المتنقل دائماً . فهو من هنا يجمع الاشياء متناسبة وغير متناسبة ، من غير رباط يصلها فتبقى منفصلة . وهو الى هذا صاحب خيال مطرد فهو في حكم العقل بلا تؤدب ولا عمق . ومن هنا نجد الشعر العربي من حيث هو صورة لنفسية العنصر العربي لا يصور ولا يحكي صور الحالات التي يعرض لها في طبيعتها الموضوعية ،

(١) مصطفى صادق الرافعي في تاريخ آداب العرب ، القاهرة ١٩١١ ص ٣٥ وما بعده

وانما يعرب عن أثرها في النفس وصداها ، فهو تعوزهُ الطاقة على التجرد من الذاتية وجعل الظواهر الموضوعية في طبيعتها الموضوعية، ذلك ان طبيعة العربي تأثرت بفكرة الوحدة والاطراد التي غرستها فيه طبيعة البلاد التي نشأ فيها، ومن هنا كانت أغراض العربي فردية في ان يتنزع عن نفسه وان يصور انجابه ومقته وبسالته وشجاعته وأنفته وشغفه بالحرية . ولهذا كانت كل آدابه خلواً من الروح الغنية التي تلقي نوراً شعرياً على دائرة غنية من الفكر . ومن هنا كان غرض الشاعر العربي رسم الحياة والطبيعة كما هما بالنسبة اليه مع اضافة القليل من الخيال . ولقد عبّر عن هذه الحقيقة الشاعر العربي قديماً حين قال :

وان أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته : صدقا !

وهذا الروح من حيث هو حسي طبع الشعر العربي بالسكون، فهو أدب يلخص التفاصيل بدقة متناهية . مثال ذلك واضح في وصف طرفة للجمل إذ يصفهُ بدقة تشريحية ولكن تعوزه الطاقة على التجرد عن الذاتية . وأنت لو طالعت في الالياذة كيف يصف هوميروس درع أخيلوس حيث تصهر الدرع وتطرق وتنحت وتصقل أمام بصر السامعين الذهني ، لأمكنك ان تعرف الفارق الكبير بين صيغة الشعر العربي وطبيعة الشعر الغربي، فان الاخيرة زخمة dynamic في قوتها ونشوتها الدرامي(١)

من هنا وحده أمكننا ان نقف على السبب الذي قعد بالشعر العربي عن التصوير ، لان التصوير يستلزم التجرد عن الذاتية والعرض للظواهر الطبيعية في سيمتها الموضوعية ، وهذه بعيدة عن طبيعة العقل العربي . ولا يجب ان يتسينا هذا النقص استكمال الشعر العربي من ناحية اخرى — ناحية الذاتية — حتى لقد بلغ تفنن العرب ، مبلغ القمة من هذه الناحية الفنانية ، وهذا ما يظهر عنهُ شاعر قوي الروح العربية كالمتنبي

ومن المهم ان نقول انهُ لا يجب ان نخلط بين شعر ابن الرومي وبشار بن برد وأبي نواس وغيرهم من الذين لهم أصل أعجمي وبين شعر شعراء العربية الخالصين ، فان ما في ادب هؤلاء من الطلاقة الموضوعية راجع لوراثاتهم ، وإن اضعف منها بعض الشيء تأثرهم بالأخيلة العربية

ولقد خيل الى كثيرين من نابهي الباحثين الافرنج والعرب ان هنالك سراً تكمن وراءه اسباب خفية ، جعلت العرب يتقبلون تراث الهيلينين الثقافي في الفلسفة والعلوم ويرفضون تقبل آدابهم ، ولقد ذهب الوهم بالبعض الى حد انهم حملوا هذا على معاندة طبيعة الآداب الاغريقية

(١) I. A Edhaim في Al-Zahhawy, the Poet ١٩٣٧ ص ٩ — ١٢ و Germanos في Apollo مجلد ١ ج ٧ (مارس) ١٩٣٣ ص ٣٨٣ و Gauthier في Introduction à l'ethode de la philosophie Musulmane — التوطئة

والشعر اليوناني للدين الاسلامي[١] والواقع انهم توهموا خطأ ان العرب هضموا تراث اليونان في الفلسفة والعلوم ، اذ الحقيقة ان الصور العلمية والفلسفية التي قامت في نطاق المدنية الاسلامية ليست الا امتداداً للحركات العلمية والفلسفية في الشرق الادنى التي كانت قبل الاسلام[٢] وجاء الاسلام يحتضنها بعد المسيحية . ونظراً لان اللغة العربية كانت لغة الاسلام الرسمية ، فان هذه الحركة في صورتها العلمية والفلسفية كانت قد احلت العربية لغة لها بدلاً من السريانية. من هنا يمكننا ان نعرف سر عدم معرفة العرب للشعر اليوناني خاصة والادب اليوناني عامة . فتحدر الثقافة اليونانية للعرب لم يحمل للعرب أدب الأغريق وشعرهم[٣]. ومن اتصل من العارفين بالعربية باللسان الاغريقي ووقع على الآثار الأدبية في لغة اليونان ، انصرف عنها لأنهُ وجد نفسه أمام عوالم لا تقوم لها في نفسه قائمة ولا تستند من ذاته الى أساس . وهكذا قدر للعرب ألاَّ يعرفوا الآداب اليونانية فلا يتأثرون بها ولا يعمدون الى محاكاتها حتى كانت النهضة الحديثة فوقفوا على بعض آثارها في آداب الافرنج ، ثم نقلت الى نفوسهم اللمحة الرائعة «الالياذة» في اوائل القرن العشرين ، فكانت مقدمة تحول عظيم

هذا ووقفت طبيعة العرب المحافظة من جهة ، وعدم التأثر بآداب الامم الاخرى من جهة أخرى ، مع الطابع الخالد الذي اعطاه القرآن للغة العربية ، فكان سبب تبلور الشعر العربي عند صور معينة ، تقف عندها اغراض الشاعر العربي . وهذا مايظهر في اغراض الشعر الاتباعي العربي

— ٢ —

يقول ابن خلدون منذ نيف وخمسمائة عام في المقدمة حين عرض لذكر الأدب والشعر ما ملخصه:

(الشعر في لسان العرب كلام مفصل قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً ، ويسمى الحرف الاخير الذي تتفق فيه روياً وقافية وتسمى جملة الكلام الى آخر قصيدة . ويتفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام مستقل عما قبله وما بعده واذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح او نسيب او رثاء ، ويحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل في افادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك ، ويستطرد من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بأن يوطىء المقصود الاول ومعانيه الى ان تناسب المقصود الثاني ، ويبعد الكلام من التنافر كما يستطرد من النسيب الى المدح ومن وصف البيداء والطلول الى وصف الركاب او الخيل او الطيف ومن وصف الممدوح الى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والرثاء في الدماء الى التأثر وأمثال ذلك ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من ان تباعد الطبع في الخروج من وزن الى وزن يقاربه فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على أكثر الناس ولهذه الاوزان شروط وأحكام تضمنها علم العروض . . . ولما كان الشعر ملكة

(١) اسماعيل مظهر في مبحثه «تأثر الثقافة العربية بالثقافة اليونانية» ص ٣١ — ٣٢ من كتاب « نواح مجيدة من التاريخ الاسلامي » نشر المقتطف القاهرة ١٩٣٨

(٢) اسماعيل أحمد أدهم في « تحدر الفلسفة والفكر اليوناني الى العرب في القرون الوسطى » ص ١ — ١٨ على وجه خاص (٣) Margoliouth في Journal of the Royal Asiatic Society of London ١٩٠٥ ص ١٧ ، وما بعد

تكتسب بالصناعة والارتياض في كلام العرب حتى يحصل شبه في تلك الملكة وحيث ينزل الكلام في قوالب، ولا يكفي في الشعر ملكة الكلام العربي على الاطلاق بل يحتاج مخصوصه الى تلطف ومعارفة في رتبة الاساليب التي اختصته العرب بها واستعملها حيث ان الاساليب عندهم عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب او القالب الذي يفرغ فيه . ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعاني الذي هو وظيفة الاعراب ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض . فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن صناعة الشعر ، وهي انما ترجع الى صورة ذهنية للتراكيب المتعلقة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصور يختزنها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها في الخيال كالقالب او المنوال . ثم يتنقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعل البناء في القالب او النساج في المنوال حتى يقع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام . ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه . فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقول الشاعر : (يا دارمية بالعلياء فالسند) ، ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله (قفا نسأل الدار التي خف أهلها) ، او يكون بامتثاء الصحب على الطلل كقوله : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) ، او بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقول الشاعر ، (ألم تسأل فتخبرك الرسوم) ومثل تحية الطلول بالامر لمخاطب غير معين يحييها كقوله : (حي الديار بجانب الزرل) ، او بالدعاء لها بالسقيا كقوله

أسقى طلولهم أجش هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

او سؤاله السقيا لها من البرق كقوله :

يا برق طالع منزلاً بالابرق واحد السحاب لها حداء الايتي

وأمثال ذلك .... ، فمن أراد نرض الشعر كان هو كالبناء او النساج والصورة الذهنية المطبقة في ذهنه كالقالب الذي يبني فيه او كالمنوال الذي ينسج عليه ، فان خرج عن القالب في بنائه او عن المنوال في نسجه كان شعراً فاسداً)(١)

وهذا كلام له خطره في الدلالة على روح الاتجاه الاتباعي في الشعر العربي. فان الأغراض التي قال فيها الشعر والأساليب التي اتخذها لصيغ هذه الاغراض شعراء العربية المتقدمون في الجاهلية ، أصبحت منوالاً لمن أتى بعدهم يصوغون شعرهم بالنظر اليه وينسجونه عليه . ولاشك ان انصراف شعراء العربية عن قول الشعر على اعتبار ان الشعر فيض الشعور والوجدان ، الى جعله صناعة تقوم على كثرة مطالعة دواوين الشعراء المتقدمين حيث ينشأ من كثرة القراءة والمرانة على مراجعة أساليب صوغ الشعر ، قالب كلي من التراكيب يتركز في ذهن الشاعر يفرغ فيه صور ما ينظم من الشعر . وهكذا قدر في ظل الاتجاه الاتباعي للشعر العربي ان يخرج عن دائرته الفنية ليتيه منها الى دائرة الصنعة . ومع الزمن اصبح الشعر العربي يفقد عناصره الوجدانية والشعورية ويتحجر عند صور وأشكال ويضحى مجرد وشي وزخرف كما انتهى في يد البحتري والشعراء الذين أتوا من بعده

ولاشك ان لطبيعة الذهن العربي من حيث تعرب عن آثار الأشياء في النفس وصداها يداً كبرى في هذا التحول من جهة قيام الحاسة الفنية عند العرب مرتبطة بأشكال الأشياء لذاتها فان ذلك مهد السبيل لمثل هذا الاتجاه ، عن طريق الترابط السببي بين اشكال الاشياء والتعبير عنها

(١) ابن خلدون في المقدمة — طبع استانبول ٦٠٢ — ٦٠٤

ذلك ان طبيعة العربي « لما كانت لا تستوعب كل صورة شعرية بخصائصها. فاذا الشاعر على الخاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن ان يوعن فيه واذا هو على نزوات ضيقة من التفكير لا يطول لها بحثه ولا يتقدم فيها لظره . واذا هو يمرّ على الحياة الداخلية للأشياء مرًّا سريعاً . واذا كل آثاره الشعرية أوصاف لا شعور»[1] وكان هذا سبباً لجعل العقل العربي يقف عند صور الأشياء وأشكالها دون ان ينفذ الى ما وراءها ، فلما كدّ الذهن في استنباط أوضاع أشكال الأشياء في صداها وأثرها في النفس كان ان نشأ من ذلك القوالب التي هي من صنع العقل المحض وصوغ الذهن الصرف ولهذا خرج الشعر العربي في عمومه زخرفاً ووشياً مرصعاً حتى أن ابا العلاء وهو اكبر شعراء العربية العقليين التزم ما لا يلزم في الشعر جرياً وراء المحسنات اللفظية وانواع البديع من جناس وتورية ومطابقة وما اليها من محاسن التعبيرات وهذا ان كان يدل على شيء فانما يدلّ على استحكام الروح التقليدية من جهة الخضوع لاتجاه الذهنية العربية . وكان ذلك من أسباب ابتعاد الشعر العربي عن البناء فلم يَنمُ محتوياً على ملاحم ولا قصص ولا تمثيل

وخرج الشعر الفارسي « وشياً مرصعاً يشد الحس فيسقط اللفظ والمعنى و « أرابسك » العبارات والجمل كل بيت شعر للبحتري كان باب جامع الموصل تقطيع هندسي بديع وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الانسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذاً بالبرج الخلاب (٢)

— ٣ —

ظل الشعر العربي في أيام الامويين حتى ايام ازدهار الحكم العباسي يرسف في القيود التي وضع مبادءها شعراء العربية في الجاهلية فسار في ركابهم الشعراء المخضرمون فشعراء الاسلام . فلما اخذت المدنية الاسلامية تنتج في ميادين الثقافة العامة عن صور لم يعرفها الفكر العربي من قبل تحت تأثير الفكر اليوناني ، تجرأ بعض شعراء العربية على القوالب التي يصاغ بالقياس لها الشعر فخرجوا عليها ، فكان ذلك سبباً لانقلاب كبير غير انهُ لم يكن كبير الأثر في تاريخ الادب العربي ذلك أن الروح الاتباعية عند العرب طغت على هذه المحاولة ، فجعلت من وجه عرض هذا النفر من الشعراء لكلامهم منوالاً قاس الشعراء المتأخرون عليه شعرهم من بعدهم

كانت هذه الحركة الجديدة ثورة على القوالب التي قيّد الشعور العربي بها في الشعر القديم ، وكان رائد هذه الحركة المتنبي وسار في ركابه الكثيرون من بعده. فكان المعري في سوريا من جهة الشرق الأدنى وابن هانىء في الاندلس من جهة المغرب . غير ان هذه الحركة من حيث قامت على أساس الرجوع بالتعبير في الشعر باعتبار افادته أصل المعنى والشعور في صيغة كاملة ، تعرضت لحملة شيوخ الادب في ذلك العصر فأنكرت عليهم شاعريتهم وكان كما يقول — ابن خلدون — ان

(١) مصطفى صادق الرافعي في المقتطف نوفمبر ١٩٣٢ ص ٣٨١
(٢) توفيق الحكيم في كتابه تحت شمس الفكر ص ٦٥ — ٦٦

أعتبر شعرهم نظماً ينزل دون مرتبة الشعر ومنزلته

هذه الحركة الجديدة تعتبر اون خروج على القديم في تاريخ الادب العربي ، وكان رائدها المتنبي ، غير ان شعراء الاندلس سلكوا بها الى ابعد الشوط ، بيد أن هذه الحركة نظراً لان موردها تالق القوالب الاتباعية في الشعر العربي ، لم تبلغ في جراتها حد الخروج على الزخرف والوشي البياني . ذلك ان الزخرف البياني من مستلزمات الروح العربية في الشعر ولا يعترض علينا بأن الشعر العربي احتوى على مقطوعات رائعة المعنى صادقة في وصف الشعور الى الحد الذي تسمح به الطبيعة العربية — التي تصف آثار الاشياء في النفس وصداها — فان معظم هذه المقطوعات يرتبط ما فيها من المعاني بالالفاظ . آية ذلك أنك لو جردت تلك المقطوعات التي تمتاز بها العربية من مشرق اللفظ وموتق المعنى المرتبط لزاماً بذلك اللفظ ، لوقفت حيراناً لا تعرف وجهاً لها ولا غرضاً . وهذه حقيقة لمسها الباحثون من رجال الاستشراق في أوربا حين عمدوا لنقل الشعر العربي الى لغاتهم وقد اعترف بهذه الحقيقة النابهون من أدباء العربية وكتابها (١)

من هنا نجد أن القواعد التي عرفها الغربيون في نقد الشعر لا تصلح كل الصلاحية في نقد الشعر العربي فان له خصائصه التي ينفرد بها مما يستلزم أن ينظر اليه من قواعد خاصة به في النقد الادبي تكافأ مع خصائصه . والواقع ان القدماء من شيوخ الادب العربي وضعوا مبادىء في نقد الشعر مهما تظهرنا اليوم جوفاء من جهة نظرتنا المتأثرة بمبادىء النقد الاوربي فانها بلا شك مقياس صحيح الى حدٍّ كبير لنقد الشعر العربي وتمحيصه ، ذلك ان الشعر العربي ان كان باعتراف أعلام الباحثين فيه من افرنج وعرب ، ومن مختلف المدارس الاوربية اليوم ، منزل من النظر في صورة الاشياء دون أن ينفذ الى ما ورائها فالقليل الذي في الشعر العربي من النافذ الى ما وراء الصور الخارجية للاشياء راجع لقوة في الطبيعة الشاعرية ، تغلب بها الشاعر على الاتجاه العام الشعري في الوقوف عند أشكال الاشياء فينفذ الى ما ورائها واتصل بالروح الداخلية التي تتظاهر في قوانين مستترة تتحكم في هندسة الاشكال المنظورة والصور المحسوسة. ومن هنا فالنقد الادبي من حيث يتصل بالطابع العام ، سيراعي قيام الشعر العربي على أساس انصرافه لاشكال الاشياء الا أن القليل الذي لا يقف عند أشكال الاشياء فينفذ الى ما ورائها سيستقل بقاعدة من النقد الادبي تباين القاعدة العامة المتكافئة مع الطابع العام للشعر العربي الاتباعي

وهكذا قامت صعوبة دراسة الشعر العربي الاتباعي . غير ان هذه الصعوبة في الامكان التغلب عليها بشيء من الصبر والامعان والتدبر ، حيث يعطى الانسان كل شعر من الشعر العربي

(١) خليل مطران في الهلال م ٤٦ ج ٨ (يونيو ١٩٣٨) ص ٩٠٥ وكذلك طه حسين في المكشوف السنة الرابعة ، العدد ١٧٧ ص ٢ عمود ٣

ينفرد بطابع خاص له منهجاً في النقد يكافئه . غير ان هذه المناهج ستشترك في قاعدة عمومية تلك التي تستنزل من فهم حقيقة نوع ذلك وطابعه . وهكذا يمكن الوصول لعنصر الشعري المتغير في المقطوعات المدروسة وان اختلفت طوابعها الظاهريّة

هذا المتنبي الذي يمثل كمال الاتجاه الشعري العربي[1] ، وهذا ابن الرومي الذي يمثل كمال الاتجاه الشعري الاعجمي الآخذ بأسباب العربية في الشعر العربي[2] فان في الامكان دراسة شعرهما من قاعدة مشتركة في النقد الادبي مع ملاحظة طابع كل شعر هذه القاعدة هي قاعدة الشعر العامة

على ضوء هذا الكلام يمكننا أن نعطي قواعد القدماء في نقد الشعر قيمتها الحقيقية دون ان نقع في خطأ المغالاة في اتباعها . اذ الحق ان القواعد التي رسمها شيوخ الادب من القدماء للنقد الادبي للشعر من وجهة النظر لكيفية استنزال الشاعر لمعانيه ، وملاحظة اوجه التوارد بينه وبين من نظموا في الاغراض التي نظم هو فيها ، تتفق الى حدّ كبير مع حقيقة كون الشعر العربي يقوم على اساس اتباعي . وما دام سبيل الشاعر العربي الاتباعي في قوله الشعر راجعاً لمراتبه على أساليب صوغ الشعر حتى يحصل منه قالب كليّ من التراكيب يتركز في ذهنه فيفرغ فيه صور ما ينظم من الشعر فان ملاحظة تأثر الشاعر بأساليب الشعراء المتقدمين ومعانيهم ووجه هذا التأثر مهمة لأنها مقياس للتكلف الشعري اذا بدا التأثر واضحاً بقوالب من التراكيب جزئية للشعراء المتقدمين ، كما انها مقياس للاصالة الشعرية ان كان الشاعر يصوغ شعره في قالب كليّ وان استحصل عليه بالصناعة التي تماشت مع شاعريته

غير ان الجانب الصناعي طغا على الشعوري في الشعر العربي حينما اخذ الشعر العربي يتدهور ويفقد عناصره القوية حين مال ميزان العرب الى الغرب وسقطوا عن عرش الخلافة . وكان هذا التدهور سبباً لتحجر الشعر العربي عند صور لفظية وضروب من البديع والمحسنات الكلامية . وفقد بهذا التحجر والجمود الشيء القليل من الجمال الفني الذي كان يحمله في الاسلوب والذي كان يقوم على الطلاقة في استخلاص الأشكال والصور . واصبح الشعر العربي ميتاً من حيث فقد مع هذا الجمود الفنية التي كانت تتراقص فيها الأطياف والألوان والأضواء وكانت أظهر ميزة في الشعر العربي القديم

وبلغ التدهور في الشعر العربي غايته في عصور الظلام ايام حكم الاتراك العثمانيين إذا كان من وراء العكوف على طرائق القدامى وتقليدهم من جهة وضعف ملكة الابتكار من جهة أخرى ان تحجرت القوالب الشعرية في يد الشعراء المتأخرين . وكان من ذلك ان خفتت شخصيتهم وتلاشت ملكة الابتكار فيهم في التقليد والمحاكاة . فأصبح الشعر صناعة . ولكن صناعة مبتذلة وسائطها معرفة العروض

(١) طه حسين في كتاب مع المتنبي وشفيق جبري في المتنبي وكذا أنظر R. Blachère في — About Tayyib al-Motanabbi (٢) عباس محمود العقاد في كتابه ابن الرومي

والبديع والبيان بدون اعتبار للصيغة الشعرية من حيث تهذيب بأساليب وصور الشعر العربي القديم الرائع وكان نتيجة ذلك ان كثر التجنيس والتورية والمطابقة وما اليها من محاسن النظم في منظومات الشعراء واصبحت تطلبها لذاتها فسد الشعر وانحط

خاتمة

أخذ العالم العربي في مستهل القرن التاسع عشر ينفض عن نفسه ماعلق به من شنار الجمود ويعمل على استعادة ماكان له من أثيل المجد في القرون الوسطى فكان من ذلك نهضة الشرق العربي الحديثة . وقد قامت هذه النهضة في الاصل بناءً لتراث العباسيين والاندلسيين في الادب والشعر واللغة . فكانت من ذلك امتداداً لثقافة العرب الاتباعية . غير ان المدنية الأوروبية التي كانت مراكز الثقل في حياة العصور التي يتكون من مجتماعها التاريخ الحديث ، عملت على غزو الشرق الناطق بالعربية مع حملة نابليون (١٧٩٨—١٨٠١) فقامت من ذلك الحين بثقافة الاوروبية مراكز في الشرق الادنى ، وكان من اهم هذه المراكز مصر ولبنان وهكذا ظهر مقترناً بحركة البعث لتراث الماضي حركة اخرى تعمد الى الأخذ بآثار المدنية الاوروبية في مختلف ميادين الثقافة ، وكان الانفصال بين القديم وهو رجوع لينابيع الماضي وبين الجديد الذي هو اخذ بما انتهت اليه المدنية الاوروبية الحديثة [1] غير ان هذا الانفصال لم يتميز حتى اواخر القرن التاسع عشر

اما مصر فقد بدأت تاريخها الجديد بقدوم نابليون على رأس الحملة الفرنسية لفتحها في أواخر القرن الثامن عشر ، كما انها وجدت بعده في شخص محمد علي من يبدأ فيها عصر نهضة قامت عملية في عهده، لتنتهي عالية في عهد حفيده اسماعيل . وكان من مظاهر هذه النهضة تأسيس مدرسة الالسن عام ١٨٣٦ وارسال البعوث العلمية والصناعية الى أوروبا وعلى وجه خاص لفرنسا . وكان نتيجة ذلك أن خرج جيل من شباب مصر يتزع منزع الغربيين في تفكيرهم ومنطقهم . غير أن هذا الجيل لم يتمكن من القيام بشيء ذي أثر من حيث رجع الى بيئة وقفت جامدة على انهم نقلوا جانباً من تراث أوروبا العلمي والفكري الى العربية والتركية ، وكان ابراهيم باشا ادهم ثاني وزير للمعارف المصرية شاملا هذه الحركة بعنايته . غير ان هذه الحركة لم يكن لها تأثير مباشر في الادب العربي . ذلك أنها قامت عملية في اغراضها فكانت وجهاتها المسائل الصناعية الصرفة والعلمية العملية . فلما جاء اسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ حول حركة اتجاه الترجمة بعد أن كانت قد أخذت في التلاشي في عهد سلفه الى

(١) H. A. R. Gibb في مجموعته The Nineteenth Cutury Studies in Contemporary Arabic Literature في مذكرات مدرسة اللغات الشرقية بلندن م ٤ (١٩٢٨) ص ٢٤٥—٢٦٠

الدائرة العلمية، فكان نتيجة ذلك ان ترجمت الى العربية بعض الآثار الاوربية وأخذ الادب العربي في مصر يتأثر بتيجة الآداب الغربية ، وكان من الاسباب غير المباشرة لهذا التأثر تطور الادب العثماني تطوراً كبيراً على يد شناسي وناميق كمال واخذه صورة غربية من الآداب الغربية. وكان أثر ذلك غير قليل على جيل أدباء العربية في منتصف القرن التاسع عشر من حيث كانت اللغة التركية اللغة السائدة في مصر . وهكذا أخذ الجديد يستجمع الأسباب مستقلاً بمصدره وغاياته عن حركة بعث القديم التي كانت وقفاً على الرجوع لينابيع العرب الأصلية في الادب والشعر والفنون وارجاعها لعالم الحياة بعد أن طوتها يد الزمان خمسة قرون فارسلت عليها غباراً من النسيان وكان يساعد حركة بعث القديم في الشرق العربي محاولات رجال من الغربيين اوقفوا انفسهم على درس آثار الشرق في عصوره المختلفة من حيث عمدوا لنشر جانب عظيم من المكتبة الادبية العربية من وسائل التحقيق العلمي

اما في لبنان وسوريا ، حيث كانت الهيئات الدينية على صلات وثيقة بأوربا منذ القرن الخامس عشر ، فقد ساعد رابط الشرق الادنى بالوسائل الصناعية التي أتى بها الغرب بالعالم الاوروبي على توافد البعوث اليها ، وأصبح لبنان مركز نشاط عظيم وتنافس بين البعوث المختلفة التي ترجو نشر ثقافاتها ولغاتها الخاصة والتبشير بمذاهبها الدينية وتقوية نفوذ دولاتها سياسياً واقتصادياً . فكان من أثر هذه المحاولات ان شرعت العقلية العربية في لبنان وسوريا وخصوصاً في بيئاتها المسيحية تنفض عن نفسها غبار الجمود وتسير لمسايرة المدنية الغربية في اتجاهاتها ومظاهر ارتقائها . وحدث ردّ فعل لهذه الحركة تمثلت في الرجوع لينابيع الماضي في الادب والشعر واللغة ، فكان من ذلك حركة بعث عظيمة للقديم في لبنان تمثلت حيناً في مدرسة اليازجي

وكان أثر هذا التطور كبيراً في الشعر العربي الذي أخذ بدءاة ذي بدء يتحرر من المحاكاة الصرفة الى محاكاة فيها شيء من التحرر والشخصية وهذا ما يظهر في شعر معظم شعراء القرن التاسع عشر في شعر اليازجي والبستاني في لبنان وسوريا وفي شعر الساعاتي وعبد الله نديم في مصر . وكان من آثار هذا التحرر وبروز الشخصية ان وجد الشعر الاوربي سبيلاً للتأثير في شعراء العربية ، وهذا التأثير يبدو واضحاً في شعر عبد الله فكري من شعراء مصر وشعر سليم خوري صاحب آية العصر من شعراء الشام غير ان هذا التأثر كان في العموم بالمدرسة الرومانسية الفرنسية التي بلغت القمة في شعر لامارتين إلاّ ان هذا التأثر لم يبد قويّاً في الاغراض الشعرية وفي التحرر من روح النظم العربي ولكنه كان السبيل لانقلاب خطير تمثل في محاولة خليل مطران نقل الشعر العربي من ناحية الاغراض العربية لناحية الاغراض الاوروبية . وبهذه المحاولة تميز الانفصال بين المذهب القديم الاتباعي في الشعر والمذهب الجديد الابداعي

الاخلاق والحضارة

« الحضارة كالخمر تظهر المناقب والمثالب »

لعبد الرحمن شكري

يقولون إن الحضارة مفسدة للاخلاق وهذا قول نصفهُ حق ونصفهُ باطل كما هو شأن الجمل العامة التي تطلق على علاتها فان الحضارات يختلف مستواها الخلقي والحضارات محاسن خلقية كما ان لها رذائل والحضارات تختلف مظاهر الأخلاق فيها في أطوارها وعلى حسب الأساس التي بنيت عليها ولنقيض الحضارة مفاسد خلقية ايضاً والمتحضر يبالغ في مفاسد نقيض الحضارة قدر مبالغة غير المتحضر في مفاسد الحضارة أو انهما لا يكادان يريان غير المفاسد وهو الاصح لأن النفس البشرية هي التي قد تبالغ في اظهار مفاسدها . ويقولون ان علوم الحضارة الحديثة مفسدة للاخلاق مثلفة للمناقب والصواب انها تشيء فرصاً لاظهار ما استتر في النفس من خير لا يرجو جزاء ومن شر لا يخشى عقاباً وانما مثلها مثل الخمر التي تظهر المناقب والمثالب من خير وشر فمن كان كريماً أظهرت كرمه ومن كان لئيماً كشفت عن لؤمه . فنكرة صلاح الكون بقاء الأقوى وهلاك الاضعف او بقاء الأصلح للحياة وهلاك الأقل صلاحاً لها (لأن الاضعف جسمياً قد يكون في لبه من الهبات الصالحة للحياة أكثر مما في لب الأقوى) أقول هذه الفكرة قد أولت تأويلاً يعذر القوي في استعباد الضعيف ويعذر الضعيف عند نفسه في خنوعه ويسخر من المبادىء السامية . قال الاستاذ هولاند روز المؤرخ الانكليزي في اسباب تغلب حب الاستعمار والسيطرة (انهُ لما ذاعت فكرة صلاح الكون بقاء الأقوى وهلاك الأضعف جعل الناس يتساءلون لماذا يُحْسَنُ الضعف اذا كان صلاح الكون في ضياعه وهلاكه) . فكانت هذه الفكرة كالخمر زادت وأبرزت ما في النفس من حب الاستعلاء . وقد بالغ المفكرون حتى ظهر بينهم من يقول ان التشبث بالجنس والوطن لا يؤلف انقلوب كي تتعاون في نشر السلم والحضارة العالية والامن والسعادة وكي تسمى في رقي الانسان والانسانية عامة. وقال المؤرخون ان التشبث بمبادىء المحافظة على الجنس والوطن سرعان ماينقلب الى ضراوة استعمارية ورغبة في السيطرة والحروب كما ظهر مراراً في تاريخ أوربا

الحديث كلما قويت جنسية من الاجناس التي كانت تنادي بمبادىء العدل العام والسلم عندما كانت مقهورة مغلوبة على أمرها فانها اذا قويت لا تلبث ان تنادي بأن الحضارة العالية لا تتحقق الا بتناحر الأجناس وتقاتلها حتى وإن كان في آلات القتال الحديثة ما يهدد العالم بالخراب

وقد ارتاع بعض المفكرين وخافوا على أممهم من تفشي مبادىء الفلسفة الهادمة وقد جعل بعضهم يروّج العقائد الدينية بوسائل قديمة جديدة مثل تشجيع تحضير الارواح وذلك لأنهم خافوا على الحضارة من مبادىء الفلسفة المادية وخافوا على الأخلاق منها وكان تشجيعهم تحضير الأرواح كي يثبتوا بأدلة مادية عقيدة خلود الروح تلك العقيدة التي كانت تدفع بالمجاهدين من المسلمين في صدر الاسلام في هلوات الموت غير مكترثين له موقنين ان الموت ليس لهُ سلطان على الروح وأنهم اذا خسروا هذه الحياة الدنيا الفانية فقد ربحوا الحياة الباقية فكان من وراء ذلك الاعتقاد استعلاء أممهم وسيطرتها. ولعل من أسباب زيادة نصرة المفكرين لمذهب استحضار الأرواح ومكالمتها وذيوعه في السنين الأخيرة رغبتهم في مواساة من مات لهُ قريب او حبيب في الحرب العالمية الكبرى (مواساته او ابتزاز ماله) ورغبتهم في حث الجماهير على ان يجودوا بحياتهم لنصرة أممهم إذ ان لم وراء هذه الحياة حياة باقية. فان المرء لا يجود بحياة ليس لهُ غيرها قدر ما يجود بحياة وراءها حياة خير منها وبقدر يقين المرء وإيمانه بالحياة الأخرى يكون جوده بهذه الحياة . على ان الدفاع عن الأهل والوطن أصبح طبيعة لا يلبث المفكر طويلاً حتى يؤوب اليها وقد وصف الكاتب الفرنسي موريس لو بلان هذه الحقيقة في قصته المسماة (على الحدود) وقلما تجد من له شجاعة او عناد يمكنهُ من ان يمتنع عن الدفاع عن بلده وان يقف موقف رومان رولان الكاتب الفرنسي الشهير في اثناء الحرب العالمية وان كان قد حاكاه في انجلترا أناس صاروا يسمون بطائفة «اعتراض الضمير». نعم إن هذا الدفاع يصير اندفاعاً آليًّا باعثه الخوف وللخوف شجاعة وحماسة في اندفاعه ولكن شتان بين شجاعة اندفاع الخوف وشجاعة العقيدة والأمل والرغبة في الحياة الباقية الأخرى

لكن الباعث عند جمهور الناس هو ان يفدي المرء وطنه بحياته محافظة على عاداته ومبادئه والفوائد التي يشترك فيها اهل الوطن. والشجاعة مزاج في النفس وقد تتوافر بالرغم من اعتناقه آراء الفلسفة الهادمة كما انها قد لا تتوافر بالرغم من اعتقاده في خلود الروح. فاذا كان المسلمون قد أقدموا على الموت في حروبهم في صدر الاسلام فقد أقدموا لأن اعتقادهم في خلود الروح كان مقروناً عندهم بمزاج الشجاع القوي ولوفرة نصيبهم من الحيوية . وكم من جيوش قد هُزمت وجبنت بالرغم من اعتقادها في خلود الروح. ونحضرنا الآن ذكرى قصة شائقة من قصص الكاتب الاميركي جاك لندن وعنوانها (دين آبائه) وفيها يصف كيف ان قسيساً ضيف الاعصاب

والارادة عند ما هدده رجل مجرم تاثر من سلالة التزاوج بين البيض والهنود الحمر، وخيّره بين الحياة مع انكار المسيح وشتمه وبين الموت اختار الحياة مع انكار المسيح بالرغم من انه كان من المبشرين. ولما خيّر رجلاً آخر من الغاة الملحدين فضل القتل حتى الموت واستحيا من ان يجعل انكار دين آبائه وسيلة للنجاة من الموت

وقس على ذلك أثر الحضارة في المعتقدات الاخرى فان بين الناس من ينصر الفضيلة بالرغم من اعتناقه الآراء المادية الهادمة ومنهم من ينصر الرذيلة بالرغم من اعتقاده في الحياة الاخرى والجزاء والعقاب . ولكن مما لا شك فيه ان الكفر بالحياة الاخرى قد أصبح مثل الخمر التي تظهر مكامن النفس وكثير من النفوس لا تمتنع عن الاثم والجرم الا رغبة في جزاء في الآخرة او خشية عقاب. فالالحاد كالخمر يظهر ما كمن من الشر فيها وما تعالج من ميوله . فالفضائل والرذائل طبائع في النفوس وقد ترى في الناس من يفخر بالرذيلة وهو منها اقل نصيباً مما يقول اذا شجعته بيئته على ذلك الفخر كما ان من الناس من يفخر بالفضيلة وهو قليل النصيب منها ولكننا نسرع الى تصديق الاول ونسرع الى تكذيب الثاني في كثير من الاحايين وان كان للخداع مجال في الحالتين

وبين الناس طائفة اخذتهم نشوة بعض الآراء الفلسفية فقالوا ان الفضائل من مظاهر الضعف كالولاء والامانة والوفاء والعدل والذمة وقالوا ان النفوس القوية لا تتقيد بها و يسمون الفضائل اخلاق الضعفاء وسجايا العبيد وهم انما يقولون هذا القول كي يقضوا على النظام الاجتماعي الحاضر لمخالفتهم نظمه ومبادئه الاقتصادية . فقولهم انما هو سلاح مؤقت لا حقيقة ثابتة ويسر باستخدام سلاحهم هذا المجرمون الذين تدفعهم رذيلتهم إلى اعتناق هذه النظريات الهادمة ، لا ان هذه النظريات الهادمة هي التي تخلق رذائلهم . ويقولون ماذا يهمنا ان يلحق الضرر غيرنا من الناس ولماذا نبالي الناس ويقولون انه فرض عليهم ان ينسوا انفسهم بأن يطلقوا لها العنان فتسترسل فيما تريد ويقولون سيان ارتكابك الشر وغشيانك الخير مادامت الحياة فانية. ويقولون ان حياة الملايين من البشر ليست اعظم عند الطبيعة من حياة الضفادع او الحشرات. وتنتشر هذه المبادىء اذا اشتد التناحر على المعاش وقلت الثقة بالنظام الاقتصادي او النظام الحكومي ويزيدها الشعور بالغبن وقلة الانصاف . على ان المرء لو لم يراع اخلاق الكمال هذه بعض المراعاة في معاملة من لا يؤمن بها لارتاع ذلك الجاحد لها وذم نفوس الناس. والضرر الذي يلحق الجاحد لها لا يأتيه من ناحية ابناء قومه فحسب بل يلحقه ايضاً من الضعف الذي يذل امته بسبب تفشي هذه الاخلاق فيها ولكنهم يقولون اذا كانت الامم تبيح غشيان الرذائل في معاملة الامم الاخرى فلماذا لا تجيز الأفراد ذلك في معاملة الواحد للواحد منهم كي يبقى الأصلح للبقاء وهم لو فعلوا

ذلك وساروا على هذه الخطة كل السير لاعتصمهم قوم آخرون لتخاذلهم. واما بقاء الأصلح فيكون باتباع مثل الكمان ولو الى حد ما. ومما يجلب الوهن ايضاً والتخاذل وانعدام الثقة بالاخلاق والفضائل تقديس الحقوق الفردية الى حد ان يكون كل فرد كجزيرة مستقلة في بحر الانسانية لاشأن له بغيره. ومبدأ الفردية هذا قد يكون من نتائج المغالاة بالحرية الشخصية التي تسمى المبادىء الديمقراطية ولكنه ايضاً قد يكون من مظاهر التخاذل والاثرة في الامم القديمة التي مرت بها عصور حكومات مستبدة جعلت كل انسان لا يفكر الا في نفسه وجعلت كل انسان من المحكومين المقهورين على طائع الحكام فيصير كل انسان من المقهورين مستبداً صغيراً يعامل المقهور مثله يطاع الاستبداد في الرأي والفعل والمشيئة. فاذا أتيحت فرصة عمت فوضى شاملة لأن كل انسان في تلك البيئة على طبع الاستبداد لا يقدس غير أثرته وهو يظن ان طبعه هذا فضيلة التمسك بالحرية وبالمبادىء الديمقراطية لنفسه ويمدح نفسه لدى نفسه ولدى غيره اذا بالغ في فوضى الاستبداد وطبائعه زاعماً أنه بطل من أبطال الحرية وهو ضحية عصور الاستبداد القديمة وطبائعه الراسخة في نفسه. واذا انتشرت في بيئة هذا الانسان المبادىء المضللة التي تزري بالفضائل والاخلاق وتعدها من سجايا العبيد كان الاضمحلال أعظم والخطر أشد. ولا سيما اذا تكاثر السكان واشتد التفاني على المعاش وأبرز هذا التفاني غثاء النفس كما تبرز القدر الفائرة قذاها ويفوت هؤلاء ان حدود الاخلاق هي من تجارب الانسان ومن ثمرات خبرته وهي تراثه الطارف والتليد وذخره النفيس وقد سمعت انساناً يتغنى بقصيدة لشاعر أوربي هو على ما أذكر من الشعراء الاغريق الحديثين ويقول الشاعر في قصيدته (خذ معولاً واهدم به كل ما يعتقد الناس أنه جميل او جليل او مقدس من الآراء والانظمة والفروض والاخلاق واهدم ماضي الانسانية كله ولا تذرف عليه دمعة) وهذه هي الفوضوية بعينها وقد لبى امثال هذا انه لو اتيح للفوضوية ان تنشىء حكومة ثابتة لكان اول عمل هذه الحكومة كي تتمكن من البقاء ان تقضي على الفوضوية ذاتها

وكل مذهب من المذاهب الهادمة للاخلاق قد جرب فيما مضى من الزمن ونبذ بعد حين حتى المذهب الذي يغري بالشرور كي تعرف الانسانية ان الحياة شر وتنقطع عن التناسل

ومهما تعظم شرور الحياة فان في النفوس قلعة للايمان بها وبارادة الله فيها وكلما دكت قلعة في النفس لذلك الايمان بنيت على انقاضها قلعة أخرى أو كما قال امرسون الاميركي (ان في قلب المرء معبداً كلما تهدم بنى الله على انقاضه معبداً آخر) وقد يلوث هذا المعبد ما في النفس من شر ولؤم حتى تحسب النفس ان شرها ولؤمها خير لا ينفصل عن ذلك المعبد ولكن من الايمان بالحياة وبارادة الله فيها أن تعتقد أن شر النفس ولؤمها سيطهر منهما ذلك المعبد

توافق الخواطر

بين العلماء والمخترعين[1]

لمحمد عاطف البرقوقي

توافق الخواطر بين العلماء امثلة كبيرة في تاريخ العلوم والعلماء، ولا غرو فأن الخواطر العلمية نتيجة تسلسل طبيعي، ومقدمات ثابتة، وحقائق علمية، وتثار بين عدد من العلماء بمناسبات، وحيث ان هذه المناسبات علمية وتنشر في المجلات العلمية وتعرف في بيئاتها، فيضطر كثير من العلماء عند الوقوف على اختراع جديد أو نظرية جديدة الى أن يدلوا دلوهم في الدلاء، ويتجه عدد منهم نفس الاتجاه، وهنا تقع منازعات وربما تؤدي الى الدخول في المحاكم وطلب رأي القضاء، وأني اتشرف هذا المساء بذكر بعض امثلة من هذه الحالات الشائقة، لعل ذكرها ينفع المؤمنين، ويوجه الشرق نحو العناية بالعلماء والمخترعين

***

﴿ بين فراداي وهنري ﴾ : وأول مثال أذكره هو ذلك المثال الذي وقع بين فراداي الانكليزي وهنري الاميركي، وليس بمستغرب ان يقع بينهما توافق الخواطر مع أن المحيط الاطلسي يفصل بينهما، وشتان بين العالم القديم والعالم الجديد

وفراداي هو ذلك العالم الطبيعي الكبير الذي ولد في انكلترا سنة ١٧٩١، ولم ينل من التعليم الا قسطاً يسيراً كما اعترف هو عن نفسه، ولكنهُ لم يكد يخرج من المدرسة في سن مبكرة حتى التحق كعامل في مكتبة قريبة من بيته يمتلكها رجل انكليزي اسمهُ « جورج ريبو » فعهد اليهِ هذا أول الامر بمهمة نقل الكتب الى اصحابها، أي كساعٍ او «مراسلة»، يقضي حاجات المكتبة في الخارج. وفي السنة التالية عهد اليهِ بعمل تجليد الكتب، ومن هذا الوقت تملكه حب الاطلاع واستهوى له قراءة الكتب العلمية التي كانت تقع تحت يديه، وكان اول كتاب اطلع عليهِ هو كتاب عن « العقل The Mind » ولعل هذا الكتاب هو الذي أثار له سبل التفكير، وجاء

---

(١) من محاضرة القيت في اجتماع دسمبر ١٩٣٨ عقده المجمع المصري لثقافة العلمية والاستاذ البرقوقي خريج قسم العلوم بجامعة برستول ثم نال بعد ذلك تدريس العلوم الطبيعية في مدارس الحكومة المصرية ثم عين مفتشاً لها واخيراً نقل مديراً لادارة البيئة

بعد ذلك دور تجديد دائرة المعارف البريطانية ، واستوقف نظره فيها موضوع «الكهربة» أو الكهربية كما قرر مجمع فؤاد الاول للغة العربية . ولم يكن هذا العهد يكن معروفاً عن الكهربية الا القليل ، وقد لاحظ فراداي ذلك من المقدار البسيط الذي كتب في الدائرة ولعله قال في نفسه « ان المعلومات الأولية القليلة في هذا الموضوع الجديد لن يستغرق استيعابها مني وقتاً طويلاً » ولم يمض وقت طويل حتى وقف على ما تمَّ في العهود السابقة عن الكهربية . ولعله لم يتدبَّر بخلده عندئذٍ انهُ هو المنتظر لأن يرفع علم الكهربية عالياً ، ويتقدم به خطوات واسعة ، ويضيف الى حقائقها معلومات جديدة توسع في نطاقها وتبعد في مداها

حقاً ان فراداي كان نابغة يمهد لنفسه طريق المجد ، ويصارع الجهل والفقر معاً ، وقد تغلب على الجهل بمجهوده في دراسة الكتب بنفسه ، والتزود بما فيها من معلومات . اما الفقر فقد بقي عقبة كأداء في سبيله الى ان انتشله العالم الطبيعي والكيماوي السير همفري داڤي وعينهُ في منصب اشبه بمحضر في دار المعهد الملكي بلندن او ما يقرب من صبي محضر اي «فراش» يغسل القارورات ويعد الاجهزة لتجارب العلماء ، فقبلها فراداي راضياً فوهبت له الفرصة التي كثيراً ما كانت تتوق اليها نفسه ، ووجد في المعهد معملاً كامل الاجهزة ووافر المواد ، فصار يجري التجارب التي يريد تحقيقها من الكتب ، او يستمع اليها من محاضرات اكبر علماء عصره ، وقد ظهر استعداد فراداي لداڤي فنصحهُ وكافأه على ذكائه باستصحابه لهُ في رحلة في أوربا قابل فيها اعظم علماء اوربا في هذا العصر ، وما ان رجع فراداي من رحلته الطويلة سنة ١٨١٥ حتى بدأ ابحاثاً مستقلة ، وزادت ثقتهُ بنفسه ، وقد كان فراداي بجانب عقله الراجح ، طلق اللسان واضح البيان ، فذاع صيته وطار ذكره ، ووفق الى كشوف كثيرة في الكهربة هي اساس توليد الكهربة بالمولدات واستخدام المحركات بالكهربة ، وبحث في المكثفات والمحولات ، والعلاقات بين الضوء والكهربة ، وبين المغنطيسية والكهربة ، والكيمياء والكهربة ، وقد خلد العلماء اسمهُ فاطلقوه على وحدة السعة الكهربية فاصبحنا نقول الى الآن سعة المكثف كذا « فراد » او كذا « ميكروفراد »

وبينما كان فراداي هذا يعمل ويجد ويبحث في اسرار الكهربة في انجلترا ، كان في الناحية الأخرى من المحيط الاطلسي باميركا العالم يوسف هنري ، الذي أعتبره صورة طبق الأصل لفراداي ، من حيث نشأته وعصاميته ، وتفكيره وابحاثه ، وقد ولد بعد ميلاد فراداي بثماني سنوات اي سنة ١٧٩٩ ، وتوفي بعد وفاة فراداي بتسع سنوات اي سنة ١٨٧٨ ، فما اعجب الصدف وما اتم التوافق ! وقد بدأ هنري حياتهُ في سنة الخامسة عشرة ، أي في سن مبكرة ايضاً والتحق بحانوت ساعاتي للتمرن على اعمال هذا الفن الدقيق ، وقد كان يميل بطبعه الى فن التمثيل ورغب

فعلاً في الاشتغال به ، ولكن صدفة غريبة غيرت اتجاهه ، وبدّلت مجرى حياته ، فلم تجعل منهُ ساعاتيًّا ولا ممثلاً ، وهذه الصدفة هي أنهُ اطلع على كتاب جديد في الفلسفة التجريبية Experimental Philosophy ، وقد أثار فيهِ هذا الكتاب حب البحث العلمي ، وفي هذا أكبر الشبه بحالة فراداي الذي هوى البحث العلمي من الكتب أيضاً ، ولكن هنري أراد أن يتزود بالعلم بالتحاقهِ بأكاديمية البلاني ، وبعد ست سنوات أي سنة ١٨٣٢ عين أستاذاً للفلسفة الطبيعية في كلية برنستون

وقد هوى هنري البحث العلمي في أسرار الكهربية وأول ما استرعى نظر هنري من الابحاث هو المغنطيس الكهربي فأدخل عليهِ تحسينات كثيرة ولاشتغاله بهذا البحث خطر لهُ رأي جديد فقال في نفسه « هل يمكن ان تولد التيار الكهربي بوساطة المغنطيس ؟ » وهذه الفكرة هي هي التي خطرت لفراداي في انجلترا . وهناك ما يثبت ان هنري بدأ تجاربه لبحث هذا الرأي قبل فراداي ، وذلك في أغسطس سنة ١٨٣٠ ، ولكن فراداي بعد ما أتم بحثه في هذا الموضوع قرأه أمام الجمعية الملكية بلندن في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٣١ ، واطلع هنري اتفاقاً في إحدى المجلات العلمية على نبأ وصول فراداي الى النتيجة التي كان يسعى اليها، ولم تكن المجلة قد فصّلت تجارب فراداي ، ولذلك بادر هنري إلى اتمام بحثه ، فكر في العمل سنة ١٨٣٢ ، إذ بدأ في يونيه بدلاً من أغسطس كعادته في كل عام ، وأتم بحثه ونشره في يونيه سنة ١٨٣٢ ، أي بعد تسجيل فراداي بثمانية أشهر ، فكان هنري سابقاً في التفكير ، وفراداي سابقاً في التسجيل ، وقد تعارف العلماء على ان الكشف او الاختراع يجب ان ينسب الى السابق في التسجيل ، ومن هنا تنسب فكرة توليد التيار الكهربي بالتأثير الى فراداي

وأكثر من هذا ، فقد خطر لهنري تفكير جديد ، أثبتت الأيام ان فراداي فكر هو أيضاً فيهِ ، ولكن هذه المرة سبق هنري في نشر بحثه عن التأثيرات الذاتية للتيار الكهربي وتأخر فراداي في نشره ومن هنا كان الفضل في هذا الموضوع يعزى الى هنري، وكأن الطبيعة أرادت ان تحقق المثل المعروف « دقة بدقة ، والبادي أظلم »

وقد بعث الشوق هنري لملاقاة فراداي الذي يشابههُ في التفكير ، فسافر الى انكلترا سنة ١٨٣٧ وتعرّف بفراداي الذي أكرم وفادته ، وقضيا مع هويتستون العالم الطبيعي الانكليزي أيضاً أسعد الأوقات في مباحثة أسرار العلم واجراء التجارب

***

﴿ اختراع يؤدي الى المحاكم ﴾ ومن أمثلة توافق الخواطر بين المخترعين هو مثال اختراع التلفون ، وقد وصلت هذه القضية الى المحاكم لتفصل فيها . ومن المعلوم ان التلغراف اخترع قبل

التلفون وقد نشر أحد عمال التلغراف مقالاً في إحدى المجلات يقول أنهُ يجب على العلماء أن يمكنوا من اختراع آلة تنقل الكلام وان لا تكتفي بنقل الاشارات فحسب ، وصار يفصل رأيه ويبنيه على الحقائق العلمية المعروفة عن الكهربية والصوت ، ولم يحاول هذا العامل تنفيذ فكرته ، وفي سنة ١٨٦٠ قام أحد أساتذة الطبة من الألمان هو الاستاذ رايس باختراع أول تلفون ، ولكنهُ لم يكن وافياً بالغرض ، ولم تشجعهُ حكومته ، فمات فقيراً بل مات كمداً ، وعرض جهازه في المانيا وانكلترا ، وفي سنة ١٨٦٨ احضر أحد علماء الطبيعة نموذجاً من تلفون رايس الى اميركا وعرضهُ على بعض علماء الطبيعة في نيويورك ، ووصفهُ في إحدى الصحف العلمية ، فأثار ذلك كلهُ اهتمام العلماء ، ومنهم العالم الاميركي هنري الذي سبق ذكره ، ومنهم أيضاً «جراهام بل» الذي سجّل اختراعه للتلفون الشائع استعماله الآن كستقبل سنة ١٨٧٦ ، ومن غرائب الصدف أنهُ في نفس اليوم الذي تقدم فيه جراهام بل لتسجيل اختراعه ، وهو يوم ١١ من فبراير سنة ١٨٧٦ ، تقدم عالم آخر من شيكاغو وهو اليشا غراي لتسجيل جهاز مشابه كل المشابهة لجهاز جراهام بل . وقد شغلت المحاكم بهذه القضية العالمية لتقضي في ايهما احق بالتلفون . وقد تولت إحدى الشركات استثمار الجهازين معاً حسماً للنزاع

***

﴿ اديسون وهيوز ﴾ وهاكم مثالاً آخر لتوافق الخواطر بين العلماء والمخترعين وهذا التوافق أدى الى نزاع بين العالمين اديسون الاميركي وهيوز الانكليزي

واديسون هو ذلكم المخترع الاميركي النابغة الفذ ، الذي ارتفع في سماء العلم الى السماكين ، ووصل بمخترعاته الى ما يزيد على الألف بل ما يقرب من الألفين ، ولم يصل الى هذا العدد مخترع من قبل ولا من بعد ، فهو بذلك وصل الى الذروة ، وتفوّق على غيره في عدد المخترعات . تدرّج بنبوغه وعبقريته من بائع صحف الى عامل تلغراف فمخترع الى أكبر المخترعين فلهُ مخترعات في التلغراف ثم في التلفون ، وهو الذي اخترع الحاكي والمصباح الكهربي واشترك في اختراع المولد الكهربي وأقام أول محطة اضاءة كهربية لتمد البلاد بالتيار فكان بذلك أول مهندس كهربي

والاختراع الذي اتفق فيه الخاطران هو الميكروفون وهو ذلك الجزء من التلفون الذي يوجه اليه الكلام أي المرسل بتعبير العلماء . وتفصيل ذلك ان العلماء والناس لاحظوا على تلفون جراهام بل أن صوته خافت غير جلي ، وقد اعترف بذلك « بل » نفسه قائلاً ان جهازه غير واف بالغرض ، وهنا دخل ميدان البحث في تحسين التلفون كثير من العلماء ينهم

أديسون الاميركي وهيوز الانجليزي وغيرهما ، ولاحظ أديسون أن العيب في جهاز « بل » هو في الجزء المستعمل كمرسل، ولذلك اخترع أديسون سنة ١٨٧٧ مرسلا جديداً هو الميكروفون واستعمل فيه حبيبات من الكربون ، فصار الصوت عند المستقبل واضحاً جليًّا مسموعاً ، وناهيك من جهاز يستمع به أديسون الأصم ، أو ما يقرب من ان يكون كذلك

وقد صنع أديسون ستة أجهزة من الميكروفون الحبيبي ، وأرسلها كنماذج الى إحدى الشركات في انجلترا فقوبلت بترحيب كبير ، حتى لقد طلبت الشركة عقب ذلك مائة أخرى

وفي سنة ١٨٧٨ اخترع الاستاذ هيوز الميكروفون الكربوني ، وقرأ بحثاً في ذلك أمام الجمعية الملكية بلندن في شهر مايو من تلك السنة ، ومن التجارب التي كان يجريها هيوز ليبان أثر جهازه تلك التجربة التي كان قوامها ذبابة من الذباب المنزلي العادي يضعها في علبة كبريت ويضع هذه بالقرب من الميكروفون ، ويقال ان وقع أرجل هذه الطائرة الدقيقة على خشب العلبة كان يسمع في الطرف الآخر كأنهُ وقع أقدام فيل ضخم على أرض الغابة

وهيوز كان أستاذاً لعلم الموسيقى ، ولكنهُ هوى الكهربة واحبها ، واخترع كثيراً من الاجهزة ، وبمجرد ان سمع أديسون باختراع هيوز وتشابه جهازه والجهاز الذي اخترعه قبله بعام ثار أديسون غضباً ، واحتج بأن هيوز بنى فكرته على فكرة اديسون دون اية اشارة أو تلميح الى ذلك ، واتهمهُ بانهُ اطلع على نموذج جهازه الذي ارسله الى انكلترا

ومن غريب الصدف ايضاً أن أديسون اشتغل ببحوث اللاسلكي وكذلك هيوز وكلاهما له مخترعات في التلغراف فما اشد توافق الخواطر بين هذين العالمين

***

(بين هرتز ولودج) وها كم مثالاً أخيراً لتوافق الخواطر بين العلماء وهو الذي وقع بين هرتز الالماني والسر اوليفر لودج الانكليزي ، وكلاهما مشهود له بالتفوق والنبوغ في بحوث الكهربة واللاسلكي

وتفصيل هذا التوافق ان جيمس كلارك مكسويل العالم الاسكتلندي الذي يعتبر بحق زعيم علماء الطبيعة النظرية في القرن التاسع عشر ، تنبأ بموجات اللاسلكي من قوانينه الرياضية العالية الى درجة تحديد سرعتها وبيان خواصها ، ولا عجب في ذلك من حيث قدرة القوانين الرياضية على التكهن والتنجيم ، فالرياضي اذا عرف سرعة قطار او طائرة أو سيارة ، عرف ميعاد وصولها في مكان ما بالثانية اذا عرفت سرعتها والمسافة التي تقطعها وميعاد بدء حركتها ، ولا اطيل في شرح هذا فان علم حضراتكم جدير بادراك ما اقصد واكثر مما اقصد . . . . والشاهد . . . .

انهُ بمجرد ما اعلن مكسويل نبوءته دهش العلماء اية دهشة ، وحفزوا الى السعي وراء تحقيقها ، والعمل على توليد هذه الموجات الحديثة والكشف عن خواصها واختبار مدى صحة آراء مكسويل فيها ، ولعلهم ما كانوا يعلمون انهم بذلك انما يعملون على كشف اللاسلكي والتمهيد بغيره السبيل ، بل اؤكد انهم كانوا يعملون لعلم الخالص

وقد حقق هرتز الالماني نبوءة مكسويل كاملة غير منقوصة ، وذلك في سنة ١٨٨٧ المتداخلة في سنة ١٨٨٨ ، وقد اثارت تجاربه وتحقيقاتهُ اعجاب العلماء ، حتى سموا الموجات الجديدة باسمه فاطلقوا عليها اسم « الموجات الهرتزية » واطلق عليهِ البعض الآخر فيما بعد اسم « اب اللاسلكي »

وكان هرتز طالباً في جامعة برلين وتلمذ لهلمهولتز عالم الطبيعة الالماني الاشهر فنال هرتز التلميذ اعجاب استاذه وحسن تقديره ، وكان احب تلاميذه اليهِ واحبهم ، وقد نال الدكتوراه سنة ١٨٨٠ ، فاختاره هلمهولتز مساعداً له ، واقترح عليهِ في اثناء ذلك ان يعمل بحثاً في تحقيق نبوءة مكسويل النظرية بتجارب عملية ، فكان التلميذ الدكتور — عند حسن ظن استاذه وفي سنة ١٨٨٧ ؛ سنة ١٨٨٨ وفق بعد بحث مستفيض الى اعلان تجاربه التاريخية في توليد موجات اللاسلكي واختبار خواصها وصفاتها فوجدها مطابقة تمام المطابقة لما تنبأ به مكسويل اذ وجد سرعتها مساوية لسرعة الضوء ، وانها تنعكس وتنكسر وتتداخل كما يحدث لموجات الضوء فكأنما اصبح الخيال حقيقة والنبوءة صادقة واصبح الضوء ظاهرة مغنطيسية كهربية ، وهي حقيقة اغرب من الخيال

وقد قال هرتز عقب كشفهِ الخطير عن السر اوليفر لودج مايأتي « وارجو ان اسجل هنا ذلك العمل الجيد الذي قام بهِ عالمان انكليزيان في نفس البحث الذي كنت اجريهِ بنفسي ، وكانا يحاولان جهدهما في الوصول الى نفس الغرض الذي كنت ارمي اليهِ في نفس السنة التي بدأت فيها بحثي ، بدأ السير اوليفر لودج في ليفربول نظرية مانعة الصواعق وما يتصل بها من نظريات وتجارب في تفريغ المكثفات الصغيرة ، وادت به هذه الابحاث الى ملاحظة اهتزازات وموجات في الاسلاك ، فقد كان يستقد بصحة نظريات مكسويل ، وقد حاول جهده العمل على تحقيقها ولو لم اصل الى تأهبي ، لنجح هو في الحصول على الموجات في الهواء وفي اقامة الدليل على انتقال القوة الكهربية » فلو تأخر هرتز لفاز لودج — كما اعترف بذلك هرتز نفسهُ وكما فصل ذلك السير أوليفر لودج شارحاً الخطوات التي اتبعها : قال : —

« هذا الكشف النظري العظيم حرّك فينا نحن الذين كنا في مقتبل العمر شوقاً شديداً الى البحث والتحري ، واتذكر اني تباحثت فيهِ مع من نحترمهُ كلنا الآن « جيمس فلنج » وذلك سنة

١٨٧١ ، سنة ١٨٧٢ ، وكنا نلقى العلم معاً ، وبعد سنة او سنتين درست كتاب مكسويل في هيد لبرج وعزمت من ذلك الوقت على توليد الامواج الكهربية التي قال عنها مكسويل والعمل على ابتداع طريقة للشعور بها ، وتكلمت انا في هذا الموضوع في المجمع البريطاني سنة ١٨٧٩ ، سنة ١٨٨٠ ، وفي جمعية دبلن الملكية سنة ١٨٨٢ ، وكان رأي فتزجرالد « ان توليد الاضطرابات الموجية الاثيرية بوساطة القوى الكهربية غير ممكن » ثم اصلح فتزجرالد خطأه وحذف كلمة « غير » من عباراته المتقدمة ، وبين سنة ١٨٨٣ كيف يمكن ان تولد هذه الامواج — ولو استطعنا حينئذ ان نصنع آلة تلتقط الامواج الكهربية لوصلنا الى التلغراف اللاسلكي »

***

﴿ ماركوني يخشى توافق الخواطر ﴾ وآخر مثال أسوقه لحضراتكم هو ماركوني الذي يخشى توافق الخواطر ، وتفصيل ذلك ان تجارب هرتز كانت تكرر في كل مكان ، ومنها ايطاليا وكان استاذ الطبيعة في جامعة بولونا هو الاستاذ ريغي ، وبولونا هي بلدة ماركوني ، وحضر ماركوني محاضرة ريغي في الموجات الهرتزية فأعجب بها ، وجال في نفسه خاطر يكاد يكون الهاماً ، اذ رأى بثاقب نظره وعميق تفكيره ان هذه الموجات لا يصح ان تترك للأبحاث العلمية المحضة فقط ، بل يجب ان تستغل للاعمال التجارية ايضاً ، فقال ماركوني لنفسه « ألا يمكن أن استعمل هذه الموجات الجديدة لمواصلات بدون اسلاك ؟ ، واذا كانت تستطيع ان تقطع عرض غرفة فلم لا تقطع عرض البحار والمحيطات

بدت الفكرة سهلة كأنها بدهية ، وخشي ان يكون غيره من العلماء قد خطر له نفس الخاطر ويجدُّ في العمل لتنفيذها ، وقد اشار الى ذلك فيما بعد ذلك فقال وكان قلقي ناشئاً من ظني بأن الفكرة كانت اولية وبسيطة الى درجة يصعب معها الاعتقاد بأن انساناً آخر لم يحاول اخراجها الى طور التنفيذ ، وحاججت نفسي بأنهُ ولا بدَّ وأن يكون هناك علماء ارسخ قدماً مني قد اتبعوا خط التفكير نفسه ووصلوا الى النتائج عينها تقريباً ، وبدت لي الفكرة منذ اول وهلة حقيقية او بدهية الى درجة كبيرة لم تدع لي مجالاً للظن بأن هذه النظرية قد تلوح لآخرين عجيبة غريبة وهمية

ولكنها ارادة ماركوني القوية ، وعزيمته الوثابة دفعتاهُ فلم يتردد في تسجيل فكرته والعمل على تنفيذها ، فكان النجاح حليفه ، والنصر الفه ، فليكن لنا اذن من ذلك عبر ، ولنتخذ منها قدوة ولنعمل على ان يكون في مصر تشجيع العلماء ، وسبل لتسجيل نظرياتهم واختراعاتهم ، وسنجد بعد ذلك استقلالاً علميًّا ، كما نلنا استقلالاً سياسيًّا

صقر قريش

بحث نفيس

في إحدى هدايا المقتطف السنوية[1]

« اذا ابتعد المسافر عن مدينة اخذت تظهر له من بعيد الاماكن العالية منها وكلما أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لا يرى الا اكثر الاماكن إشعاداً في الجو كذلك الناظر في تاريخ الامة العربية في عهد الاسلام كلما ابتعدت بنا عنها قافلة الزمن وتقلت اركب الى الوراء صرنا لا نلمح إلا الشخصيات البارزة المتسامية اللائحة في الجو التاريخي الماضي ، ويمكننا ان نرد اكثر ما نفرحهُ من تلك الشخصيات الى بيتين نعدهما اكبر دور في تاريخ العرب السياسي وهما بنو أمية وبنو هاشم ، وهما الشعبتان الناميتان من صلب عبد مناف »

***

قدم الكاتب المحقق الأستاذ علي ادهم فصلاً من فصول رسالته « صقر قريش » بهذه الكلمة الصادقة في تصويرها ومجازها — ونعني برسالته تلك التي اجازتها لجنة « المقتطف » الزاهرة واختارتها لنشرها واهدائها إلى قرائها ، من بين الآثار العربية التي تكفل بطبعها السري المحب بالادب والعلم صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا ، تقدمة لذكرى منشىء المقتطف العلامة الدكتور يعقوب صرُّوف

الحق ان تاريخ الامة العربية في عهد الاسلام حافل بالسير العظيمة التي لا تزال مغبونة مجهولة المقدار في موازين التاريخ الحديث ، لم تصب ما اصابهُ ابطال اليونان والرومان الاقدمين من درس واستقصاء ، ولم تصب ما اصابه ابطال العصر الحاضر من تنويه وذيوع بين عامة القراء وانها مع ذلك لتتسع للمراجعة والتحليل وتخرج من بوتقة الامتحان على مثال يضارع احسن الامثلة ، ويوافق جميع المشارب والاذواق ، ايًّا كانت المقاصد التي ينتبها من القراءة

واليك مثلاً «صقر قريش» الذي كتب عنهُ الاستاذ ادهم رسالته القيمة، وهو عبد الرحمن

---

(١) كتب الاستاذ عباس محمود العقاد مقالا في كتاب « صقر قريش » تأليف الاستاذ علي أدهم — وتقدكان احدى هدايا المقتطف السنوية (١٩٣٨) — في جريدة الدستور فاستأذنا حضرته في اثباته في المقتطف

الداخل منشىء الدولة الاموية في الاقطار الاندلسية ، فأي ذوق من الاذواق لا يجد كفايته ومتعته في تاريخ هذا الرجل المقدام

من كان يطلب المغامرات القصصية فهذا بطل يقل نظيره بين ابطال القصص التي تقوم وقائعها كلها على المطاردة والتعقب والنجاح في الهرب والتخفي بين المشرق والمغرب والحضر والبادية والاصدقاء والاعداء : رجل نجا من جيوش الدولة القائمة سابحاً في الماء وهو يكاد يعمى من الرمد ، ورأى بعينيه من هربوا منه سابحين يتبعون فيعودون فيقتلون ، ويذهب هو في الآفاق شريداً منبوذاً يعاني الجوع والشظف حتى يتاح له ملك دولة بأذخة بهاها شارلمان والمنصور

ومن كان يطلب الحوادث والعظائم فهذه سيرة لا تنطوي صفحة منها إلا على حادث يطبع بأمير ويرقع بأمير، ويتردد في حوادثها جميعاً كل ما يتفتق به عقل الانسان من حيلة وتدبير وتقدير

ومن كان يطلب العبرة الاجتماعية فعرض العبرة هنالك واسع جد السعة بين اطوار التاريخ في الاندلس وهي متداعية ، وبين اطوار التاريخ في امم الاسلام وهي ناهضة كافية ، وبين عرب وبربر وفرنجه ويهود ومسيحيين تتشعب بهم الغايات فتلتقي ساعة وتفترق ساعات، وحسبك من ذلك انقسام المسلمين وحدهم الى مشارقة ومغاربة والى مضرية ويمنية والى شيع من كل قبيل، يتبعون اليوم هذا القائد وينحرفون غداً الى ذلك القائد ، ولا يثبتون على نهج طويل

ومن كان يطلب تحليل النفوس ودخائل السرائر فهذا مجال تتكرر فيه عشرات الاسماء كل اسم منها يشتمل على صورة آدمية تخالف سائر الصور وتلبث في أعمالها بغير بواعث الآخرين

***

ذخيرة لا تنفد من ثروة المعرفة لجميع الطالبين والمريدين ، وقد جاءت هذه الرسالة مثلاً يحتذى في استخراج النفائس من هذه الذخيرة الوافرة ، لأن كاتبها الفاضل رجل يدرس التاريخ بنظر الفيلسوف وروية العالم وحماسة الأديب ، ويعرف من مذاهب الفلاسفة العظام في أسرار التاريخ ما ليس يعرفهُ عندنا غير افراد معدودين

فاذا تناول قبيلاً او رجلاً او دولة نفذ الى موضع الملاحظة والحكمة مما تناوله في مذاهب التعليل والتحليل . فيقول مثلاً في التفرقة بين اخلاق العرب واخلاق البربر : « والفارق الكبير بين مزاج البربر ومزاج العرب ان العربي بطبيعته نزاع الى السخرية ميال الى الشك . أما البربري فانهُ عميق العاطفة الدينية يأخذ الدين مأخذ الجد الصارم ويوغل فيه بغير رفق ، وهو شديد الاعتقاد كثير التصديق لما وراء الطبيعة ولا يفطن من فوره الى الجوانب الفكاهية في الأشياء »

ويقول في التفرقة بين بني هاشم وبني أمية من قريش : « كان بنو هاشم في مكة سدنة

الكعبة وأصحاب السلطة الدينية . أما بنو أمية فكانوا أصحاب السيادة السياسية وذوي الجاه العريض والثراء الجم ، وكانت قوافل تجارتهم دائمة الارتحال بين مكة والشام حيث تأثير الحضارة البزنطية مستفيض . وقد أكسبتهم التجارة معرفة بالحياة وخبرة بأحوال النفوس ، وكانت حماية التجارة تستلزم شحذ مواهبهم الحربية ، وكان نفوذهم السياسي في مكة يفسح فيهم ملكات الرياسة وتدبير الأمور . وقد كانوا أقدر من بني هاشم على تصريف الأحوال الدنيوية واحتمال اعباء الحكم ، وقد قوى فيهم نفوذهم ورحلتهم للشام حب الاستمتاع بلذات الحياة والميل الى فاخر العيش كما زادتهم وفرة الثروة اقداماً وصلفاً ، وكانوا شديدي التمسك بالأرض ليس لهم أحلام متطايرة ولا خواطر محلقة ، والحياة في نظرهم مادة ملموسة وليست روحاً محسوسة فهم لا ينظرون الى الدنيا في ضوء فكرة مقدسة او في ظل مبدإ سام . وليست نفوسهم من تلك النفوس التي تحاول أبداً ان تقيم الحياة البشرية الزائلة على أساس من الأبدية الباقية وتحرص على ان تتمسك بصخرة من اليقين في بحر الحياة القلق ، بل كانوا يأخذون الحياة كما هي ويقبلونها على علاتها ويعملون على الاستفادة من فرصها والاستزادة من متعها ، والحياة في نظرهم ميدان لنفوذهم وبسط سلطتهم وتمديد شخصيتهم وتشبع للغلبة والاستعلاء واحراز الغايات واشباع الشهوات ، وقد قاوموا الاسلام في اول نشأته وكانوا اشد اعداء صاحب الرسالة حرداً عليه ونالوه بألوان من الاذى والاضطهاد شأن الارستقراطية في عداوتها للنظم الجديدة ومستجدث الافكار خشية ان تنزحزح عن مركزها وتفقد نفوذها ، ولكنهم ادركوا بغريزة الرجال العمليين ان اليوم للاسلام فلانوا للعاصفة وتكيفوا مع الظروف . وبمهارة فائقة وكياسة عظيمة تمكنوا من تحويل تيار الاسلام الى مصلحتهم واعلاء شأن بيتهم »

***

وبعد ان وصف الطبيعة الاموية هذا الوصف المبين اخذ في وصف « المزايا الشخصية » التي تقمصت ذلك الاموي الكبير — عبد الرحمن — في مغامراته ومحاولاته حتى حققت له ما يطمح في تحقيقه رجل طموح ولد من أناس جبلوا على المداورة والعزم واغتنام الفرص والمتعة بالحياة ، فلا نزال نرى هذا الباقعة وهو يجزىء حيناً ويروغ حيناً ويصانع الاعداء تارة ويعتو على الاصحاب والاقرباء تارة ، ويختفي ثم يظهر ويظهر ثم يختفي ، ويرضى بمقدار ويغضب بمقدار ويستشيس استيئاس المجانين حين لا مناص ، ويتهاوت تهاوت التعلب حين لا جدوى من الهجوم ، ويعامل كل انسان بما ينبغي أن يعامل به من ثقة أو حذر ومن مجاملة او مخاشنة ، حتى بلغ

ما يريد أو بلغ ما تريده له غريزة التاريخ — كما يسميها الاستاذ ادهم من توجيه الحوادث وتحويل مجرى الحضارة واقامة النظام في مقام الفوضى

وعندنا أن الرجل قد كشف عن نفسه ببيت واحد من نظمه فوق ما كشفته منه الأعمال والمساعي حيث قال

سعدي وحزمي والمهند والقنا ومقادر بلغت وحال حائل

وكان قد سمع ما يقوله عليه بعض حاسديه اذ يستكثرون عليه ما فاء ويستصغرون ما عمل ويزعمون « انها الحظوظ والمصادفات » فجمع لهم اسباب فلاحه في هذا البيت الذي لم يدع سبباً من اسباب نجاحه وعلو نجمه ، وهي توفيق الحوادث وطيعة العزم وقوة الحيش ، وتحول المقادير باحوال الامم التي نشأ فيها والتي رحل اليها ، فلو نقص سبب واحد من هذه الأسباب لما كان « عبد الرحمن » داخل ولا كانت دولة ولا كان فلاح

***

والاَّ فهل كان عبد الرحمن ينجح هذا النجاح لو لم يكن مولوداً في بيت الملك وكان من خيمة القبائل البربرية والعربية ان تدين بالطاعة لمن لهُ هذه السابقة في الرئاسة والأمرة ؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يسمع نبوءة العراف الذي قال لكبرائه في صباه ان هذا الصبي هو امل العترة الأموية في ظهور السلطان بعد افول النجم وادبار الدولة ؟؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يكن بربريًّا بما ورث من امه وعربيًّا بما ورث من آبائه فهو بهذه المثابة مولود لسياسة البربر والعرب على السواء ؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو رحل الى المغرب في زمان استقرار دعوة ولم يرحل اليه في ذلك الزمان الذي تفرق فيه كل فريق حتى اوشك ان يمتنع الوفاق بين رجلين اثنين مدى ايام بله الشهور والاعوام

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يخطىء اعداؤه كلما احتاج الى خطئهم على النحو الذي يشتهيه كأنما هو الموحى اليهم بالخطأ وهو المفكر لهم بما يرمي اليه هو لا بما يرمون هم اليه؟

وكل هذا وأشباهه يقال عن نابليون ويوليوس قيصر وتيمورلنك وموسوليني وهتلر وستالين وسائر هذه الحصة من المغامرين الناجحين : اسباب تكفي في ازمانهم للوغ ما بلغوه بالقدرة التي فطروا عليها وعشرة اضعاف هذه القدرة لا تكفي للوغ ذلك المبلغ في زمان آخر ، وهذا هو الشأن في جميع عظماء الفتوح والمغامرات حيثما نبغوا بين مشارقة او مغاربة ، وفي عصر قديم او حديث

وخلاصة ما يقال ان هؤلاء الخامرين يولدون وعندهم مرجح ضئيل في كل مزية من المزايا يتفردون به عند ما يتعادل الميزان للترجيح والتفضيل

فالذين كانوا في ذكاء عبد الرحمن وشجاعته ودهائه كثيرون ، ولكنهم لم ينشئوا الدول ولم يغلبوا الأقران اما لأنهم اخطأوا العصر في الميلاد ، واما لأنهم ولدوا في غير البيت المطلوب ومرة لأن اعداءهم كانوا على خلاف الحالة التي نهون بها مغالبة الاعداء ، ومرة لأنهم غابوا حيث كان ينبغي ان يحضروا او حضروا حيث كان ينبغي ان يغيبوا ، فلو تأخر انتباه عبد الرحمن هنيهة وجيزة للجيش العباسي الداهم لما سمعنا به في الحاكمين ولكان الآن في غمار الألوف الذين فشلوا لأن اعداءهم ادركوهم لحظة من اللحظات قبل الانتباه ، لا لأنهم اقل في الذكاء أو اضعف في العزم او اجهل باسباب النجاح

والعجيب في امر هؤلاء الخامرين أنهم ما خلوا قط من عنصر الخرافة والتعويل على أمثال النبوءة والفأل التي كان يعول عليها عبد الرحمن ، ويحسب ان الامر طبيعي — بل ضروري — في كل من يعاملون القدر او يعاملون الغيب المحجوب ؛ ونعني بهم كل من يحتاج مساعيهم الى عنصر غير العناصر المعروفة المكشوفة التي تدخل في الحساب فيبقى في عقولهم مكان خال لحساب المجهول الذي يأتي بما ليس في الحسبان ، ويستوي في ذلك من يخوضون غمار الحوادث ومن يخوضون غمار الحروب ومن يخوضون غمار البحار ويركبون مطايا الأخطار . فسلامتهم جميعاً من هذه المهالك لا ترجع الى شيء من تدبيرهم ولا فرق فيها بين حيطتهم واقتحامهم ، ولهذا تقطع عقولهم على الحيلة والحيطة من جانب وعلى المجازفة والتسليم للمقادير من جانب ... وبغير ذلك لا ينجح ذو مطمع من هذه المطامع كائناً ما كان ذكاؤه واقتداره وحسن بلائه ، وكفى بذلك دليلاً على قدرة الفطرة الانسانية على خلق الايمان الذي هي محتاجة اليه

نصف من المعلوم ونصف من المجهول
نصف من التدبير ونصف من التوفيق
نصف من الأصدقاء ونصف من الأعداء
نصف من الماضي ونصف من الحاضر
نصف من الخير والمعرفة ونصف من الشر والجهالة
نصف من العظيم ونصف من التافه والاحداث
نصف من الرجاء ونصف من القنوط

ذلك هو « المزيج » الذي لا غنى عنهُ في اقامة الدول وفلاح المخامرين في هذا الميدان ، وهو في تاريخ عبد الرحمن الداخل وتاريخ عصره كأظهر ما يكون

ثقافة الغرب

وثقافة الشرق الادنى

للدكتور سترو اسث هنر . د.ف.
استاذ العلوم الاجتماعية بجامعة بيروت الاميركية

٣ — وجوه اخرى لتباين بين ثقافتي الغرب والشرق الادنى

(الميزة الشخصية مقابل الميزة غير الشخصية أي العامة) فرضنا الرابع في التباين بين الشعبين ان سكان الشرق الادنى ينظرون الى الحياة نظرة شخصية بينما الشعب الغربي يتبع الوجهة العامة غير الشخصية . وايضاحاً لهذا نقول انهُ لو دار حديث بين فرد من سكان الشرق الادنى ورجل من بلاد الغرب ثم سألتهما بعد حين عن الحديث الذي دار بينهما لاجابك الاول بصيغة المتكلم « سررت به جداً واستفدت منهُ كثيراً » وبالاجمال يكون وصف الامر بصيغة المتكلم . أما الثاني فيقول « كان الحديث لذيذاً مفيداً » ويكون وصف الامر بصيغة الغائب اي ان نظرة القائل غير شخصية بل عامة . ثم اذا أراد الاثنان طلب أمر من رجل يعتمد الاول في طلبه على العلاقة الشخصية ويظهر الحاحه بقوله « افعل هذا لخاطري » . بينما لا نجد أثراً لهذه الاتجاه في الثاني . « فافعل هذا لخاطري » تعبير غير مستحب في الغرب ولا يأتي بالفائدة المطلوبة . فان الغرب اذا طلب الى رجل ان يترأس عملاً خيرياً او مشروعاً اجتماعياً يعتمد في طلبه على اثارة عناية الرجل بالعمل المقصود واقناعه بصحة المشروع . والاختبار يعلمنا ان ابناء الشرق الادنى يعتمدون في عرض أمورهم على رجال الحكومة ، على واسطة تعارف بينهم وبين الموظف الذي يتعلق به الامر ويقوم بالتعارف صديق الطرفين إما بالرسائل وإما بالذات . اما الحالة في الغرب فعلى ضدّ ذلك . فان الغرب يشعر بأنهُ يدفع ضرائب وهذا يخوله الحق بأن يستفيد من معرفة الموظف ووقته ولذلك يذهب اليه في قضاء حاجاته دون واسطة . والولايات المتحدة تفاخر بأن حكومتها حكومة شرائع وليست حكومة رجال . والاحزاب السياسية في الغرب تقوم وتعمر طويلاً بصرف النظر عن القائمين بها وكثيراً ما تعيش زمناً طويلاً بغير زعيم . أما في الشرق الادنى فالاحزاب مرتبطة بزعمائها فتفور وتثور وفقاً لفور زعمائها

او غورهم . وكثيراً ما تموت الاحزاب بموت مؤسسيها وزعمائها. والحالة شخصية بحتة كذلك في الاعمال التجارية الصغيرة في الشرق الادنى . فاذا تألفت شركة في الشرق الادنى كان أعضاؤها أفراداً قليلين جميعهم أقارب وأصحاب. أما الاعمال في الغرب فتقوم بها شركات واسعة النطاق ، في نظامها صفة عامة غير شخصية. فمثلاً شركة التليفون والتلغراف الاميركية، أعضاؤها يعدون بألوف الالوف لان كل حامل سهم شريك فكثير من الشركاء لا يعرف الواحد منهم الآخر ولا يعرفون مديري الشركة والقائمين باعمالها . والعاملون فيها يعدون بمئات الالوف وبعضهم لا يعرف رؤساء العمل اسماً او وجهاً ومع كل هذا تسير الاعمال بدقة ونظام بحسب تعليمات وجداول وقوانين مطبوعة . واذا جئنا لعدد الشواهد على اثبات هذا الرأي في الغرب ضاق بنا المكان والزمان

ولنبحث فرضنا هذا مسترشدين بالفرض السابق تحت عنوان الميزة التقليدية مقابل ميزة الاختبار الشخصي. فاننا اذا اردنا ان نعرف اي الامرين اكثر شيوعاً في الغرب او في الشرق الميزة الشخصية او الميزة العامة ، فالشرقي في حالة كهذه يعتمد على الثقات وفي كلامه عن الامر يسرد اقوالهم لانهم واقفون على ثقافة الشرق الادنى وثقافة الغرب ويمكنهم ان يقولوا القول الفصل في الموضوع . اما الغربي فيدرس الامر بنفسه فيضع مقياساً عن أوضاع كلٍّ من الشعبين تجاه الاعمال الشخصية والاعمال غير الشخصية ويقوم باحصاء يتناول عدداً وافراً من الامتين والقيام بهذه التجارب قواعد وأساليب معروفة عن علماء الاجتماع المجرّبين

وهذا الدرس العلمي الذي يقوم به المدققون لمعرفة الحقائق واثبات فرضٍ ما ، يظهر فساد ما يلجأ اليه الذين يتباحثون في الامور على أساس نظريّ فيسردون الامثلة والشواهد التي تدعم آراءهم وفي الوقت نفسه يسردون أمثلة تفسد آراء معارضيهم وبكلمة أخرى ينقبون من الحدّ الاقصى في كل من الحالتين امثلة يستندون اليها في أبحاثهم ويقدمونها بطريقة تفسد عليهم الوصول الى الحقيقة في معرفة مقدار التباين بين الفريقين اذا كان هنالك ثمت تباين . أما الطرق العلمية المبنية على ملاحظة الامور بدقة متناهية بالوسائط التي اشرنا اليها سالفاً في معرفة وضع الامة الواحدة تجاه حالة خاصة فتظهر فساد الحجج المبنية على امثلة شاذة مما يستند اليه الافراد لدعم رأي يأخذون به . وهذه الطرق العلمية تظهر ايضاً ضرورة مقابلة وضع الامة الواحدة بوضع الامة الاخرى تجاه حالة واحدة وذلك يسهل تعيين نوع التباين ومقداره . ولنا في التباين بين الالتجاء الى الثقات والالتجاء الى الاختبار الشخصي مثال نقيس على منواله لمعرفة صحة كل من الفروض الآتي ذكرها وهي تبين التباين بين الغرب والشرق الادنى

﴿ الميزة الاقطاعية مقابل الميزة الدمقراطية ﴾ فرضنا الخامس ان التباين الثقافي بين الشرق الادنى والغرب ظاهر في الصفات الاقطاعية الشائعة في الشرق الادنى والصفات الدمقراطية المنتشرة في الغرب مع بعض الشذوذ للقاعدتين. وقولنا الاقطاعية يعني ان الفرق الاجتماعي والبون الاقتصادي

بين أصحاب الاملاك والذين يعملون فيها شاسع وصارم وفي الوقت نفسه ينظر في كل من الفريقين ميل للبقاء حيث هو دون محاولة التغلب على هذه الحواجز . وقولنا الديمقراطية يشمل المساواة بين ابناء الامة الواحدة في الفرص التي تتاح لهم وهذا يتناول ايضاً المساواة بين الجنسين النشيط والضعيف ويتناول المساواة في جميع الحالات الاقتصادية بحيث تتاح في البلاد الواحدة فرص لابن الفلاح ان يتبوأ أعلى منصب حكومي في بلاده او ان يصير مدير اعمال تجارية أو اقتصادية كبيرة . ويتم هذا الامر بالتعليم المجاني العام الذي تقوم به الحكومات . وزبدة القول ان هذا التباين ظاهر في الثقافتين كل الظهور في عدم التساوي بين الرجل والمرأة وعدم المساواة اقتصادياً بين طبقات سكان الشرق الادنى . بينما المجال في الغرب واسع للمساواة بين الرجل والمرأة وفي جميع طبقات البشر . ولرب قائل يقول ان الديمقراطية التامة ليست من صفات المدنية الغربية على ما هو ظاهر في ايطاليا الفاشستية والمانيا النازية وروسيا البولشفية واليابان العسكرية كما وان الاقطاعية غير شاملة بعض اقطار الشرق الادنى وهذا واضح في نواح كثيرة من جبل لبنان حيث الاملاك ملك الفلاح يستغلها لحسابه . ولكننا نعود ونقول اننا في بحثنا هذا لا نتناول الحوادث الفردية ونقابلها الواحدة بالاخرى بل نقابل المعدلين الغالبين ، لان الحوادث الفردية قد تكون الحد الاقصى لاحدى الثقافتين ولا تظهر المعدل الذي توصلنا في الابحاث العلمية ونحن لا نود انتقاء حوادث فردية خصوصية يستعين بها الغير لاثبات نظرية ينادون بها

﴿ الجمود مقابل السير في التقدم الديني ﴾ فرضنا السادس في التباين الثقافي يتناول تأثير المركب الثقافي الديني في تغيير الحالة الثقافية كلها . فالديانة في الشرق الادنى عامل قوي ولكنها قوة جامدة نوعاً وفي سكان الشرق الادنى ميل للمحافظة على الانظمة الدينية وإبقاء الطقوس على ما كانت عليه قديماً بحيث تكون مستقرة على حالة واحدة فلا تتحول تحولاً يقتضيه الحال لتساعد على حل المشكلات الاجتماعية الحديثة وما ينجم عن هذه المشكلات من الشرور . واذا نظرنا الى البواعث الفعالة التي دفعت بالبعض في الشرق الادنى الى محاربة الشرور والامراض الناجمة عنها او الى مكافحة التأخر الزراعي او البناء او الجشع الاقتصادي او غيرها من الامور التي لا يريدها الشعب نجد أنها لم تصدر من الكنيسة الارثوذكسية او الكنيسة المارونية او الهيئات الدينية الاسلامية او غيرها بينما الحالة في الغرب عكس هذا تماماً فزعماء كل ثورة ضد شرور الحرب او ضد التحكم الصناعي او الفساد الادبي في السينما وغير ذلك من الشرور التي تعرقل تقدم الامة هم رجال الدين والعاملون في الكنيسة كالكهنة والقسيسين والمرسلين وغيرهم . والمال اللازم لنجاح كل من المشروعات المذكورة يجمع من الشعب بواسطة الكنائس ولا دخل لجمعيات فردية او مؤسسات اخرى فيه . اجل ان في بعض كنائس الغرب محافظة قصوى ورد فعل

قويًّا ولكن الفرض الذي نحن في صدده يوضح لنا ان الكنيسة في الغرب عامل قوي في تسديد خطوات التطور الثقافي في مناهج التقدم بينما الكنيسة في الشرق الادنى جامدة وكثيراً ما تنتمي الكنيسة الجامدة في الشرق الى الكنيسة العاملة المندفعة في الغرب

﴿ الميزة الفردية مقابل ميزة السهولة لتأليف الجماعات ﴾ فرضنا السابع والاخير في التباين بين ثقافة الشرق الادنى والثقافة في الغرب ان العمل الفردي اكثر شيوعاً في الشرق الادنى منهُ في الغرب بينما العمل بواسطة الجماعات اكثر انتشاراً في الغرب منهُ في الشرق الادنى. ونعني بهذا ان اهل الغرب اقدر على ضم كلمتهم للعمل كجماعات موحدة الغاية والمرمى وانهُ بامكانهم ان يعملوا كجماعات زمناً طويلاً وان يكون عدد الافراد في الجماعة الواحدة وافراً. ولايضاح الامر نوجّه نظر القارىء الى الشركات التجارية في الشرق الادنى وهي كناية عن افراد قليلين اجتمعوا لمدة وجيزة بينما نرى الشركات الاقتصادية في الغرب تشمل العدد الوافر والواقر جدًّا من المساهمين وتكون آجالها طويلة مديدة وهذه الشركات إما ان تكون مجموع اصحاب رؤوس المال كشركة الفولاذ في الولايات المتحدة United States Steel Company والشركة المشهورة في تاريخ بريطانيا العظمى المعروفة باسم شركة الهند الشرقية East India Company وإما تكون مؤلفة من غير اصحاب رؤوس المال كالشركة التعاونية الانكليزية لبيع الجملة British Wholesale Cooperatives او تعم جميع ابناء البلاد كما هي الحالة في روسيا. فالبلاد الروسية كلها شركة اقتصادية واحدة. ومن يتصفح الكتاب السنوي الذي يصدر في الولايات المتحدة باسماء الجمعيات الاجتماعية يجد المؤلف كبير الحجم فيهِ الالوف من اسماء الجمعيات وكلها تبين ان الالوف من سكان البلاد قد اتحدوا معاً تحت اسم جمعية واحدة للعمل معاً نهوضاً البلاد باحدى الخدمات المعروفة عندهم. وهذا التباين في الميزة الفردية مقابل ميزة القابلية للعمل جماعات جماعات هو في رأيي وليد ثقافة خاصة شأنها شأن اخواتها الست المار ذكرها ولادخل للفطرة في هذه الميزة بل هي تأثر بالمحيط والبيئة. فالاولاد في الغرب يربون منذ حداثتهم على العمل جماعات جماعات بطرق مختلفة تعد بالمئات فبعضهم يكلفون قبل ان يبلغوا الثامنة من عمرهم ان يترأسوا لجاناً تتعلق بصفوفهم المدرسية وللمقابلة نقول قنا باحصاء في صف المبتدئين في القسم العلمي في الجامعة الاميركية في بيروت (Freshmen) لنعرف مدى هذا الاختبار في هذا الصف وعدده مائتان فوجدنا انهم تسنح لواحد منهم فرصة ليترأس لجنة ما مع ان المعروف انهم بوصولهم الى هذا الصف قد اجتازوا مرحلة واسعة من مراحل التهذيب العالي ومعدل العمر فيهم خمس عشرة سنة. والكل يعرف ما في هذه الناحية من التهذيب من الفوائد اذ تعلم اساليب تسيير الامور باحترام القرارات الصادرة من الاكثرية وخضوع الاقلية لقرار الاكثرية رغم الاختلاف والتباين في الرأي. ومعلوم ايضاً ان هذا غلبة على روح التحاسد

ومن يحص عدد الجمعيات التي قامت في الشرق الادنى في السنوات العشر الواقعة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ويدرس معدل عمرها يجد الشواهد العديدة التي تعلق بفرضنا هذا امني به التباين بين العمل الفردي والقابلية للعمل جماعات جماعات . واذا نظرنا الى الفروض الاول والثالث والرابع المتعلقة بالتباين الثقافي ان في ادخال الصناعات او في ادخال تغيير ثقافي مرغوب فيه في الانتقال من الميزة الشخصية الى الميزة العامة غير الشخصية وكان نظرنا اليها بدقة وامعان لم نجد فيها تصادماً أو تعاوضاً بل نراها تطابق الواحدة منها الاخرى وتلاءم الثقافة الاولى الثقافة الاخرى وان في الامكان تشابهها وامتزاجها الواحدة منها بالاخرى

وقد يعجب القارىء لعدم ذكرنا التصادم بين وطنية الشرق في طلب الاستقلال واستعمار الغرب الدافع به الى الرغبة في التوسع والتسلط . والسبب في هذا لا تتالا ى هذا التباين ثقافيًّا لانه ليس تبايناً في طرق التفكير والعمل في الحكومة . وهو ليس نزاعاً في الثقافة ... هو نزاع بين جماعات في الشرق الادنى وجماعات في الغرب على من منها يتولى امر هذه الثقافة . فالفريقان وطنيان والجماعات في الشرق الادنى والغرب تود ان تكون مستمرة وترغب في التسلط على جماعات أخرى اذا واتى الامر مصالحها وفي الوسع تنفيذ هذه الرغائب وعليه يكون هذا النزاع بين فئة وطنية في الشرق الادنى وفئة وطنية في الغرب ولا دخل للتباين الثقافي في الامر . فهاهي تركيا مثلاً قد خلعت عنها كل ما يمت الى الاستعمار الغربي ولكنها بالوقت نفسه تعمل بكل قواها لتقتبس الثقافة الغربية

ومع ان النزاع المذكور ليس نزاعاً بين الثقافتين نجد ان تسلط قوم على قوم آخرين بالاستعمار واسطة لنشر ثقافة الامة المتسلطة في الامة المتسلطة عليها . ولنا في اللغة خير برهان . ولا يسهى عن البال أن هذا التسلط السياسي بطبيعته يخلق جوًّا ملائماً للمعارضة يحول دون انتشار بعض الصفات الثقافية في الامة المتسلطة بين افراد الامة المتسلطة عليها ويساعد بالاكثر على ان تقتبس الامة المتسلط عليها ثقافة امة ثالثة غير استعمارية ومن هذا يتبين لنا أن التسلط الاستعماري يوجد طريقاً لبعض الصفات الثقافية ويقطع الطريق على البعض الآخر وعليه يجب ان ندرس هذا التصادم وهذا التلاؤم مستقلين عن ابحاثنا السابقة عوضاً عن درسها تحت مقابلة الميزة الوطنية بالميزة الاستعمارية لان الامر يقتضي الجلاء والوضوح في التفكير والبحث

٤ — اختلاط الثقافتين

﴿ المهارة الفنية في تحليل التصادم في الثقافة ﴾ عند وقوع تصادم في الثقافات يمكن اتباع مبادىء خاصة معينة لتحليل التصادم . هذا اذا كان من يهمهم الامر راغبين في التخلص من التصادم والنزاع . ولكي لا نشغل محلاً واسعاً في تطبيق هذه المبادىء على كل من النقط السالف ذكرها من التباين الثقافي نحيله على سردها بكل ايجاز

(١) — اذا ما كن البالغون بعض الصفات الثقافية وحاولوا منعها من التطرق الى صفوفهم فعلى من يعملون على ادخال هذه الصفات ان يلجأوا الى الصغار فيدربوهم في الثقافة المنوي ادخالها وعلى ذلك لا يمضي وقت الاّ وتم الثقافة الجديدة كل البلاد والامر معروف في كل العالم ان المدارس هي الواسطة الفعالة لاذاعة الثقافات ونشرها

(٢) — المبدأ الثاني للتخلص من النزاع والتصادم في ادخال صفات ثقافية جديدة لامة ما على من يهمهم الامر ان يعتمدوا على الوقت فلا يعملوا على نشر الامر بسرعة مستخدمين لذلك الاعلانات والدعايات . لان ذلك يساعد على ازدياد المعارضة بينما الامر يكون عكس هذا اذا سار هؤلاء الدهريناء وتركوا للوقت مجاله للعمل. مثلاً لو قام مجذو السفور ينشره بالسكينة والهدوء لانتشر بدون ضجة ومعارضة وان كانت هناك معارضة فبأقل ما يمكن منها . ولكن الامر يستلزم وقتاً أطول منهُ اذا هم فرضوه على الامة بالقوة. فالمرأة التي ترد ان تظهر سافرة يمكنها ان تكون مع السافرات سافرة وتبقى في محيط محبذي الحجاب محجبة او اذا شاءت نفي وسعها ان تنقص تخانة حجابها شيئاً فشيئاً فعي بهذا تخمد نيران كل رغبة للمعارضة او الثورة ضدها بينما تراها تثير من النزاع والضجة الشيء الكثير اذا وثبت وثبة واحدة من الحجاب الثخين الى السفور المطلق

(٣) المبدأ الثالث ان تربط الصفة الثقافية غير المرغوب فيها بحالة يسعى الجميع اليها . مثلاً اذا قاومت أمة الاقبال على لغة الامة المستعمرة بلادها فان افراد الامة المقاومة يقبلون على درس اللغة غير المرغوب فيها اذا جعلت واسطة للفوز بالمناصب الحكومية

(٤) المبدأ الرابع زيادة الامور المشتركة بين المتصادمين وتوسيع نطاقها وتقليل النقط التي يصير الاختلاف عليها . وما اصح الشعار الذي اتخذتهُ جمعية «الاخاء» في جامعة بيروت الاميركية لانقاص الاختلافات المذهبية في اعضائها والشعار المشار اليه سابقاً هو « ان العالم الذي تتقاسم بركاته لاوسع جداً من العالم الذي نختلف على ذراته » وبكلمة أخرى نقول في هذا المبدإ « ان تتمم غايات الجماعات المتصادمة غاية اوسع وأنفع هي غاية الغايات » ففي الاعمال البرلمانية فئتان لكل منهما وجهة نظر في درس الامور وتقريرها ولكن الخلاف بينهما يحسم بقرار الاكثرية النافذ على الاكثرية والاقلية معاً . فخضوع الاقلية لقرار الاكثرية في تقرير مركب ثقافي خاص وصل اليهم للبحث اما باستدعاء وإما بلائحة تشريعية هو واسطة للوصول الى غاية الغايات وهذه الواسطة معروفة باسم نظام الاكثرية ولكن الفريقين يستخدمان اختلافهما لغاية أوسع وقصد أفضل وهو الاستمرار في العمل للوصول الى قرارات عديدة بحسب نظام الاكثرية . وضد ما نرى الاقلية في الاعمال البرلمانية تنفصل عن الاكثرية فتخلق الابحاث البرلمانية فقل ان اعضاء البرلمان لا يؤمنون بهذه الغاية الواسعة ولا يعتقدون في النتائج العامة الفضلى

الناجمة عن نظام الاكثرية. فعلى رجال الادارة اولاً ان يوجدوا غاية الغايات وان يقدموها الى البرلمان بطريقة يعرفون انها تتم غايات الفئتين المتفقتين. ومع ان لكل فئة الحق ان تصادق على قبول بعض الصفات والمركبات الثقافية ورفضها بصرف النظر عن اشتراكها في بحثها فيجب ان يعرف المجموع الذي يدرس هذه الثقافات انه بحاجة الى الاتفاق على غاية الغايات لكي يحل كل خلاف وتصادم. ولايضاح الامر نضرب المثل التالي: اذا كانت غاية الغايات التقرير بان بناء الحياة البشرية يجب ان يكون اسياد محيطهم لا عبيده وقد تم هذا فما نراه من التباين والتصادم في المثل التقليدية مقابل ميزة الاختبار الشخصي لا يطول امره لان الصفات العلمية تجلو للانسان خريجيًا بانها تخوله سلطة واسعة على الطبيعة تعجز عنها اقوال الثقات

ثم اذا فرضنا ايضاً ان قد تم الاتفاق على ان تكون الشخصية واحدة من الغايات المنشودة — وعنى بالشخصية ان ترتقي النفس البشرية وتكون حرة كثيرة الاختبار وجزيلة الفائدة للمجتمع البشري وهذا اعلى ما يصبو اليه المرء في حياته البشرية — فاننا اذا درسنا نقط الخلاف بين الذين يقولون بالنظر الى الحياة من وجهة شخصية والذين يقولون بها من وجهة عامة غير شخصية وفهمنا الامر بدقة واتمان مسترشدين بالفرض الذي قلنا قد تم الاتفاق عليه من حيث الشخصية السامية كان في وسعنا ان نقرب بين وجهتي نظر الفريقين وقد يتسنى لنا ان نوفق بينهما توفيقاً تامًّا. فهذه الغايات المنشودة كسلطة المرء على محيطه وانشاء شخصية مولدة مفيدة، هي القانون الذي يسير عليه التقدم والنجاح وهي المقياس الذي به نعرف الزمن الذي به تصير الصفات الثقافية تقدماً ونجاحاً في الامة التي تصبو الى هذه الغايات الفضلى

فالمسألة امامنا ان يتم الاتفاق على تعيين غايات فضلى اكثر عدداً من المعروف وتحديدها قبل اضاعة الوقت وبذل الجهود في درس امور ثانوية هي التباين في الثقافات وهذا ما يضع امامنا السؤال التالي: «ما هي الغايات الفضلى التي يمكن اتخاذها واسطة للوصول الى أبعد مدى ممكن من الاتفاق بين الشرق الادنى والغرب». وقد أشار بعضهم الى الغايات التالية كالغايات الفضلى المنشودة «ارادة الله» «الشخصية السامية» «ان يحصل اكبر عدد ممكن على اعظم قسط من السعادة» «الحصول على افضل حالية واوفر ثروة ممكنة والوصول الى ابعد مدى من الرغد والرفاهية والفوز بأوفر قسط من المعرفة في طريقة الحياة لتحقيق معين»

لم نقصد فيما جئناعليه من الباحث ان نحل المشكلات الظاهرة في مقالنا ولكن قصدنا ان نبث في قارئي مقالتنا هذه التأمل العميق في هذه الامور الحيوية والمعروف ان حل المشكلات الناجمة عن التصادم في الثقافات وكيفية تلاؤم الثقافات المختلفة لا يكون عن طريق الاقوال بل يتم بما يفكر فيه اصحاب هذه الثقافات ويعملونه

[نقلها جورج الاشقر من الانكليزية]

دراسات

في آثار الاقدمين الروحية

لناشد سيفين

الرموز في الديانة المصرية

(تمهيد) يحسن قبل الكلام عن الرموز ان أمهد لذلك بكلمة عن معبودات قدمائنا ومعتقداتهم

تقوم الديانة المصرية على ركنين عظيمين : عبادة القوة ممثلة في مظاهرها في الكون كالشمس والقمر والنيل وعبادة السلف الذين اهتدوا الى الزراعة وكان لهم فضل اخراجهم من ظلمات البداوة الى نور الحضارة. وقد مثلوا لهؤلاء السلف بالأسرة الرمزية المكونة من الثالوث المشهور أوزيريس الأب وإيزيس الأم وحورس الابن الوارث للعرش . ثم انتقلت هذه الصفة الى الملوك من بعدهم فكان الملك هو الوارث لعرش حورس ويلقب بحورس الحي حتى اذا انضم اليهم في العالم الثاني عد كالٰه . ولهذا أنشئت المعابد للملوك في الغرب حيث مقابرهم ليحج اليها أتباع حورس من شعبهم لتقديم فروض العبادة لهم

وقد اهتدوا الى البعث من النظر الى الشمس فهي تولد في الصباح وتبلغ غاية قوتها في الظهر ثم تحدر وتصفر وأخيراً تغرب ثم تبعث في اليوم الثاني . وكانوا يزعمون ان «را» وهو الٰه الشمس اذا بلغ المغرب أخذ هيئة الموتى ليجتاز «الدوات» وهو العالم الثاني ولذلك كان الذين في الشرق عند آون يعبدون الشمس وهي في الاوج باسم «را» والذين في الغرب عند منف يعبدونها وهي في الدوات باسم «بتاح» وكانوا يصورونه لذلك في هيئة مومياء

وقد جعلوا أوزيريس آية على البعث ودليلاً فقالوا انه جاء معلماً للناس وهادياً فعلمهم الزراعة وهداهم الى الدين وأعطاهم الشرائع ثم قتل وبعث ورفع الى « را » في السماء واتحد معه الى العالم الثاني وهو هناك الٰه الموتى

ويلاحظ انه كان لهذه المعبودات مناطق تتركز فيها عبادتها فرا اون وهي هليوبوليس باليونانية ومعناها مدينة الشمس ولآ من طية وبتاح منن ومكانها الآن ميت رهينة عند البدرشين حيث يوجد تمثال ضخم لرعمسيس ملقى على ظهره وكان في الاصل قائماً عند معبد بتاح. ولأوزيريس

أبيدوس ومكانها الآن البراية المدفونة تحت البلينا . وتوت خينو وهي الاشمونين . وحورس ادفو . وذلك يدل على أنهُ في الزمن السابق للاسرات لما كانت البلاد منقسمة الى أقاليم مستقلة تحت حكم أمرائها كان الشعب موحّداً اذ كان لكل إقليم معبوده الخاص . فلما صارت البلاد مملكة متحدة تحت حكم مينا واتخذ منف العاصمة وكانت العادة منذ أقدم العصور ان يتولى الأمراء الملك في أقاليمهم كورثة للاله كان طبيعيًّا وقد أصبحت منف حاضرة المملكة المتحدة ان ينتسب ملوكها الى الشمس معبود هذه المنطقة في الشرق باسم «را» وفي الغرب باسم «بتاح» ليكون الملك لهم حقًّا المبًّا بأنهم ابناء الاله وورثتهُ وخلفاؤه في الارض وان يصير اله الشمس ملك الآلهة ورب الأرباب وان تفرض عبادته من ثمَّ على سائر افراد الشعب يعبدونهُ الى جانب معبوداتهم الخاصة في اقاليمهم . وكان هذا بداءة الشرك وتعدد الآلهة

ومع الزمن أصبحت المعبودات جميعها معروفة في سائر أنحاء البلاد فما كان منها متشابهاً في صفاتها عبدوها معاً وخلطوا بين اسمائها في قصصهم الديني حتى ليتعذر ان تفرق بينها . فكثيراً ما تذكر هاتور مثلاً ويراد غيرها من اناث المعبودات مثل ايزيس وسيخت وكذلك «بتاح» لكونه يمثل «را» في العالم الثاني فقد عبد كصورة من صور أوزيريس أو آسار وسمي بتاح سيكر آسار وجعلت في معبده حظيرة للعجل ابيس وهو رمز آسار كما سأبينهُ بعد

ولما نجح احمس رأس الأسرة الثامنة عشرة وكان من طيبة، في تخليص البلاد من حكم الهكسوس واستقل بالبلاد متخذاً طيبة عاصمة للملك أصبح لآمن معبودها المقام الأعلى في البلاد وأدمج فيه «را» وصار يدعى «آمن را»

وفي زمن بطليموس الاول سوتير مؤسس أسرة البطالسة جيء الى مصر من اليونان بتمثال صنع على هيئة العجل وعلى رأسه شارة مصر المكونة من قرص مجنح يكتنفه أفعوان وعقاب وقيل لتزكيته عند المصريين واليونان انه يمثل اتحاد كل من بلوتو اله العالم السفلي عند اليونان وآسار اله الموتى عند المصريين وسمي سيرابيس وشيّد له في الاسكندرية معبد فخم ظل قائماً الى دخول المسيحية . وكانت الغاية من ذلك اضعاف القومية المصرية وخضد شوكة المقاومة فيهم للحكم الاجنبي من طريق افساد عقائدهم باحلال آلهة غريبة مكان آلهتهم التي ألهمتهم اياها طبيعة الاشياء في مصر وضرورات الحياة واصطبغت بصبغة البلاد وصرفهم عن معابدهم التي تمثل فيها عظمة الماضي ومجد ملوكهم الاقدمين

ونظراً لهذا الامتزاج بين المعبودات فاني في دراستي هذه سأحرص على ان أبين هل كان الرمز للمعبود الذي ادرسه في الاصل او كان لآخر لظيره ثم أضيف اليه بعد ادماجه به

﴿الرموز﴾ الرمز أداة يستعان بها لتقريب المعاني المجردة الى الاذهان وتجسيمها لابرازها

لعيان . وقد استعمل قديماً لتعريف الآلهة وتمثيل صفاتهم . وقد اتخذت اكثر الرموز لهذه الغاية من الحيوان لان لاجناسها صفات وغرائز معروفة تتميز بها

ومن اجناس الحيوان التي استعملت رموزاً في الديانة القديمة الأبيس والقرد والعجل والبقرة والكبش والجعران . وقد تكلمت في المقال السابق عن الأبيس والقرد . وأضيف الآن اني بعد ارسال المقال قرأت في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري عن طائر اسمه بوتير «انه طائر ابيض يجيء منه طائفة كل سنة في وقت معلوم الى جبل يقال له جبل الطير بصعيد مصر بقرب ادفو» . وهذا الجبل بمديرية المنيا ولا يبعد كثيراً عن الاشمونين . ولعل هذا الطائر هو الابيس كانت يجيء منه طائفة كل سنة عند ارتفاع ماء النيل فتفاءل به الناس واعتبروه بشيراً بالخير وموقتاً يدلهم على وقت الفيضان . ومن ذلك كان تقديسه في هذه المنطقة واتخاذه رمزاً لتوت الاله الذي أرشدهم الى معرفة الاوقات والفصول

وسأتناول في هذا المقال آلهة ورموزاً أخرى وأرجو ان أوفق الى ادراك الصلات المعنوية بين هذه المعبودات ورموزها

(آلهة الشمس) نشأ الناس منذ أدركوا عظمة الكون يتأملون في الكائنات مما في السماء وما في الارض وما بينهما ويتساءلون عن مصدر القوة فيها وانتهوا من ذلك الى معرفة الخالق

ولقد صور صاحب مزامير هذا المعنى أحسن تصوير وأبلغه في المزمور التاسع عشر حيث يقول «السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه .... في كل الارض خرج منطقهم والى أقصى المسكونة كلماتهم . جعل للشمس مسكناً فيها وهي مثل العروس الخارج من حجلته (مخدعه) يبتهج مثل الجبار للسباق في الطريق . من اقصى السموات خروجها ومدارها الى أقاصيها . ولا شيء يختفي من حرّها»

وكانت الشمس التي اختصها صاحب المزامير بالذكر أعظم وسيلة الى معرفة الاله ، والآية الكبرى على قوته فعبدت منذ أقدم العصور زلفى اليه . وقد بقيت من عبادة الشمس بعض عبارات لا تزال تطلق على الله مجازاً وهي من صفات الشمس أصلاً كالآية «الله نور السموات والأرض» وقولنا السماء كرسيه والارض موطىء قدميه

ومما كان له أثره في خيال الأولين ومعتقداتهم منظر الشمس وهي ترتفع في الأفق من وراء الجبال تتهادى لتأخذ مكانها في كبد السماء ثم تأخذ في الانحدار حتى تختفي كذلك خلف الجبال التي في المغرب . فقد اختلف الرأي في تفسير ذلك مما ترتب عليه اختلاف الرموز وتنوّع العبادات

فمنهم من توهم ان للشمس مسكناً خفيًّا في الجبال وبناء على ذلك بنيت المعابد عليها في بلاد كثيرة تقرّباً لها . ومن هذا القبيل الاكروبوليس بقرب آثينا ومعنى الاسم مدينة الرأس لانها

قائمة على رأس جبل . وكذلك المرتفعات التي جاء في سفر الملوك من أسفار التوراة ان الصوريين والموابيين من سكان فلسطين الأولين كانوا يقيمونها لكوش ومولك آلهة الشمس عندهم. وأصبحت الخيال التي أقيمت عليها تلك المعابد مقدسة ولا يزال بعضها حرمة الى الآن عند بعض الامم

ومنهم من اعتقد ان الشمس تهبط من المغرب الى العالم الثاني عالم الارواح ثم تبعث من المشرق في اليوم الثاني

واختلفوا كذلك في وصفها فمنهم من شبهها في شروقها والأفق من حولها يتلألأ بأشعتها الذهبية بمركبة تحمل الأله من الشرق الى الغرب . وفي مصر شبهت بالثور القوي ينطلق من حظيرته في الجبل الشرقي هائجاً يتقدمه قرناه يكنى بهما عن أشعتها وأول ما يبدو منها . وشبهت أيضاً بالباشق وكني عن أشعتها بجناحيه كما شبهت بالسفينة وقيل لذلك ان في السماء نهراً أعدلها تقطعه في رحلتها اليومية من الشرق الى الغرب

وسأجتزىء من ذلك كله بآلهة الشمس في مصر ورموزها فأجعلها موضوع دراستي في هذا المقال

﴿ المعبود « را » ﴾ « را » هو اسم اله الشمس في أون . ومن هذا الاسم فيما أظن اشتق الفعل « رأى » ولفظة ray بمعنى اشعة . وكان يطلق على الأله اذا كانت الشمس في كبد السماء فاذا ولدت من المشرق في يوم جديد سمي حور ماشيس وهو من أسماء حورس الابن ومن المرجح ان لفظة horizon بمعنى أفق مشتقة من هذا الاسم فاذا انحدرت الى المغرب وآذنت بالغياب في عالم الارواح أطلق على الأله اسم « تمو » أو « آمو » ولعله في نطقه الصحيح كان أقرب الى لفظة «عتمة» العربية

وبديهي أن هذا الثالوث من الاسماء لم يكن يعني عند الاقدمين ان للشمس آلهة ثلاثة . فالشمس سواء أكانت في كبد السماء أم في المشرق أم في المغرب هي واحدة والهها كذلك واحد. أما هذه الأسماء فهي اكثر ما تكون شبهاً بالاقانيم الثلاثة للاله الواحد في اعتقاد المسيحيين

ويظهر ذلك جليًّا في صلواتهم . وحسبي برهاناً على قولي ان أنقل بضع فقرات من صلاة نشرها مريت باشا بأصلها الهيراطيقي وترجمت منها الى اللغات الاوربية . وفيما يلي ترجمتها من الانكليزية :

« ايها الكائن الواحد خالق الخلق كله . الواحد الاحد . موجد الكائنات » ومنها « ايها الأله آمن وهو (را) وآمو وحور ماشيس موجد الكائنات كلها . ان جميع الناس يسجدون لك قائلين انا نمجدك لانك في وسطنا ونسجد لك لانك خلقتنا » ومنها «انه يسمع صلاة المستضعفين ويستجيب دعاء الداعي اذا دعا . وهو ينقذ الودعاء من ايدي قساة القلوب . ويقضي بالحق

بين الاقوياء والضعفاء» ومنها «ان عينه على الناس وهم نيام وهو يكفل لادنى خليقته احتياجاتها»

﴿ رموزه ﴾ تقدم القول ان الاوائل في قطرهم شبهوا الشمس في شروقها بالثور وبالباشق وبالسفينة. وقد احتفظ قدماؤنا والمصريون محافظون بطبيعتهم بتلك الصور جميعها كذخيرة مقدسة

أما الثور فقد اتخذوه باسم منفس رمزاً حيًّا لرا ووسيلة للزلفى اليه . وقد جاء في حجر رشيد المشهور ان بطليوس الخامس أغدق عليه وعلى الحيوانات الاخرى المقدسة الخير وأجزل لها العطاء تقرُّباً للآلهة

وأما الباشق فهو رمز حورس الابن وهو حورماخيس الشمس المشرقة وكان يصنع تمثاله من الذهب الخالص لمطابقة لونه لأشعة الشمس عند الشروق . وقد جعل رأس الباشق يتوجه قرص الشمس في موضع الرأس من تمثال « را » وهو على هيئة رجل يقبض باحدى يديه على علامة الحياة وبالاخرى على رمز القوة

وأما السفينة فهي رمز آمن اله الشمس في طيبة وسيأتي الكلام عنها بعد

ولما كانت سلسلة الجبال المحاذية للنيل على امتداده تبعد اكثر اجزائها عن الوادي المعمور ويتعذر لذلك اقامة المعابد للشمس عليها او في سفوحها كما فعلت الامم الاخرى فقد اصطنع قدماؤنا المسلة التي أصبحت عنواناً على مصر في هذا العصر لتكون رمزاً للافق وجعلوها مرتفعة لتستقبل أول ما يبزغ من أشعة الشمس وجعلت رؤوسها هرمية الشكل وطليت بصفائح مصقولة من الذهب والنحاس لتعكس عنها ولها لون الاشعة في الشرق وتوهجها ، واتخذوا لها بيتاً في داخل المعبد اطلقوا عليه اسم «هات بن بن »اي بيت المسلات وجعلوه قبلتهم . أما ما كان منها في غير هذا البيت فأريد به الزلفى الى الاله. وقد تنافس الملوك خلال آلاف السنين في اقامتها وحرصوا على ان يسجلوا عليها ما قدموا من صالح الاعمال لمجد آبهم الاله وعظمة الوطن. لكن لم يبق من ذلك الأعداد يسير

***

وقد بلغت هليو بوليس شأواً عظيماً واصبحت من اعظم المدن في زمانها . وكان معبدها من أكبر المعابد في مصر وأغناها واكثرها حاشية حتى قيل انه في زمن الاسرة العشرين بلغت الحاشية عدة آلاف . الا انها بسبب موقعها في الشرق كانت في طريق الغزاة الذين جاؤا من آسيا الى منف العاصمة . فداسوها واحداً اثر آخر وأعملوا فيها يد الخراب حتى لم يبق من المدينة العظيمة ومعبدها حجر على حجر الا المسلة اليتيمة القائمة في وسط الحقول في قرية المطرية. وهي ثانية اثنتين أقامهما اوزرتسن الاول من ملوك الاسرة الثانية عشرة حوالي عام ٢٤٣٣ ق . م . أما اختها فقد ظلت في مكانها الى القرن السابع ثم اندرست آثارها

[للبحث صلة]

لمحات حول نشرة دار الآثار العراقية عن

تاريخ قصر الاخيضر

لتوفيق الفكيكي
حاكم متفرد كربلاء

﴿ تأييد وتفنيد ﴾ لقد جالت أقلام الكتاب وتشعبت آراء الباحثين ممن شغفوا بالبحوث التاريخية بخصوص الوقوف على حقيقة تاريخ الاثر ذلك القصر الشامخ المنيف ، وقد تالت الهيئات الأثرية في ادوار مختلفة على زيارة هذا الأثر الخالد الدال على عظمة بانيه وواضع حجر أساسه فعادت دهشة وفي حيرة من امره واسراره المجهولة في مطاوي الزمن . وآخر ما ظهر في شأنه ما نشرتهُ دار الآثار العربية عندنا في نشرتها المعنونة (بالاخيضر) . وقد اسدت بذلك خدمة جليلة يقدرها لها هواة التاريخ حق قدرها ويشكرها عليها كل عراقي حريص على احياء مآثر السلف الصالح وهي وان بذلت جهداً كبيراً لاستجلاء ما غمض من أمره وتبسطت في عرض آراء ومذاهب المؤرخين والمنقبين بقصد كشف النقاب عن حقيقته التاريخية فانها لم تتج من الورطة ويا للاسف لانها أهملت أهم ناحية من نواحي التحقيق العلمي في أمثال هذه الموضوعات الهامة ألا وهي تمحيص الآراء والمذاهب التي أدلت بها بشأن تاريخ الاخيضر فقد اثبتتها على علاتها وضعف أسانيدها وغاية ما تذرعت به قولها في صحيفة (٣٣) :

« من الغريب ان تاريخ هذا القصر والحصن غير معلوم بالضبط ، بالرغم من ضخامة بنائه ودقة تخطيطه واهمية موقعه . لانه لا يوجد في القصر او الحصن كتابة تدل على شيء من تاريخه كما لا يوجد من كتب التاريخ والجغرافيا القديمة اشارات صريحة تدل عليه » . واعتبرت دار الآثار ان اقدم الاشارات التي تدل على الاخيضر بصورة اكيدة ترجع الى القرن السابع عشر حيث شاهده بعض الرواد من الاوربيين ثم اسرفت دار الآثار في حكمها على تاريخ الاخيضر بقولها

« ان كل ما يعرف عن تاريخ الاخيضر لا يتعدى في الحالة الحاضرة حدود التخمينات والفرضيات » ثم سرعان ما تهدم حكمها هذا وتتراجع عنهُ بصورة عجيبة بعد بسطها اجتهاد الباحثين والمحققين من المستشرقين وغيرهم وتتفق معهم فيما ذهبوا اليه وأجمعوا عليه من ان قصر الاخيضر هو من الآثار العربية الاسلامية بدون شك وريب كما يجده القارىء في صفحة

٤٢ و٤٣ و٤٤ و٤٥ من النشرة المطبوعة في مطبعة الحكومة في سنة ١٩٣٧ باهمال التاريخ الهجري مع انها بحثت عن آثر عربي اسمه بالخط الكوفي والنشرة له تسمى دار الآثار العربية في العراق

وأغرب من هذا هو استغراب دار الآثار ان قصر الاخيضر بالرغم من ضخامته ودقة تخطيطه الخ ..غير معلوم فكأن الضخامة ودقة التخطيط من لوازم معرفة تاريخ الآثار والمنشئين لها ومواقيت الانشاء

وجل ما اعتمدت عليه من المصادر في استنتاجاتها التاريخية هي اقوال من نقلت عنهم فقط. وسنأتي على تفنيد معظمها وأهمها . مع انها لو رجعت الى اسفار التاريخ العربي الاسلامي لوجدت ضالتها وسقطت على الخبر ولتخلصت من الشكوك ونجت من الورطة على قدر الامكان ولكانت نتائج مجهودها أقرب الى الصحة وأبعد عن الخطأ وحدود الظن

والآن نثبت الآراء التي استندت اليها الدائرة المشار اليها ثم نقيم الحجة على زيف بعضها وتصحيح البعض الآخر منها وهاهي ذي على الترتيب

التحقيق التاريخي

قال السيد شكري الالوسي ان كلمة (الاخيضر محرفة من اسم (الاكيدر) وهو اسم امير من أمراء كندة أسلم في صدر الاسلام. فالقصر يجب ان يكون قد شيد من قبل الامير المبحوث عنه قبل الاسلام

وقال (موزيل) ان كلمة الاخيضر من القاب شخص معروف في التاريخ وهو اسماعيل بن يوسف (الاخيضر) حاكم اليمامة على الكوفة من قبل القرامطة (في اوائل القرن الرابع الهجري — العاشر الميلادي) وقال ان الاخيضر يجب ان يكون (دار الهجرة) التي اسست من قبل الحاكم المشار اليه

وقد لاحظ (ماسينيون) عند زيارته الاخيضر ان زيارته تشابه الزيارة الساسانية فاعتقد لذلك انهُ يجب ان يكون قد شيد من قبل ملوك ايراني قبل العهد الاسلامي في العراق ، لاجل احد ملوك الحيرة من اللخميين . وقال ربما كان (قصر السدير) الذي تغنّى به الشعراء هو الاخيضر نفسه .وقد أيد (ديولافوا) رأي ماسينيون من حيث الاساس واعتبر الاخيضر من المباني المشيدة قبل الاسلام في أواخر القرن السادس للميلاد. وقد قررت (المس جرترود بل) المستشرقة عند زيارتها الاخيضر سنة ١٩٠٩ انهُ من المباني الاسلامية لانها اكتشفت المسجد ولاحظت المحراب ورجحت ان يكون دونة الحيرة التي شيدت في عهد الامويين. اما موزيل واسكار روتير، وكرسويل فقد أيدوا رأي (المس بل) من حيث الاساس فاعتبروا الاخيضر من المباني الاسلامية . غير انهم اختلفوا في امر تثبيت تاريخ البناء بين اواخر القرن الاول واوائل القرن الرابع للهجرة

ولكن (كرسويل) لم يوافق على رأي (المس بل) في اعتبار الاخيضر من عهد الامويين بل قرر انهُ من عهد العباسيين ورجح ان يكون قد شيد في عهد عيسى بن موسى ابن اخي السفاح

والمنصور وابن عم المهدي وولي عهد المنصور وكان والياً على الكوفة . واما هوسفيد فقال — يجب ان يكون من مباني اوائل القرن الثالث للهجرة لانهُ وجد شبهاً بين ريازة الاخيضر وريازة سامراء . هذا كل ما جاء في النشرة من الاستدلال على تاريخ الاخيضر وان القائم بطبعها اكتفى بسرد هذه المطالعات على عواهنها قائلاً في صفحة ٤٢ منها (ان العلماء اصبحوا مجمعين تقريباً على القول بان الاخيضر من مباني العهد العربي الاسلامي وان اختلفوا في تقرير العصر الذي تم فيه تشييده)

ان البحث العلمي يقضي على الناشر تمحيص وتفنيد تلك المطالعات والملاحظات على ضوء التاريخ العربي الاسلامي وتثبيت النتيجة الصحيحة التي يدعمها البرهان التاريخي مهما امكن وذلك لئلا يقع طلاب الابحاث التاريخية والذين يهمهم معرفة آثار الماضين في حمأة الخطل

على أننا لا نكر أهمية التقاط المفيدة القيمة المثبتة في صفحة ٤٤و٤٥ من النشرة حول الريازة العربية الاسلامية واستنباط الحكم منها على عروبة الاخيضر

نقول : ان القول ما قاله المرحوم العلامة السيد شكري الآلوسي الاَّ في جهة واحدة وهي تعيين العصر الذي شيد فيه الاخيضر لانهُ قطع بأن التشييد كان قبل الاسلام مع ان الحقيقة التاريخية كانت خلاف ذلك كما سيطلع القارىء عليها مفصلاً حيث ذكر صاحب معجم البلدان في الجزء الرابع وفي الصفحة ١٠٧و١٠٨ ما يأتي :

(واحسن ما ورد في ذلك ما ذكره أحمد بن جابر في كتابه الفتوح وأنا حاكٍ جميع ماقاله على الوجه قال: بعث رسول الله (ص) خالد بن الوليد (رض) سنة تسع الى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل [1] فأخذه أسيراً وقتل أخاه وقدم بأكيدر على النبي (ص) وعليه قباء ديباج بالذهب فأسلم أكيدر وصالح النبي (ص) على أرضه وكتب لهُ ولأهل دومة كتاباً وهو: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب الى الاسلام وخلع الانداد والاصنام ولأهل دومة ان لنا الضاحية [2] من الضحل [3] والبور والمعامي [4] والغفال [5] الارض والحلقة [6] والسلاح والحافر والحصن [7] ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر الثبات تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة لحقها عليكم بذلك عهد الله والميثاق ولكم به الصدق والوفاء شهد الله ومن حضر من المسلمين. ثم عاد أكيدر الى دومة فلما مات رسول الله (ص) منع أكيدر الصدقة وخرج من دومة الجندل ولحق بنواحي الحيرة وابقى قرب عين التمر بناء وسماه دومة واسلم حريث بن عبد الملك أخوه على مافي يده فسلم له ذلك وعلى ذلك قال سويد بن الكاهي

(١) تقع في وادي القرى بين الشام والمدينة (٢) الضاحي البارز (٣) الماء القليل (٤) المعامي الارض المجهولة (٥) التي لا آثار فيها (٦) الدروع (٧) هو دومة الجندل المشار اليها

فلا يأمنن قوم زوال جدودهم كما زال عن خبت لطائن أكدرا

ثم قال صاحب المعجم : وقد روى ان أكيدر كان منزله أولاً بدومة الجيرة وهي كانت منازله وكانوا يزورون أخوالهم من كلب وأنهُ لمهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق الا حيطانها وهي مبنية بالجندل فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وسموها دومة الجندل فرقة بينها وبين دومة الجيرة وكان أكيدر يتردد بينها وبين دومة الجيرة وهذا يزيل الاختلاف . ثم زاد صاحب المعجم قائلاً . وقد ذهب بعض الرواة الى ان التحكيم بين علي ومعاوية كان بدومة الجندل وبذلك يقول الأعور الشني

رضينا بحكم الله في كل موطن وعمرو وعبد الله مختلفان

وليس بهادي أمة من ضلالة بدومة شيخا فتنة عميان

هذا ما اثبته ياقوت في معجمه حول دومة الجندل اي الاخيضر وقد ايد ذلك شيخ المؤرخين الطبري في الجزء الرابع والصفحة ٢٢ من تاريخه في خبر فتح دومة الجندل من قبل خالد بن الوليد. ومما قاله: ولما بلغ اهل دومة مسير خالد اليهم بعد فتح عين التمر بعثوا الى احزابهم من كلب وغسان وتنوخ والضجاعم وهم على رئيسين اكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة وقد خالف اكيدر جماعته واعتزل الحرب مع خالد ولكن لم ينج منهُ وقد امر به فضربت عنقهُ ثم جعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض. وكان النصارى الذي امدوا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة وبالاخير تغلب عليهم المسلمون وتحصن اهل دومة في الحصن فلم يحصنهم حتى قتلهم خالد وسد بهم باب الحصن واقام خالد بدومة ثم رجع الى الحيرة وكان منها قريباً حيث يصبحها

ونظراً لما تقدم علم ان تاريخ دومة الجندل او قصر الاخيضر كان بعد الاسلام وبعد ارتداد اكيدر وعدم دفعه الصدقة اي الزكاة وبحيثه الى الحيرة في عهد ابي بكر الصديق . وبهذه الرواية التاريخية الموثقة بقول ثقاة المؤرخين يبطل قول المرحوم الألوسي في ان قصر الاخيضر شيده (الاكيدر) قبل الاسلام . وكذلك رأي المستشرق (ماسينيون) الذي بسطناه آنفاً والمتضمن ان هذا القصر قد شيد من قبل سنحاريب الثاني قبل العهد الاسلامي في العراق لاجل احد ملوك الحيرة من اللخميين اصح مفنداً ولا قيمة له ازاء هذه الحقيقة الناصعة

اما قول ماسينيون (او ربما كان قصر السدير الذي تغنى به الشعراء هو الاخيضر نفسه) فلا صحة لهُ ايضاً حيث ان قصر السدير هو الخورنق ومحل هذا القصر قرب ابي صخير اليوم ولم تزل اطلاله عبرة المعتبرين ويوجد ايضاً قصر (السديري) في منطقة الحياد بين العراق ونجد يعود الى عبد العزيز السديري احد عمال الحكومة السعودية والقصر الآن خربٌ. واما السدير الذي تغنى به الشعراء فلم يكن قصراً بل احد انهار الكوفة ومثله بارق وهو الذي عناه المتنبي بقوله

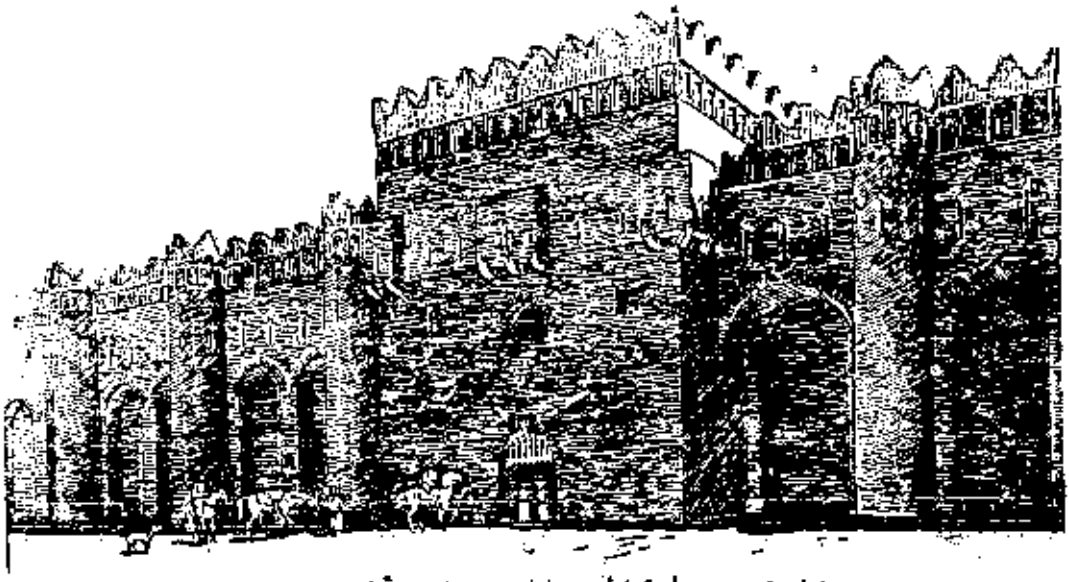

منظر تصوري لجهة الحصن الخارجية (عن أسكار روبتر)

رحبة قصر الاخضر (منظر تصوري للقسم الشمالي)

منظر جوّي للقصر والحصن مأخوذ من الجنوب

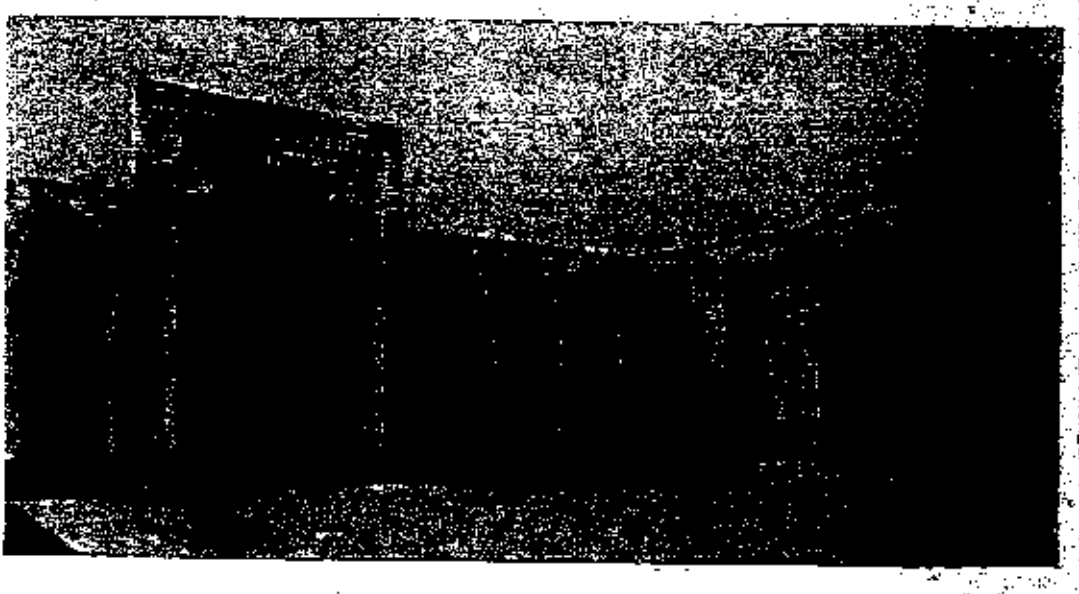

رسمة قصر الاخيضر (منظر تصوري للقسم الجنوبي)

[نقلت جميع هذه الصور عن نشرة دار الآثار العربية بالعراق]

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجرّ عوالينا ومجرى السوابق

وبهذا دحضنا قول كل من المستشرق (ديولافوا) مؤيد (ماسنيون) والمستشرقة (لس بل) فيما يتعلق بقولها : في ان الاخيضر هو دومة الجيرة المؤسسة في العهد الاموي في حيرة المناذرة. وعلى هذا سقط ايضاً ما فكر به المستشرق الشهير هرسفيلد الالماني من ان قصر الاخيضر من جملة اعمال الحكومة العباسية التي قامت بها في القرن الثالث والرابع من الهجرة لوجود الشبه بين ريازة بناء قصور سامراء والاخيضر . وبالوقت نفسه دفعنا شبهة المستشرق (كره سويل) التي دفعته الى القول بان الاخيضر قد شيد في عهد عيسى بن موسى بن اخي السفاح والمنصور الذي كان والياً على الكوفة مع ان عيسى بن موسى لم يكن ابن اخي السفاح وانما هو عيسى بن موسى الذي حكم الكوفة وطرد عمالها في عهد الخليفة المعتمد على الله وهو ابن أخت عبدان صاحب دعوة القرامطة بسواد الكوفة وهو الذي رأس طائفة القرامطة التي نجم قرنها في بلد عين التمر (شفاثه) بلد ابي العتاهية الشاعر الزاهد المشهور والقائل

لهفي على الزمن القصير بين الخورنق والسدير

. أما المستشرق موزيل فقد أخطأ خطأً كبيراً في ما قام به من التحقيق عن تاريخ الاخيضر وكدنا ان نقع في ما وقع فيه الاستاذ موزيل وكادت رواية المؤرخ العربي المسعودي تجعلنا في ضلال مبين كما أضلت موزيل من قبلنا ورواية المسعودي كما رواها في كتابه (التنبيه والأشراف) صفحة ٣٣٠ و ٣٣١ هي : —

ان القرمطي سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي صاحب البحرين قد سار سنة ٣١٣ الى الكوفة وبعد ان عمل بها ما عمل بالبصرة من سفك الدماء والتخريب قفل الى الاحساء بالذرية والثقلة وسلم البلد الى اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر صاحب اليمامة بن ابراهيم بن موسى ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الخ

ثم ان المسعودي أيد في صفحة ٤٣٠ و ٥١٣ من كتابه مروج الذهب قيام « عقة » المعروف بني الاخيضر مقام محمد بن يوسف في اليمامة والبحرين بعد هروب محمد بن يوسف أخي اسماعيل بن يوسف المار الذكر من مكة المكرمة من وجه ابن الساج الأشروسي الذي بعثه الخليفة المعتز لأجل خلاص مكة من شره وشر أخيه اسماعيل الذي توفي قبله

وقد عزز هذه الرواية الاخيرة أيضاً الكامل لابن الأثير في صفحة ٥٣ من الجزء السابع وكذلك تاريخ الطبري من قبله في صفحة ١٣٦ و ١٥٢ من الجزء الحادي عشر الاّ أنهما لم يؤيدا المسعودي في ما ذكره عن تسليم بلد الكوفة الى اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر ولم يتفقا معه في تسميته (بالاخيضر) بل لقباه (بالطالبي) فقط . وبنتيجة استقصاء البحث ظهر

ان الحق كان بجانب الطبري وابن الأثير بتأييد المسعودي نفسه فقد ذكر في كتابه (مروج الذهب) و (التنبيه والاشراف) ان وفاة اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر كانت في سنة ٢٥٢ هـ في حين ذكر ان في سنة ٣١٣ هـ سلّم أبو طاهر سليمان القرمطي بلد الكوفة الى المومأ اليه . مع ان اسماعيل بن يوسف توفي في مكة المكرمة بعد أن فعل فيها الافاعيل المنكرة وخلفه بعده أخوه محمد بن يوسف والذي هرب من وجه ابن الساج الاسروسني قائد الخليفة المعتز . فأي الروايتين أصح يا ترى . واعتماداً على هذه الرواية قطع المستشرق «موزيل» في ان كلمة الاخيضر اسم شخص معروف في التاريخ . وهو اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر حاكم اليمامة على الكوفة من قبل القرامطة (في اوائل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي) فقال ان الاخيضر يجب ان يكون دار الهجرة التي اسست من قبل الحاكم المشار اليه

وقد مرّ بالقارىء الكريم كيف أثبت التاريخ فساد هذا الرأي وبطلانه وهذا برهان آخر على سقمه وهو ان دار الهجرة التي أسسها القرامطة لم تكن هي الاخيضر ولا في الكوفة او الحيرة وانما كانت في واسط على نهر « الموفقي » وذلك كما جاء في الجزء الثامن صفحة ٥٨ من كامل ابن الاثير . حيث ذكر ان من حوادث سنة ٣١٦ هـ . بناء دار الهجرة من قبل أحد زعماء القرامطة يدعى حريث بن مسعود وكان يتقلد الحرب في واسط والتحق به اكثر من عشرة آلاف من سواد الكوفة من الذين كانوا يخفون اعتقادهم مع طائفة أخرى تسكن عين التمر كانت تحت أمرة عيسى بن موسى الذي استولى على الكوفة وهزم عمالها في عهد الخليفة المقتدر بالله وهو ابن أخت عبدان صاحب دعوة القرامطة بسواد الكوفة وكان بناء دار الهجرة في (الموفقي) — بالضم ثم الفتح — منسوب الى الموفق ابن أحمد الناصر لدين الله بن المتوكل على الله وأخي المعتمد على الله ووالد المعتضد بالله وكان قد ولي عهد أخيه . والموفقي نهر كبير حفره الموفق وفي أعلاه (قصر بزوفر) وفي أسفله قصبة خسرو سابور قرب واسط وخسرو فيروز . كما جاء في معجم ياقوت صفحة ١٩٨ من المجلد الثامن

فأين هذا مما ذهب اليه المستشرق الاستاذ « موزيل »

هذا ولا يغرب عن بال الالباء ان حركات القرامطة في العراق وسورية والحجاز ومصر كانت عبارة عن اعمال عصابات وقطّاع طريق لم يتسع لهم الوقت او تستقر لهم حالة ليقوموا بمثل جبار مثل تشييد (دومة الجندل) او الاخيضر تلك المباني والآثار الخالدة . خاصة وقد استؤصلت شأفتهم وذبحوا عن بكرة أبيهم في العراق بعد سنة ٣١٧ هـ كما يخبرنا التاريخ . ومما يؤيد ايضاً زيف رأي موزيل ومن يذهب مذهبه ما نقله صاحب المعجم عن بعض الرواة الى ان التحكيم بين علي ومعاوية كان بدومة الجندل وبذلك يقول الأعور الشنّي

رضينا بحكم الله في كل موطن وعمرو وعبد الله مختلفان
وليس بهادي امة من ضلالة بدومة شيخا فتة عميان

اما المسجد والمحراب فقد احدثا بعد فتح دومة الجندل اي الاخيضر من قبل خالد بن الوليد وقيام عوسم بن الكاهل الاسلمي والياً على عين التمر وعليها بعد مسير خالد الى الحيرة والدليل ان المحراب لا يتناسب وضخامة القصر وحصنه . اما ماجاء في آخر صحفة (٣٦) من نشرة دار الآثار وهو (فليس من المعقول والحالة هذه الاقدام على استدلال تاريخ الاخيضر من اسمه فير وجيه لان الآثار قد تسمى باسماء مشيديها كما سمي قصر الجعفري نسبة الى جعفر المتوكل على الله و (الماحوزة) التي شيد فيها الجعفري وغيره من قصور المتوكل (بالمتوكلية) او (الجعفرية) وكما يطلق البغداديون اليوم على جامع مرجان كلة (مرجان) فقط وعلى قضاء الهاشمية التابعة الى لواء الحلة (الهاشمية) نسبة الى الهاشمي عبد الله السفاح و (اشناس) اى قصر اشناس قائد المعتصم المشهور وهكذا (المستعرية) إلى المستنصر بالله (والنظامية) الى النظام. وأشباه ذلك مما لا يدخل تحت حصر

على اننا نوافق دار الآثار على ما اوردته من الملاحظات الاخرى في اعلى الصفحة المذكورة وبسطنا بعضها في ماتقدم من البحث ولكننا لا نتفق معها في اتخاذها العقل حجة لاستدلالها على نفي نسبة (الاخيضر) المحرفة عن (الاكيدر) الى الملك اكيدر بن عبد الملك بن عبد الحي بن اعيا ابن الحارث بن معاوية بن خلاوة بن ايامة بن سلمة بن شكامة بن شيبة بن الكون بن اشرس بن ثور ابن عفير وهو كندة الكوني الكندي كما قدمنا وان كان اعتمادها على حجة العقل تؤيد ما ذهبنا اليه لأن العقل يصدق هذه النسبة ويبررها مع ان العقل لا يركن اليه في دراسة الآثار . لهذا كان على دار الآثار ان تصل الى معرفة (دومة الجندل) ومشيدها (اكيدر) من طريق البحث التاريخي وألاّ تكتفي بتسجيل استغرابها في صفحة (٣٣) بقولها (من الغريب ان تاريخ هذا القصر والحصن غير معلوم بالضبط الخ) ثم تعلل ذلك بحجة انهُ لا يوجد في كتب التاريخ والجغرافيا القديمة اشارات صريحة تدل عليه واخيراً تردف قولها هذا بالجملة الآتية :

(ولهذا نستطيع ان نقول ان كل ما يعرف عن تاريخ الاخيضر لا يتعدى في الحالة الحاضرة حدود التخمينات والفرضيات » ولكن نقول لمن نشر نشرة (الاخيضر) لو اجهدت نفسك قليلاً في البحث والاستقصاء في الكتب الصفراء كما يعتها المجددون لوجدت ضالتك في كتب التاريخ والجغرافيا القديمة كما نوهنا سابقاً ولعلمت ان قصر الاخيضر هو (دومة الجندل) وان مشيده هو (اكيدر) وان عصر تشييده هو العصر الاول من تاريخ الاسلام وفي عهد الخليفة الاول من الخلفاء الراشدين وليس هناك اية شبهة او تضليل . بيد ان الضلال هو تقليدنا واتباعنا كل ما يقول المستشرقون كوحي منزل بلا تمحيص وروية وآسفاه

أرض شكسبير

زار الشاعر قرية استراتفورد اون أفون بانجلترا ، وهي المهد الاول لاعلام شكسبير، وأرض طفولته ، فقال هذه الابيات

خفق القلبُ خفقةً في حماكِ وتلقّى الخيالَ من دنياكِ
قسماً بالذي براكِ من الشعـ ـر وبثّ الجمال فوق ثراكِ
ما عرفت الجمال في غير ناديـ ـك ولا ذقتهُ بغير رباكِ

* * *

ها هنا شاعرٌ أقام وغنّى صبّ في زهر الطبيعة لحنا
كيف لا تسعدُ غُوطةٌ ولنفسٍ ملأ الكونَ والعوالم فنّا
وصف النفس وهو أفصح لفظاً والأحاسيس وهو أصدق معنى

* * *

بغمة أنتِ من بقاع الجمالِ مسرح الشعر والهوى والخيالِ
رقّ فيك الاصيل تحت الروابي والمساء الحزينُ خلف التلالِ
والخشيشُ الذي حواليك يهتـ ـز اذا داعبتهُ ريح الشمالِ

* * *

وجرى الماء كالنجين الجاري عاكساً ظلّ هذه الاشجارِ
وسمعنا الحنين تنغم فيهِ هازئاتٍ بنغمة الاوتارِ
وسكرنا هنا بغير شرابٍ وانتشينا هنا بغير عقارِ !

* * *

ثم قالوا : هنا تنفّس شاعرْ وهنا رفّ في الخمائل طائرْ
وهنا فاض خاطر عبقريٌّ لم يفض قبله من الشعر خاطرْ
وهنا في ظلال تلك الروابي سحرتني من الجمال مناظرْ

العمي يبصرون

ترقيع القرنية البشرية والكهربائية في العين

لعوض جندي

«ليست العين عرضة للأدواء التي تعتري أجزاءها الباطنية المختلفة فحسب ، بل قد تتأثر من أمراض غيرها من أعضاء الجسم ، فتظهر أعراض تلك الاسقام جلية في العيون . ونعني بها الامراض التسممية ، والتسمم ببعض العقاقير ، وكذلك الاصابة ببعض امراض الدم وغيرها من الامراض العامة كالبول الزلالي والبول السكري وتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم ، اذ تتبيَّن أعراض تلك العلل جميعها لفاحص العين[1] وذلك حينما يلجأ اليه المريض مستشفياً عينيه . ويشفى كل سنة في انكلترا وغيرها من البلدان المتحضرة ألوف من العميان اذ يستعيدون حاسة البصر عقب العمليات الجراحية البديعة التي يعملها لهم الجراحون الرمديون . وغدت ازالة السحابة «الكتراكتا» — أو اظلام عدسة العين — على أيدي مهرة الجراحين ، من اعظم ضروب الظفر التي احرزتها الجراحة الحديثة وقد استطاع أحدهم من عهد قريب نزع قرنية[2] امرىء وترقيع عين آخر بها . وأضحى من الميسور اجتناب كثير من حوادث العمى وذلك باتخاذ الحيطة الواجبة منذ الطفولة »

هذا بعض ما روته مجلة طبيب العائلة الانكليزية منذ بضع سنين وعقبت عليه بقولها ايضاً : —

أصيبت بالعمى من سنوات الآنسة «دافني ده موريه الروائية الانكليزية المشهورة وذلك عقب حادثة استهدفت فيها قرنيتا عينيها للضرر ، فقام أحد أطباء العيون بترقيع عينيها بقرنيتين جديدتين فاستعادت بصرها» . وجاء في الانباء البرقية من لندن في ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ما يأتي : —

عملت في أوائل الشهر الماضي عمليتان مدهشتان في مستشفى لندن الرمدي المركزي ، وهما تطعيم قرنية العين . وقد أسفرتا عن نجاح باهر . وكان أحد اللذين أجريت لهما هذه العملية كفيفاً منذ ولادته والآخر منذ ٢٨ سنة . ويؤمل ان يعاد اليهما بصرهما قريباً . ففي حالة الذي ولد أعمى منهما ، لابدَّ ان يمضي بعض الوقت حتى يتسنى تدريبه على أن يحل حاسة النظر محل

---

(١) التقرير الطبيب الماهر المدقق (٢) القرنية — السواد الذي في وسط الياض

حاسة الادراك بالنفس ، غير انهُ صار الآن قديراً أن يعدَّ أطباءهُ ويميز بين الالوان

قرأنا هذه الانباء ثم نشرت صحفنا المحلية من عهد قريب حوادث تضارعها غرابة فتذكرنا ما كتبناه في هذا الموضوع الخطير من زهاء قرن وذلك في مجلة المحيط التي صدرت في شهر مارس سنة ١٩١٣ لصاحبها المرحوم الاستاذ عوض واصف فآثرنا اقتباسه لقرائنا تمهيداً لهذا البحث الطبي الجراحي المستفيض : —

من معجزات العمليات الجراحية الحديثة غير ما سبق أن ذكرناه في الاجزاء الماضية من المحيط — عملية تطعيم العيون اي ترقيعها — فقد قرأنا في احدى المجلات العلمية الانكليزية أن بعض الجراحين أمكنهُ صيانة بصر مريض كان مصاباً بعطب في احدى عينيه وذلك باستئصال الجزء المصاب واستبداله بجزء سليم من عين انسان آخر

وأول ما يخطر على بال القارىء عند قراءة هذا النبأ أن العملية المشار اليها تقتضي تضحية عين من عيون الاصحاء والحقيقة نقيض ذلك لانهُ لو كان انلاف السليم ضرورياً لنجاح هذه العملية ، لاصبحت عقيمة . والواقع انه من الميسور استعمال عيون ، مما تنزع من الناس لاسباب مختلفة ، بشرط ان يكون الجزء الخاص المطلوب لأجل اجراء الترقيع خالياً من المرض . وهذا العمل لا يستوجب التضحية بعيون الأصحاء . والدليل على ذلك انه قد اجريت حديثاً عملية على أيدي جراح فرنسي لشاب كان فاقداً تقريباً حاسة البصر من احدى عينيه من احتراقها بجير سخن ، ونشأ عن ذلك الاحتراق كون قرنية عين الشاب « وهي الجزء الشفاف من غطاء المقلة الذي يعلو القزحية والبؤبؤ » أصيب اصابة بليغة كوَّنت غشاء منع الضوء منعاً كلياً من الوصول الى شبكية العين . ولذلك ثقب الجراح هذا الغشاء وادخل في الثقب قطعة من قرنية أخذت من عين مريض آخر كان مصاباً بداء الغلوكوما [1] . وبعد مضي ثمانية ايام التحمت الأغشية وتمت عملية الترقيع ، وبعد مضي شهر واحد رُفعت العصائب عن العين المرقعة وتمكن المصاب من الابصار قليلاً ، وفي خلال سبعة أشهر تحسن بصره تدريجاً حتى صار معادلاً لعشر قوة العين الطبيعية أي انها غدت منطبقاً عليها المثل السائر — نصف العمى ولا العمى كله

وهذه العملية غريبة في حد ذاتها لأن قرنية العين من الأغشية الرقيقة التي تفقد شفوفها بعيد موت الانسان غير انه يمكن حفظها شفافة باستخراجها توًّا ووضعها في محاليل معينة تكون درجة حرارتها معادلة للحرارة البشرية فيتيسر حفظها « حية » عدة ايام كما يتضح من الحادثة الآتية وهي التي رووها جريدة «فرنسيسكوكرون» التي تصدر بمدينة سان فرنسيسكو بالولايات المتحدة الأميركية وتعدُّ من اغرب ما حدث في تاريخ الطب وهي : —

(١) الماء الازرق Glaucoma

« ان رجلاً كفيفاً من أهالي دنفر بالولايات المتحدة اسمه آبرام طلب الى ولاة الأمور هناك أن يجروا عيني قاتل سجين في تلك المدينة رهين الحكم عليه باعدام حياته وقد أخفق الأعمى عريضته التي اشرنا اليها بتقرير من أحد اطباء المدينة عينها قال فيه انه يخص عيني آبرام وانهُ يرى اجراء العملية المطلوبة وان نجاحها ممكن »

وعقبت الجريدة المذكورة آنفاً على ذلك نبأ بقولها « واذا اجابت الحكومة طلب آبرام حضر الطبيب المذكور مصحوباً بالجراحين اللازمين ، عند اعدام حياة المجرم ليتمكنوا من اخراج عينيه عقب موته في الحال ، قبل نقل الجثة من غرفة الأعدام . وبعد اخراج العينين يضعونهما في محلول ملحي ثم يهرعون من فورهم الى المستشفى القريب من السجن حيث يركبون قرنيتي الكفيف فيبصر. فان تحققت هذه الآمال ، كان هذا العمل خطوة في سبيل ارتقاء الطب والجراحة ومقللا للعاهات البصرية » . ثمَّ ما نشرتهُ في مجلة المحيط

ثم جاء في جريدة الأهرام المؤرخة في ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٨ ما يأتي : —

الأحياء يبصرون بعيون الموتى — مدير مستشفى الرمد بروض الفرج يحدثنا عن دقائق عملية استبدال القرنية المعتمة بقرنية شفافة . اجراء العملية في مصر في اثناء اجتماع المؤتمر الدولي للرمد

نشرنا منذ أيام رسالة لمراسل الاهرام في نيويورك تحدث فيها عن العملية العجيبة التي أجريت لقسيس وفتى من طلاب فن الموسيقى فارتدَّ اليهما بصرهما وافتتحت عيناهما — وذلك في الاسبوع الماضي — على عالم لم ينظراه منذ أعوام كثيرة وهذه العملية هي استبدال القرنية المعتمة بقرنية شفافة ترد الأعمى بصيراً . ولما كان المعروف عن مصر انها « بلاد العميان » لكثرة العمى وأمراض العيون فيها ، فقد رأينا ان نحاول الوقوف على أصل هذه العملية وتفاصيلها ومقدار علم الطب الرمدي في مصر بها . ولهذا قصد مندوب الاهرام الى مستشفى الرمد بروض الفرج بصفة كونه أكبر مستشفى للرمد في مصر وطلب الى حضرة الدكتور محمد بكري مديره ، الادلاء ببعض البيانات على هذه العملية فتفضل حضرته بالمعلومات القيمة التالية ، قال : —

(تاريخ العملية) ترجع فكرة مكافحة العمى باستبدال القرنية المعتمة بأخرى شفافة الى سنة ١٨٨٨ إذ بدأ بعض العلماء في التفكير فيها . ومنذ عشرين سنة تقريباً اتخذت المسألة — راجع ما قلناه في مقالنا الذي نشرناه منذ خمس وعشرين سنة في مجلة المحيط وأعدنا نشره في صدر هذا البحث — شكلاً جديًّا وبحثت بعض العمليات . وفي مقدمة الأطباء الذين توفروا على دراسة هذه العملية ثلاثة وهم : تودور توس » وهو انكليزي و « الشنج » وهو الماني و « كاسترو نيشو » وهو أميركي وهو من الأطباء المعاصرين الذين نجحوا في تجاربهم ولا يزالون يوالون الدرس والبحث للتقدم في هذه العملية

﴿ الصعوبات التي تعترض العملية ﴾ والعملية مع خطورتها ودقتها ليست صعبة ولكن الصعوبة الجدية هي في إيجاد الحالات التي تنطوي شروط العملية إذ هي نادرة جداً إذ يشترط ان تكون عتامة القرنية تامة وغير لاصقة بالقزحية . وهذا نادر جداً وعلى الاخص في مصر لأن الأغلبية العظمى في العتامات التي تصيب العين عندنا تكون نتيجة قُرح لا تكاد تحتل نصف القرنية حتى تكون قد دمَّرت طبقاتها وأحدثت ثقباً فالتصاقاً بالقزحية . ولا تزال التجارب مستمرة للتغلب على عقبة الالتصاق حتى يتمكن أكبر عدد ممكن من ضحايا السحابات التامة ، من الانتفاع بهذه العملية التي تردُّ اليهم البصر بعد فقده . اما السحابات غير التامة وهي المركزية فيمكن أن يبصر المريض بها بعملية « الثقب الصناعي » وهي عملية معروفة وسهلة ويقوم بها كثير من الأطباء — وهذه العملية (ترقيع القرنية) معروفة تماماً لكثير من الاطباء الرمديين في مصر . وتوجد في مصر أحدث الآلات المستعملة لها ، وهي في مستشفى الرمد بروض الفرج . بل ان هذه العملية قد جربت في مصر في اثناء انعقاد مؤتمر الرمد الدولي الحديث ، اذ قام بها استاذ بفاري في مستشفى تلاوون أمام بعض أعضاء المؤتمر يوم زيارتهم للمستشفى . وكان الطبيب يحمل الآلات اللازمة للعملية ، وكانت التجربة سيئة . وكان بصرها بعد العملية وعقب خروجها من المستشفى جزئياً . وكان المفروض أن تتردد على المستشفى ملاحظة (التطور) في نظرها ولكنها انقطعت فجأة . وحاولت ادارة المستشفى البحث عنها فلم تعثر عليها حتى الآن . وهناك تجارب جديدة تجري الآن في بعض الحيوانات ونحن نترقب الظفر على مريض تتوافر فيه الشروط المطلوبة لاجراء هذه العملية له ولغواها : — استبدال قرص مربع من العتامة بقرص مربع شفاف من قرنية شفافة من ميت ، على أن يجري هذا الاستبدال بعد فترة قصيرة من الوفاة . اي حوالي نصف ساعة . وقد كانت العملية في بدء أمرها تجري بالاستبدال من حيوان الى انسان ثم تطورت من انسان الى انسان آخر ثم من ميت حديثاً الى الحي — ثم مازوته الأهرام وسنزيد هذا البحث وضوحاً في فرصة أخرى

***

﴿ الكهربائية البشرية في العين وسائر أعضاء العيون ﴾ كهربائية العين — «وهي مصدر قول الشعراء سحر العيون» — جاء في صددها في أحدث الانباء من اميركا ما يأتي : —

يعتقد ولتر مَيلِز Walter R. Miles الأستاذ في جامعة Yale ييل أن العين البشرية بطارية كهربائية مقدَّمها مشحون بكهربائية ايجابية ، ومؤخرها ، حيث توجد الشبكية ، مشحون بكهربائية سلبية . وأن الفرق بين طاقتي تينك الكهربائيتين يمكن اكتشافه وقياسه بلصق قطع رقيقة من الاوراق المعدنية على الجلد العلوي والسفلي للعين ثم وصل الأسلاك الكهربائية

بفولتمتر voltmeter اي مقياس الكهربائية الفلطائية وذلك بعد تقوية التيار في دائرة كهربائية في باطن صمام مفرغ من الهواء

ومتى تتحرك العين ، تحيء المجالات المشحونة بالشحنات الكهربائية المختلفة ، تحت القطبين الكهربائيين اللذين يوصلان بالعين فتتجلى ذبذبات التيار الكهربائي بنفسها على سناء المقياس

ومقدار الضوء الذي يسقط على العين ، عند قياس كهربائيتها ، يحدث فرقاً طفيفاً في النتيجة. وقد تختلف العين الواحدة عن اختها اختلافاً بيناً كاختلاف الورى بعضهم عن بعض. أما العاهات البصرية الصغرى فتحدث اختلافاً ضعيفاً

أما كون الحدقة نفسها ، لا العضلة المحدقة بها، هي مصدر التيار الكهربائي ، فقد ثبت ثبوتاً قاطعاً وذلك عند اعادة التجارب في الأشخاص العور . فاذا ما زالت الحدقة ، لا يتولد التيار الكهربائي ، بغض النظر عن محجر العين ، سواء أشاغراً كان أم مشغولاً بعين زجاجية

والدماغ مصدر لتلك القوة الكهربائية ، وفروعهُ التي تمدُّ بالالوف المؤلفة ، أي الاعصاب الدقيقة ، وهي بمنزلة اسلاك كهربائية معزولة ، تحمل التيارات من الدماغ الى اعضاء الجسد قاطبة « بيد ان تلك الاسلاك الدقيقة تختلف فعل بعضها عن بعض ، فمنها طائفة تسمى الاعصاب الحركة لانها تنقل النبضات الى العضلات ، وزمرة اخرى تنقل الاحساس بالألم من الجلد الى الدماغ وفي الجسم جماعة من الاعصاب تنقل نبضات الضوء ، واخرى تنقل النبضات التي تتولد من تموجات الهواء حول الاذان وهي ما يترجمهُ المخ ، بالصوت . ومن الاعصاب فرقة تنقل النبضات من اللسان ، ويسمى ذلك الفعل بالذوق . بل ان خلايا الاعصاب تحمل تيارات كهربائية . وقد تبين حديثاً ان كل خلية حية ، بطارية تخزين . وأن في وسع العلماء إحصاء طاقات هاتيك الخلايا وذلك بمقاييس «عدادات» كما تقدم القول اذن يثبت لنا ان للكهربائية شأناً جليلاً في التفاعلات الكيميائية التي تطرأ على النسج الحية

ولكهربائية الحياة مظهر آخر يتبين في ضرب من السمك ولاسيما في الرعاد البرازيلي وفي طواقع سمك القرموط والشلبة والبياض الافريقية التي تصيد فريساتها بصقعها برعداتها الكهربائية

وفي تلك الانواع الواح عظمية كهربائية تكُنّ شحنات ذات قوة تحفظ الابر وتحلل المركبات الكيميائية وتقذف الشرر — ومبعث تلك الظواهر جميعها محرك عصبي يمتد من مخ السمكة الى سائر بدنها . وقد تكفي طاقة التيار الكهربائي الذي يصدر من الورنك الذي يتفاوت طوله من قدمين الى ثلاث اقدام ، لوهن عزيمة رجل صنديد

وقد فصلنا ذلك كله في مقالنا على «العلم واحياء الموتى» في مقتطف ابريل سنة ١٩٣٥ وفي مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٦ وفي مقال «الكهربائية البشرية» في ديسمبر سنة ١٩٣٦

التصوير الفني

في القرآن الكريم

لسيد قطب

منذ نيف وثلاثة عشر قرناً، تم القرآن، وأصبح المرجع الأول للمسلمين في أمور دينهم ودنياهم. وفي خلال هذه الفترة الطويلة درس القرآن دراسة لا بأس بها من نواحي التشريع، واللغة، والتاريخ. ولكنه لم يدرس من الناحية الفنية دراسة حقيقية

نعم تناوله بعض الباحثين في البلاغة: وفي أولهم عبد القاهر والزمخشري، الأول في «اعجاز القرآن» والثاني في تفسيره «الكشاف». ولكن دراسة فنية كاملة، التي تتناول هذا الكتاب الكريم كسجل لأبدع أسلوب عربي، وتكشف عما حوى من الجمال التصويري، وتشرح خصائصه الفنية، ولوازم أسلوبه، وحيوية تعبيره، وروحانية اتجاهه، هذه الدراسة الواجبة، لم توجد حتى اليوم، ومن الواجب أن توجد في القريب. والذي يلوح غريباً في هذا، أن الناحية المهملة، هي الناحية التي نزل القرآن من أجلها فيزة القرآن الاولى هي اعجازه الفني، وعلى هذا الأساس واجه العرب، وبهذه القوة كانت فتوحه في الصحراء. ولكن لا غرابة في الحقيقة. فالبحوث الفنية ترف عقلي ونفسي لا يكون في طفولة الأمم، ولا في أوائل فتوحها. بل يجيء بعد أن تستكمل ضروراتها، وتستغني من حاجاتها وتشبع بيئتها، ثم تأخذ في الترف، وقد فرغت من مطالب الضرورة

فإذا هي عنيت بالنواحي الفنية قبل ذلك، فهي عناية المتعلم، أو عناية المتذوق، أو عناية المأخوذ ولن تكون عناية الناقد الذي يحلل ويعلل ويحتاج الى قدر لا بد منه من النضوج. لذلك عني العرب، وعني المسلمون بدراسة القرآن من وجهة التشريع أولاً، لأنه أهم عنصر من عناصر حياتهم اليومية. ثم عنوا بالنواحي اللغوية والتاريخية، وبعض النواحي الفنية، في أطوار متعاقبة من نموهم الطبيعي. ولعلنا اليوم قد صرنا الى المرحلة التي نتناول فيها القرآن الكريم ككتاب أدبي، ونظر فيه من الوجهة الفنية الحرة، ونتملى ما فيه من جمال روحي غير مقيد بقيود الضرورة، ونحلل ماحواه من مذاهب فنية (١)

---

(١) وجه الاستاذ الفاضل محرر المقتطف نظري الى ان التوراة والانجيل طبعا في أميركا ليدرسا دراسة أدبية بحتة. والقرآن بأسلوبه العربي أولى بهذا

جرّد القرآن — مؤقتاً — من قداسته الدينية ، وجرّده من انهُ كتاب تشريع ونظام حكم ، تجد فيه بعد هذا وذلك كتاباً أدبيًّا ، فيه فن ، وفيه جمال ، وفي كثير من أساليبه سحر خاص ، وخيال خصب . وطبيعي أنك لا تنتظر هذا السحر ، وهذا الخيال في كل آية وكل سورة ، لأن فيه ما هو تشريع ونظام حكم ، وفيه ما هو تاريخ وتسجيل ، وهذا وذاك ليس مستحسناً أن يكون فيهما سحر وخيال ، فانما يستمدان بلاغتهما من صفات أخرى . من الحكمة والسداد في النظم ، ومن الصدق والدقة في التاريخ . وفي القرآن صور فنية كاملة تحتاج تارة الى ريشة المصور الماهر ، تبرزها في مظهر خلاّب وتارة لقلم الروائي القدير ، يخرجها في قالب كامل

وهي في كلتا الحالتين تتطلب خيالاً قويًّا يتتبع صورها ويكمل اجزاءها التي حذفت عمارة كي تدع للخيال فرصة وفسحة يعمل فيها ويستشعر اللذة والجمال

وهذا التصوير الفني في القرآن أربعة أقسام :

صور فنية مجردة ، وقصص فني تتتابع فيه الصور وتتلاحق ، ونوع بينهما هو الحوار يجيل في القصة تارة ، وإلى الصور المجردة تارة ، وتعبيرات فنية عن حالات نفسية ، أو مناظر طبيعية ... الخ

١ — صور فنية

١ — « والذين كفروا بربهم . أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبهُ الظمآنُ ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد اللهَ عنده ، فوفاه حسابه والله سريعُ الحساب

« أو كظلمات في بحر لجيّ ، يغشاهُ موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحابٌ : ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »

هذه صورة فنية ساحرة ، فيها روح القصص ، وفيها خيال قوي ، وهي بعد في حاجة إلى ريشة مبدعة لابراز الظلمات ، في بحر لجيّ ، « يغشاهُ موجٌ ، من فوقه موجٌ ، من فوقه سحابٌ »

وفيها متعة للخيال يتتبع هذا الظمآن ، يسير وراء السراب ، « حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » ووجد مفاجأة عجيبة لا تخطر على البال ، « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » . ثم يتتبع الظلمات ويتخيل الرجل الضال فيها « إذا أخرج يده لم يكد يراها »

ولست في حاجة الى تطبيق هذا المثل على « الذين كفروا بربهم » وبيان صدق تصويره لحالتهم ، فذلك بحث ديني ، لا يعني الناقد الفني كثيراً ، فانما نريد من الدراسة الفنية أن تستقل بنفسها ، وألاّ تقع في الخلطة التي وقعت فيها الدراسات السالفة ، وحسبنا أن نوه عن الجمال الفني في الصورة ذاتها ، كتعبير أدبي مستقل

٢ — « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولهُ ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات

لا يبصرون. صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون . أو كصيّبٍ من السماء ، فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيطٌ بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير»

ها هنا صور متتابعة ، في كل منها خيال ، وبحال لعمل الخيال . ولا سيما تلك الصورة الفريدة: «كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا» بعد التمهيد لها بأنهم «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت». ولو سجلت الصور المتحركة منتظراً كهذا ، بما فيه من الحركة والتتابع ، لكانت موفقة جد التوفيق ، فكيف والمنظر هنا تسجله الألفاظ، فلا تفقد منه حركة واحدة، تستطيع الصور المتحركة إثباتها . لا بل تزها وتفضلها في أنها تدع متعة للخيال ، وهو يخلق الصور ويجوها ، ويكمل الحركات ويتبعها ، بينما الصور المتحركة تحرم الخيال نشاطه لأنها ترز المناظر كاملة للعين ، فلا يكون فيها من الجمال ، إلا ما جاءها من آلي

٣ — ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون . إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، مهطعين ، مقنعي رءوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء »

إني لأميل لترديد هذه الآية ، واستحضار تلك الصورة ، وهي صورة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام : «مهطعين . مقنعي رءوسهم . لا يرتد إليهم طرفهم . وأفئدتهم هواء »

أربع صور متتابعة متواكبة ، أو أربعة أجزاء في صورة واحدة ، وإن فيها لغذاء للخيال الخصب ، وإن فيها لمتعة فنية رائعة

٤ — وتقرب من هذه في الروعة ، وتزيد عليها في قسوة الفزع : «إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد »

وعلى الرغم من العنف في تصوير الهول هنا ، وعلى الرغم من الجمال الذي لا شك فيه في هذا التصوير، فان الصورة السابقة أجمل وأسحر ، وأدخل في المعاني الشعرية والصور الفنية

والفرق بينهما، هو الفرق بين صورة الخائف تضطرب أوصاله ، وترتجف أعضاؤه ، وصورة الخائف لا يترك له الفزع قدرة على اضطراب الأوصال وارتجاف الأعضاء

والفرق بينهما أن الثانية مجرد تصوير للفزع المذهل، بينما تزيد الأولى معاني الطاعة الذليلة الذاهلة «مهطعين مقنعي رءوسهم» ومعاني الرهبة الصامتة الواجفة «لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء »

٥ — ومن هذا النحو قوله في يوم الحشر : « لكلّ امرئ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه »

فما يوجد أحصر من هذا ، ولا أدق ، في بيان اشتغال القلب والفكر ، بالهم الحاضر القاهر حتى لا موضع لسواه ، ولا التفات لغيره في هذا الزحام

٦ — ومن الصور الخيفة الصاخبة : « هذان خصمان اختصموا في ربهم . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق »

والروح الفنية تهبط في هذه عن سابقتيها معاً ، ولكنها ترتفع فتكاد توازيهما عند « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » لأن الصورة هنا تحيا وتتحرك ، فتغذي الخيال

٧ — وهناك صور أقل فنية من هذه المثل جميعاً ، لأنها موكلة بالخيال الساذج ، وذات وجه واحد ، أو حركة واحدة ، يستجليها الخيال في لمحة واحدة . ومثال ذلك

« القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش »

أو « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب» . أو « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميماً » . وفي هذا المثال الاخير ارتفاع عند : « ولا يسأل حميم حميماً » يمت بصلة إلى « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » ولكنه لا يبلغ مبلغه من الناحية الفنية

وفيها عدا هذا ، : منظر واحد تعرضه كل آية ، لا يجوح الخيال إلى اكثر من لمحة واحدة وهذا هو الفارق بين المثل الأخير والأمثلة الأولى المركبة المتحركة

٢ — قصص فني

في القرآن قصص كثير ، وهو تارة قصص تاريخي ، وتارة قصص تمثيلي ، (لتمثيل حالة ولو لم تقع) وتارة يصلح لهذا ويصلح لذاك [1] ومن أمثلة القسم الاول: قصص ابرهيم وموسى وعيسى ونوح ، وقصص عاد وثمود ومدين.. الخ ومن امثلة القسم الثاني : قصة الرجلين « جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ... الخ » في سورة الكهف

ومن أمثلة القسم الثالث : قصة ابليس وآدم ، وقصة ابني آدم

على أن أكمل ما يمثل به للقصص الفني في القرآن ، هو قصة مريم ، وذلك رغم أن قصة يوسف مثلاً أطول وأكثر مناظر . ولكن الأولى أحيا وأدخل في الحكة الروائية ، وفيها مجال أوسع لشتى الانفعالات النفسية ، وهي تحتوي مشاهد مدهشة لرواية « سينمائية » تتخللها فجوات تترك للخيال الخصب مجالاً متسعاً للتصور وتكملة الحلقات المحذوفة بمهارة عجيبة

وتبدأ القصة هكذا : « واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سويا ، قالت : إني أعوذ بالرحمن

(١) يتسع هذا الموضوع لبحث مطول خاص بالقصة في القرآن

منك إن كنت تقيا» وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة العذراء ، الطيبة القلب ، وهي من أسرة صالحة ذات تقاليد ، عارية أو شبه عارية ، يفجؤها رجل . . . وهذا هو الشعر الأول من القصة

« قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ! قالت : أنى يكون لي غلام ، ولم يمسسني بشرٌ ولم أك بغيا ؟ »

ثم ليتمثل الخيال مرة اخرى مقدار الفزع والخجل الذي يعتور هذه الفتاة ، وذلك الرجل الغريب يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو انهُ يريد ان يهب لها « غلاماً » . ثم تدركها شجاعة الأنثى تدافع عن عرضها : «أنى يكون لي غلامٌ ، ولم يمسسني بشرٌ ، ولم أك بغيا» هكذا صراحة ! وبالالفاظ المكشوفة ، فهي والرجل في خلوة ، والغرض من مباغتته لها قد صار واضحاً وما يخفف من وقعه أن يقول لها : « إنما أنا رسول ربك » فهي جديرة أن تكذب هذا القول ، الذي لا يقوم عليه دليل لديها ، وأن تعتصم بالشجاعة والصراحة ، فالحياء لا يجدي في مثل هذه الاحوال ، ومن هنا كانت صراحتها في ألفاظ ردها ، بل فجتها

« قال : كذلك قال ربك : هو عليَّ هيِّنٌ ، ولنجعله آيةً للناس ، ورحمةً منا ، وكان أمراً مقضيا » !

ثم ماذا ؟ هنا تجد في القصة فجوة فنية كبيرة ، تدع لخيالك أن ينطلق ، وان يتصور عشرات الصور والأوضاع ، التي تناسب ما أنكس في نفسك من المواقف الأولى

ثم تمضي قصتنا في طريقها بعد هذه الفجوة العميقة :

«فحملتهُ ، فانتبذت به مكاناً قصيا ، فأجاءها المخاض الى جذع النخلة ، قالت : يا ليتني متُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسيا » . يا ألله . يا للمسكينة !

لئن كانت في الموقف الأول تواجه الأخلاق والحصانة ، بينها وبين نفسها ، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع ، وهي الآن تواجه الألم الجسمي الحاد ، ممثلهُ في دقة «فأجاءها المخاض» بجانب ما تتوقعهُ من الفضيحة ، وبجانب هذا كله حيرة العذراء في أول مخاض وهي وحيدة جاهلة بكل مايتعلق بهذه الناحية من تحضير وتدبير

كل أولئك يجتمع على فتاة ، لم تك بغيا ، كما قالت هي بحق . فأي هول ، وأي ألم ، وأي عذاب ، يتمثل في قولتها : « ياليتني متُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسيًّا »

« فناداها من تحتها ألاَّ تحزني ، قد جعل ربك تحتك سريًّا ، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيًّا ، فكلي واشربي وقرّي عيناً ، فإمَّا ترين من البشر احداً ، فقولي : اني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًّا »

وسواء كان « عيسى » هو الذي ناداها ، أو كان الروح الامين ، أو كان ذلك هاجساً

مجس في ضميرها ، فحسبته طيفاً مسموعاً ... (وهو مايقع كثيراً للانسان في مثل هذه الحالات التي يغفل فيها العقل الواعي ، فيتنبه العقل الباطن ويتصرف). سواء كان هذا أو ذاك أو ذلك لقد هدأ من روعها ، وطمأن قليلاً من رجفتها ، وأعادها الى التفكير العملي في مواجهة الموقف

وهذا التحليل لم تذكره القصة ، لأنها تركت للخيال تكملة المقال

ثم يحس بفجوة صغيرة بين هذا الحديث ، وبين ذهابها الى القرية ، فلا تدري كم مرّ من الزمان ، ولا كم تتابع من الافكار . وبعدها

« فأتت به قومها تحمله ! قالوا : يامريم ، لقد جئت شيئاً فريًّا ، يا أخت هرون ! ماكان أبوك امرأ سوء ، وماكانت أمك بغيًّا »

وهنا يعود للقصة عنفها ، وللموقف رجفته . فها هي ذي تواجه قومها بطفل . وهاهم أولاء لا يقتصدون في تهمتها ، والتهكم بها ، وتذكيرها بخروجها على تقاليد أسرتها « يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء ، وماكانت أمك بغيا »

فيا لها من مسكينة !

« فأشارت إليه ! قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبيا » ؟

ولعل التهكم الذي بدا في حركتهم ونظراتهم ، حين أشارت إليه أضعف ما حملته ألفاظهم واستنكارهم « كيف نكلم من كان في المهد صبيا ؟ »

وإن المسكينة لتحتمل الموقف ، وتواجه التهكم ، وإنك لتسمعها من وراء سطور القصة ، تردد مرة ومرة : « يا ليتني مت قبل هذا ، وكنت نسياً منسيا »

وما أنقذها من هذا الهول ، إلا أن :

« قال : إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبيًّا ، وجعلني مباركاً أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيًّا ، وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيًّا ، والسلام عليّ يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيًّا »

وهنا يسدل الستار على ذلك الموقف الرهيب العجيب ، والأفئدة ترجف في الصدور ، والأعين تدمع للانتصار ، والأيدي تدوي بالتصفيق

وفي هذا الوقت تسمع في لهجة التقرير ، في أنسب فرصة للاقناع والاقتناع :

« ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ماكان لله ان يتخذ من ولد ، سبحانه . إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون »

إنها قصة فنية ، ذات مناظر مشوقة ، وفيها متعة للذهن والخيال ، ومجال للتحليل النفسي ، والنظرات الفلسفية

[البقية في العدد القادم]

مقتطفات فلكية

سر البقعة الحمراء

على سطح المشتري

حرارة الشمس آخذة في الارتفاع

المشتري أكبر السيارات التابعة للنظام الشمسي . سماهُ العرب بهذا الاسم لأنهُ اشترى احسن لبنيه كما قالوا . ويسمي الرومانيون هذا السيَّار باسم « جوبتر » وهو اسم كبير آلهة الرومان يقابله زفس عند اليونان قبلهم ومردوخ عند البابليين والاشوريين . ولعلهم سمُّوهُ بهذا الاسم تشبيهاً لهُ بكبير آلهتهم او لأنهم حسبوهُ أنيق الاماكن بمكنى كبير آلهتهم فسمُّوهُ باسمهِ

وليس همُّنا في هذا المقال ان نصف المشتري من حيث هو كوكب سيَّار وصفاً عامًّا ، وانما همُّنا ان ننظر نظرة خاصة في البقعة الحمراء التي تعلو سطحهُ والرأي الحديث في تفسير سرِّها بعد ان اختلفت الآراء في ذلك

كتب العالم الفلكي موريل Morel في مجلة « اباء لندن المصوَّرة » مقالاً في هذا الموضوع ، قال فيهِ ان قوام المشتري كتلة مركزية من الصخر او المعدن قطرها ٤٤ الف ميل يحيط بها طبقة كثيفة من الجمد ثخانتها ١٦ الف ميل ثم طبقة جوية كثيرة الغيم ثخانتها ستة آلاف ميل . والبقعة الحمراء شاسعة المساحة طولها نحو ٣٠ الف ميل وعرضها نحو سبعة آلاف ميل فمساحتها تعدل مساحة قارات الارض ومحيطاتها مجتمعة . وهي في رأيهِ تمثل حادثاً كونيًّا خطيراً اصيب بهِ المشتري في الزمن الغابر قد يكون قبل قرنين او ثلاثة قرون . وهنا يخطر لنا : اذا اصيب المشتري من قرنين او ثلاثة قرون بحادث اصطدام خطير ترك فيهِ هذا الأثر ، أفلا يجوز ان يقع للارض ما وقع للمشتري ؟ والجواب ان ما وقع للمشتري — اذا صحَّ هذا الرأي — يجوز ان يقع للارض . ولكن دع عنك التأمل في مصيرنا جانباً وهلمَّ بنا ننظر في هذه البقعة الحمراء وسرِّها

ان علماء الفلك يعلمون انهُ جاء وقت لم يكن فيهِ أثر للبقعة الحمراء على سطح المشتري . وفي ١٩ مايو سنة ١٦٦٤ رآها الفلكي هوك (وهو من معاصري نيوتن) . ومن ثمَّ اكبَّ العلماء على دراستها دراسة مدققة مفصلة رصداً وحساباً . فأسفرت هذه الدراسة عن ان البقعة الحمراء

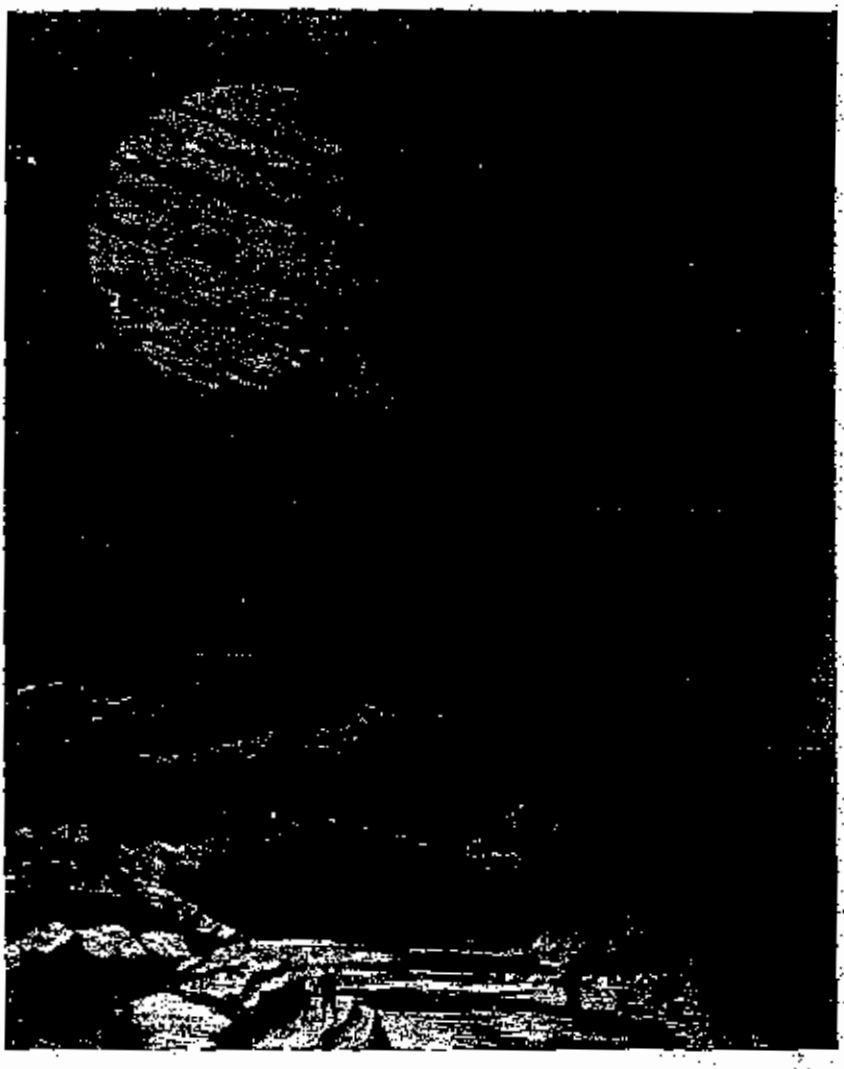

صورة تخيلية تمثل اصطداماً بين المشتري ومذنب احدث « البقعة الحمراء »
على سطح المشتري بحسب رأي الفلكي موربل . نقلاً عن مجلة «انباء لندن المصورة»

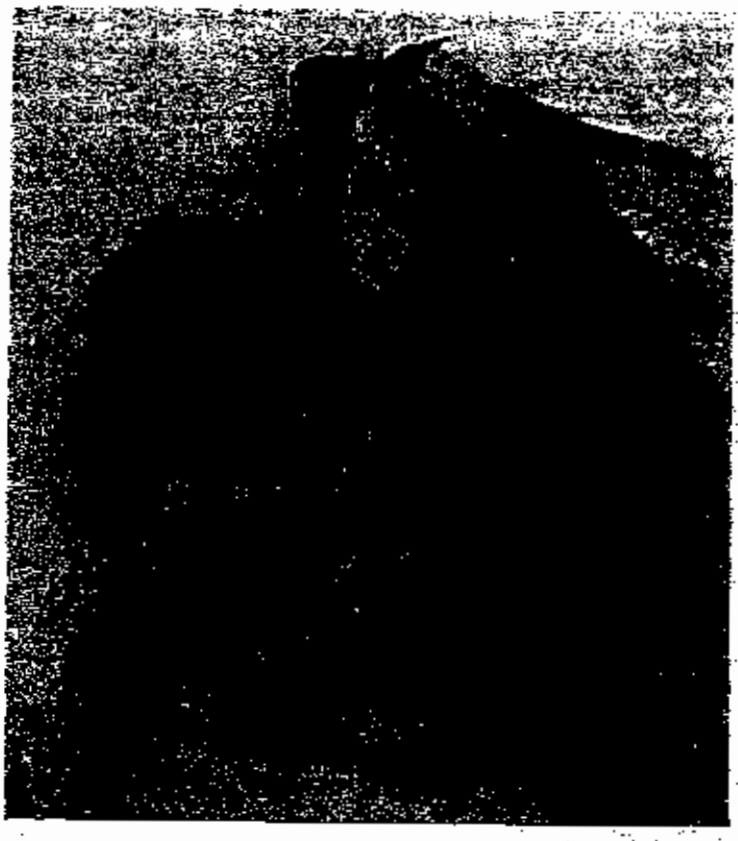

صورة متخيلة لعبد الرحمن الداخل منقولة عن كتاب أسباني «تاريخ العرب في أسبانيا» تأليف كونديه (الترجمة الانكليزية)

ليست مستقرَّة في مكان ثابت على سطح المشتري وانها تسير بسرعة متفاوتة بالقياس الى مناطق الجو والتيارات التي على سطح الكوكب نفسه فيه تم لاحظوا ان منطقة من مناطق التيارات العنيفة على سطح المشتري — وهي التي تعرف باسم الاضطراب الاستوائي الجنوبي South Tropical Disturbance — تمر كالاعصار بسرعة ١٦ ميلاً في الساعة امام البقعة الحمراء من دون ان تؤثر في قوامها . فقالوا ان مادة البقعة يجب ان تكون متصفة بخواص عجيبة تمكنها من الاحتفاظ بقوامها

وكان الرأي قبل بضع سنين انها قارة على سطح المريخ في دور التكوين والتجمد ، فكأنها جزيرة متجمدة طافية في منطقة نصف مصهورة . وهو تفسير بارع سهل ولكنهُ لم يتفق والحقائق الفلكية والرياضية المعروفة . وقد زاد سرُّ هذه البقعة غموضاً وتعقداً في العهد الاخير منذ أخذ فريق من علماء الفلك كجينز الانكليزي ورسل الاميركي بان قوام المريخ ليس كما كان يظن كتلة حامية يحيط بها غشاء كثيف مخين من الغيوم تحدث فيه اعاصير وانفجارات بل هو في رأيهم كما قدمنا من قول موريل كتلة صلبة جامدة باردة

والحسابات الرياضية القائمة على ما يعرف من حرارة سطح الطبقة الغيمية التي تحيط بالمشتري ومعدل كثافة موادها — وهي ترب في ثقلها النوعي الى الجمد منها الى الحديد او الانازت — حملت العلماء على القول بان داخل المشتري كتلة صلبة من مواد كثيفة وانهُ يحيط بها غلاف تخانتهُ ١٦ الف ميل من الجمد ١٥٥ ويحيط بهذا الغلاف جو مثقل بالغيوم تخانتهُ ستة آلاف ميل. ومن الطبيعي ان تكون الطبقات السفلى في جوهِ هذه تخانتهُ شديدة الكثافة لشدة الضغط الواقع عليها . فاذا اجتمع الضغط الشديد والبرد الشديد سالت بعض الغازات كالأيدروجين وبقي بعضها غازيًّا فتكون نتيجة ذلك ان نجد مقادير من العناصر السائلة طافية على العناصر الغازية . وهذا يفسر الاضطراب الدائم المشاهد في المشتري حتى لقد وصفهُ بعضهم بقولهِ انهُ دائماً في حالة مخاض

هذا الرأي الجديد يفسر ما يصاب بهِ المشتري من الاعاصير الشديدة تثور وتتحرك ثم تزول ويتلوها غيرها. الاَّ ان البقعة الحمراء ليست من هذا القبيل . بل ان وجودها من المصاعب التي ماتفتت تحول دون قبول هذا الرأي الجديد القائل بان المشتري كوكب متجمد . كان أسهل على العلماء ان يقولوا انها شقٌّ في جسم نصف مصهور . اما ان يقولوا انها شقٌّ في طبقة من الجمد تخانتها ١٦ الف ميل فمتعذر . ثم ان احتفاظها بقوامها من دون تغير يصيبهُ مدة ٢٧٤ سنة يحول دون التسليم بانها اضطراب جوّي

الغموض يحيط بنشأتها وثبوتها . واذا اخذنا برأي جينز ورسل في ان المشتري كتلة متجمدة غدونا ونحن لا نجد حلاًّ لنشأة « البقعة الحمراء » الاَّ بان تكون اثراً لاصطدام بين المريخ وجسم سماوي آخر . وقد يكون هذا الاصطدام بين المشتري وأحد المذنبات

(انظر الصورة التي امام هذه المقالة) بين المشتري وإحدى النجيمات Asteroids التي اقتربت من المشتري حتى اصبحت على قرب وافر منهُ فجذبها اليهِ فسقطت على سطحهِ وهذا يفسّر مساحة البقعة الحمراء واحتفاظها بتوامها

والرأي الغالب عند موريل ان احتمال نشوء البقعة الحمراء عن اصطدام احدى النجيمات بالمشتري اكبر من احتمال حدوثها باصطدام احد المذنبات بهِ . ولا يخفى على القرّاء ان النجيمات في عرف علماء الفلك نار سيّار تفتتت وهي واقعة بين فلك المريخ وفلك المشتري ولكثير منها افلاك شاذّة ، وقصة اكتشاف اولاها ثم تعدُّد المكتشف منها حتى ليُحصى بالآلاف من اروع القصص الفلكية . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان بعض العلماء يظنُّ ان اربعة من اقمار المشتري الصغيرة لم تنشأ كما نشأ قمر الارض او اقمار المشتري الاخرى بل اصلها نجيمات اقتربت من المشتري فجذبت اليهِ واخذت تدور حولهُ مع اقمارهِ الاصلية . ثم هناك للمشتري قمر آخر صغير لا يزيد قطرهُ على ١٦٠ ميلاً يدور حول المشتري على ٦٨ الف ميل من سطحهِ وهي مسافة قصيرة بالقياس الى الابعاد الفلكية ، ولذلك لا يستحيل ان يحدث ما يدخل هذا القمر في منطقة الخطر فاما ان يتفتت كما تفتت بعض اقمار زحل فاصبحت حلقات واما ان يجذب الى سطح المشتري فيكون جذبهُ واثرهُ مثلاً حادثاً على نشوء « بقعة المشتري الحمراء »

***

هل حرارة الشمس

آخذة في الازدياد ؟

يذهب الدكتور جورج جامو George Gamow استاذ الطبيعة النظرية بجامعة جورج وشنطن الاميركية الى ان حرارة الشمس آخذة في الازدياد ، وانها ستبلغ مبلغاً من الحرارة تذوب فيهِ الارض ومن عليها — او بالحرى تبخر — كما تذوب قطعة من الجمد في فرن حامٍ . الاّ ان الزمن الذي ينتظر ان تبلغ فيهِ الشمس هذه الدرجة من الحرارة بعيد جدًّا وحالة الارض الجوية لن تتأثر بهذه الزيادة قبل انقضاء بضعة ملايين من السنين

هذا الرأي الجديد ، توصل اليهِ الاستاذ جامو من نظرية جديدة ابتدعها لتفسير مصدر الحرارة في الشمس وهي نظرية تقلب معظم ما يقال عن نقصان طاقة الشمس وفقد حرارتها رأساً على عقب . وعند هذا الباحث ان اكثر المصادر احتمالاً لتوليد حرارة الشمس هو فعل تولُّد الهليوم من الايدروجين في قلب الشمس حيث الضغط والحرارة على درجة عظيمة من الارتفاع ونحن نعلم ان تحويل الايدروجين الى هليوم على سطح الارض يتمُّ باطلاق ذرات الايدروجين

على عناصر اخرى بسرعة وطاقة عظيمتين . اما في قلب الشمس فحرارتها العالية البالغة ٢٠ مليون درجة مئوية تحلّ محلّ الطاقة الكهربائية العظيمة التي تطلق بها ذرات الايدروجين في المعامل على الارض

والحرارة تتوقف على حركة الذرات والجزيئات ، فاذا ازدادت سرعتها في حركتها ارتفعت حرارتها واذا كانت الحرارة نحو ٢٠ مليون درجة مئوية فهذه الدقائق تتطلق متحركة بسرعة تقرب من سرعة الضوء . فاذا اصطدمت ذرتان من الايدروجين وهما سائرتان بهذه السرعة لصقت احداهما بالاخرى او اندمجت فيها فينشأ من ذلك ذرة هليوم ووزنها كما لا يخفى مجموع وزن ذرتين من الايدروجين الا قليلاً جداً . اي انهُ عند ما تندمج ذرتان من الايدروجين لتوليد ذرة من الهليوم يضيع مقدار صغير جداً من كتلة ذرتي الايدروجين . فأين يذهب ؟ والرأي ان هذا القدر من الكتلة يتحوّل حرارة بقوة الاصطدام العنيف . وكلما زادت سرعة التحوّل من ايدروجين الى هليوم زادت حرارة الشمس وبازدياد حرارة الشمس تزداد سرعة التحوّل وبذلك تمضي الشمس في زيادة حرارتها كأنها تسير في دائرة

ولم يكتف الدكتور جامو بدراسة تولد الهليوم من اصطدام ذرات الايدروجين بعضها ببعض بل عمل حساباً لتولدها من اصطدام ذرات الهليوم بالليثيوم وغيره من العناصر وفي جميع هذه الحالات تتولد ذرات هليوم ويتحوّل مقدار يسير من الكتلة الى حرارة

ويرى الدكتور جامو ان في الشمس من المواد الكافية لتوليد الحرارة مئة مليون مليون سنة . أما ما يحدث للشمس بعد ذلك فليس لنا ان نفكر فيه الآن

وقد كانت الشمس في بدئها — بحسب رأيه — كتلة من غاز الايدروجين . فتحوّل جانب من هذا الغاز الى الهليوم بالطريقة المتقدمة خلال ثلاثة آلاف او اربعة آلاف مليون سنة بحيث لا يجد من الايدروجين في كتلة الشمس الآن اكثر من ٦٠ في المائة منها . والقول الأخير مؤيد بالبحث الطيفي . وبنقص مقدار الايدروجين في النجم يزداد النجم تألقاً الى ان ينفد الايدروجين ثم يبدأ النجم في التقلص فيصبح كثيفاً ويقل اشراقهُ . والنجوم الصغيرة الحجم الكثيفة المادة الضعيفة الاشراق معروفة لعلماء الفلك الحديث وهم يطلقون عليها اسم « الاقزام البيض » وهي تتصف عادة بصغر الحجم وارتفاع حرارة السطح وقلة الضياء واول نجم كشف من هذا القبيل هو النجم المعروف باسم « رفيق الشعرى » . فكثافة مادته تزيد مائتي الف ضعف على كثافة الماء . وهناك نجم آخر من هذا القبيل تزيد كثافته على كثافة الماء سبعة ملايين ضعف . ولا تزال « الاقزام البيض » تشع اشعاعاً ضعيفاً وبه نراها ولولاهُ لما رؤيت . فهي في المراتب الأخيرة من حياتها الاشعاعية قبل ان تتحوّل اجراماً مظلمة . وهذا هو مصير شمسنا بعد ان يتحوّل كل مافيها من الايدروجين الى هليوم

بكر

لعمر ابو ريشة

أفقتِ مع الحُلُم السفر على فمٍ شاردٍ مكرِ
تدفَّقَ يسكب في قلبك السطريّ ربيعَ الحياة الطري
فألفيتِ دنياك غير التي درجت عليها ... ولم تشعري
مفانٍ ريّا الجنان الحييّ مجنَّحة بالهوى المبكرِ
وأنت عليها انقلات الحبيس من الطيب في البرعم الأخضرِ

***

رويدك لا ترحمي بالرؤى خيالك يا عفَّة المئزرِ
أنا حفنة من رماد المنى على بحر الزمن الأزورِ
هويتكِ في غصة المؤمنين الى جرعة من فم الكوثرِ
وفوق جفوني عصاب الذهول فلم أتبصر ولم أبصرِ
ظلمتُك ظلم انهيار الجبال على يقظة الشاعر العبقري
دعيني طروباً أزجي الخطى على مخصب الوهم والمقفرِ

[نقلا عن مجلة الجمهور البيروتية]

عالم الروح

والعلم الحديث[1]

للاستاذ فهمي أبو الخير

﴿ تعليمات مخصوص عقد الجلسات ﴾ عند ما يكون التواصل ملائماً ومرضيًا يسأل الروح المتكلم هل كان الحاضرون مرتبين في جلوسهم ترتيباً صحيحاً . فاذا لم يكونوا كذلك فما هو الترتيب الواجب اتباعه . بعد هذا يسأل الروح من هو . وأي الموجودين هو الوسيط . وما الى ذلك . فاذا حدث اضطراب او اختلال فسبب ذلك يرجع الى تسرع توجيه الحركة في مبدأ الامر التوجيه الصحيح . وعلاج ذلك الصبر والاناة

واذا رؤي ميل الى ابداء الظواهر بوسائل عنيفة ، أو الى ايقاع الوسيط في الغيبوبة فليطلب الى الروح أن يؤجل هذا الى ان يحضر احد الروحيين المدربين . فاذا لم يلتفت الى هذا الطلب يحسن ايقاف الجلسة . فعملية تدريب وسيط الغيبوبة تكون احياناً عملية مخيفة لاملل الباحث غير المدرب

واختبر النتائج التي تحصل عليها بالحجة والبرهان السليم ، واحتفظ لنفسك بالعقل الراجح والمنطق الصحيح ، ولا تصدق كل ما يقال لك ، لأن العالم الكبير غير المتطور يضم عدا الكثيرين من أهل الحجا والعقل مجموعة من أهل الحمق والجهل والغرور — وأولاء أقرب الى سطحنا من العقلاء الأخيار . ولا تثق بالاسماء الضخمة اذا ذكرت لك عالم تكن مستوثقاً منها . ولا تتوان لحظة عن اعمال الفكر ووزن الأمور بالعقل . وحذار ان تدخل في بحث خطير مع روح فضولي أو سخيف . وتم في نفسك الرغبة في كل ما هو تقي طيب صادق . وسوف تتقدم بسرعة في هذا السبيل اذا انت اقتنعت تماماً اقتناعاً سببياً بأن هناك بعد الموت حياة أخرى ، وان خير طريقة لأن يعد الانسان نفسه لهذه الحياة هي أن تكون حياته هنا قبل الموت حياة طيبة طاهرة نقية

ويزيد على ذلك العلامة الروحي دلاس H. A. Dallas ما يأتي : —

---

(١) بقية ما نشر في العدد الماضي من المحاضرة التي القيت في القاعة الشرقية بالجامعة الاميركية

(١) لا تكثر من عمل التجارب . وليكن ذلك بمعدل مرتين في الاسبوع على الاكثر ، على ألا يكون في أيام متتالية

(٢) وكقاعدة عامة حذار أن تقبل على اجراء التجارب وأنت في غير صحة جيدة ، أو كنت متعب الجسم منهوك القوى ، وعلى الاخص اذا كان المجموع العصبي مضطرباً . فلا يمكن أن يرجى تقدم روحي ما لم يكن المجموع العصبي سليماً والمخ متزناً هادئاً

(٣) حذار أن تجري التجارب عرضاً . حدد يوماً وساعة ، وليكن لكل تجربة وقت معين محدود — هو ساعة في العادة — واحتفظ بهذا التحديد وأصر عليه

(٤) واذا طلب اليك الحراس ، وهم الارواح المهيمنون ، أن توقف الجلسة فأوقفها على الفور ، فان في اطالة التجارب بعد أن يعلن الارواح المهيمنون انهاءها عمل غير مجد ، لان القوة الروحية لا يوجهها عندئذٍ اولئك الذين برهنوا على أنهم مهيمنون قادرون ، بل قد تستخدمها أرواح غير مسئولة ، وقد تكون خيبة شريرة ، ما دامت فرصة التواصل تكون لا تزال سانحة

(٥) حذار من اجراء التجارب في الاماكن العامة التي يغشاها مختلف الناس حيث تكون التأثيرات مختلطة . وهذا فيما عدا تجارب الجلاء البصري والسمعي — أي رؤية غير المنظور وسماع غير المسموع — فالوسيط عندئذٍ لا يكون في حالة النيوبة ، ثم هو يرى ويخاطب الارواح التي تريد مخاطبة بعض الحاضرين . وقد يلغ الحاضرون الوفاً كما يحدث في الاجتماعات في قاعة البرت هول الملكية باكنترا

(٦) لا تلتحق بدائرة ما لم تعرف شيئاً عن أخلاق اعضائها

(٧) ابدأ كل تجربة بروح خالصة راغبة في حماية الله وهدايته وارشاده ، واجتهد دائماً أن تحتفظ بعقلك هادئاً رزيناً

(٨) حاول أن تعرف أي الارواح الحارسة المرشدة اكثر ارتباطاً بك من غيرها ، وسلها حمايتك ومساعدتك . فهؤلاء يصدون عنك الارواح غير المرغوب فيها والتي قد تتدخل دون استدعاء . وأولاء المساعدون قد يشيرون عليك بما يرون من تفصيلات ، كأن يخبروك مثلاً عن الأشخاص الذين تدعوهم الى دائرتك ، وعن عدد مرات هذه الاجتماعات وما إلى ذلك

﴿حجرة التحضير الحريتة﴾ هي حجرة مبنية بالطوب . مربعة الشكل . طول ضلعها ثمان ياردات وارتفاعها أربع ياردات . صفت في وسطها كراسي تسجل وزن الجالس ابتداءً من جلوسه الى قيامه بطريقة الباروجراف

وفي وسط السقف هزاز كهربائي يهز جو الحجرة باستمرار وبه يمكن الاستغناء عن الفونوغراف . وبجوار هذا الهزاز فتحة ركبت عليها آلة فونوغرافية . وفي ركنين من الحجرة

توجد آلتان أخريان للتصوير السينماتوغرافي تلتقطان باستمرار صوراً طيلة الجلسة

وتوجد على الحائطين آلتان تبعثان بأشعة الضوء تحت الاحمر لتشغيل آلات التصوير الثلاث هذه

وتوجد على الحائطين الآخرين آلتين الفوتوغرافيتين آلة ثالثة يليها ضوء فوق البنفسجي . ولا تأثر لوحات هذه الآلة بالاشعة تحت الحمراء . وتستعمل لتصوير كل ما يمكن للضوء البنفسجي التقاطه . وعلى الاخص انبناء الاكتوبلازمي

وفي الركن الثالث توجد آلة لتسجيل الصوت تسجل كل ما يدور من أحاديث خلال الجلسة

أما الثرموجراف الموجود في الركن الرابع فلتسجيل درجة الحرارة . ففي أثناء الجلسة تنخفض درجة الحرارة مع أن الواجب ان ترتفع بسبب حرارة الموجودين . ولذلك وضعت أنبوبة للتسخين لا ينبعث منها ضوء البتة . وتثبت درجة الحرارة عند درجة ٦٠ على مقياس فهرنهيت ما أقدم حدوث الظواهر الروحية . فاذا حدثت الظواهر انخفضت الدرجة الى ٤٠ ولعل العلماء العلميين يستطيعون تعليل الظاهرة وتفسيرها . ذلك الاختصار هو وصف حجرة التحضير الحديثة

﴿ عالم الارواح ما هو ؟ ﴾ بعد ان تم الاتصال بالعالم الروحي او العالم الاثيري أمكن الاستفسار عن حقيقته من العلماء المتبحرين فيه . وما سأذكره من المعلومات خلاصة ما نقل عنهم

يتألف عالم الروح من سبعة مستويات . أو سبع كرات متحدة المركز ، الذي هو مركز أرضنا . وهذه الكرات الاثيرية السبع مع الكرة الارضية الثامنة متداخلة بعضها في بعض ، وتمتد في الفضاء الى ابعاد شاسعة ، وليست هناك مسافة بين السطوح بالمعنى الذي نفهمه ، وانما هي أشبه شيء بالمسافة الموسيقية أي درجة اهتزاز

وتحدث أرضنا في الثانية الواحدة من ٣٤٠٠٠ الى ٦٤٠٠٠ موجة اهتزازية ، نحس بها نحن الكائنات الفيزيقية . ولكل سطح او لكل كرة مجال اهتزاز خاص بها لا يحس به الا المتزنون مع اهتزازاته . ويلي كل مجال تاليه في زيادة السرعة الاهتزازية . وعلى ذلك فأعلى الاهتزازات الارضية درجة تمس أقل اهتزازات السطح الثاني أو الكرة الثانية درجة وهكذا

وتتلقى كل كرة ضوءها وحرارتها من شمس اثيرية متحدة مع شمسنا في المركز . فالشمس كالعالم الاثيري مكونة من ثمان كرات أي ثمان شموس . شمسنا إحداها . وكل سطح من هذه السطوح الشمسية الاثيرية يمتزج امتزاجاً مع السطح المقابل في السطوح المحيطة بأرضنا ليمده بالضوء والحرارة . ولكل سطح في العالم الأثيري جو محيط به يؤثر فيه كما يؤثر جونا فينا ، إلا أن أحوال المناخ هناك أكثر اعتدالاً . وهناك تتغير الفصول أيضاً ، وانما في السطوح الثلاثة الأولى التي تعلو سطح الارض درجة اهتزاز ، وابتداء من السطح الرابع فما فوق تختفي التغيرات المناخية تماماً . ولا يوجد ليل فوق أي سطح من السطوح بل يوجد شفق . والالوان هناك أجمل كثيراً

منها في عالمنا ، وأكثر تنوعاً وتلألؤاً ، ولذا كانت أنظر هناك أجمل منها هنا لدينا

وحسبي هذا القدر من التفصيل هنا ومن رغب زيادة في التفصيل فليقرأ التعقيب الذي عقبت به على ترجمتي العربية لكتاب « على حافة العالم الاثيري » لمؤلفه العلامة فندلاي رئيس المعهد الدولي للبحث الروحي بلندن . على ان هناك حقائق تجب علينا معرفتها ، ضمنها العلامة فندلاي الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب(١)

﴿ العلاج الروحي ﴾ بقيت كلمة لا بد منها عن العلاج الروحي ، وأرجو ان أوفق لبسطه في محاضرة أخرى . هذا العلاج بعيد كل البعد عن الشعوذة والدجل لانه مبني في الواقع على أحدث طرق العلاج ، ونعني بها طرق العلاج بالاشعاع

ان الكون في الواقع مملوء باشعاعات كثيرة لم نوفق نحن الا الى كشف جزء ضئيل منها . وقد تحدث علماء العالم الروحي عن هذه الاشعاعات ذاكرين أنها تحف سكان الارض لم تستكشفها بعد

فالاطباء المقيمون في عالم الروح بتسليطهم هذه الاشعة النفاذة قد استطاعوا ابراء كثير من الامراض المستعصية ، وفي مقدمتها السرطان . ولا يخفى ان احدث علاج للسرطان هو العلاج باشعة الراديوم ، ولكن هذه قد أخفقت في حالات كثيرة ، وعلى الأخص حالة سرطان المخ .

فالمريض يحضر في الجلسة التي يعمل فيها الوسيط المعالج وقد غشيته الغيبوبة ، وبمعاونة مساعدين ذوي قوة روحية ، ولكن في غير غيبوبة ، يتم العلاج بالمس والتدليك يقوم بهما الوسيط أو مساعدوه . وتشخيص المرض لازم لاتقان العلاج . وفي الحالات الخطيرة يدفع المريض الى النوم الطبيعي الاثيري الذي يعمل بطريق الوسيط ، فلا يشعر المريض من ثم بأي ألم . وقد يبرء من المرض ألوف باستخدام الاشعة الروحية التي تسلط على الجسم الاثيري للمريض لأن برء الجسم الفيزيقي انما يكون عن طريق الجسم الاثيري . ولقد رد البصر والسمع الى كثيرين ممن فقدوهما ، بل لقد ردت الحياة الى كثيرين ممن حار فيهم الطب والأطباء ، وذلك بالعلاج الروحي

وأغرب ما في العلاج الروحي نوع يسمى العلاج الغيابي . وفيه يكون المريض في بلد ناء عن بلد المعالج الروحي ، ومع ذلك تصل الاشعاعات الروحية وينقه المريض . ولقد حدث علاج من هذا القبيل لمرضى مقيمين في مصر ، والمعالج الروحي في لندن ، وقد كتب الله الحياة لهؤلاء بعد ان عجز الطب والاطباء عن علاجهم (٢)

---

(١) تراجع هذه الاقوال في كتاب « على حافة العالم الاثيري » صفحة ١١١ — ١١٥

(٢) المقتطف : وقد روى المحاضر بعد ذلك حادث اصابة بالسرطان في مصر شفيت صاحبتها بهذه الطريقة وعندنا أنه لا يمكن الاخذ بهذا الرأي حتى تتولاه جماعة من نطس الاطباء بالبحث والامتحان فيفحص المرضى حتى يتيقن الاطباء من صحة الاصابة ثم يعاد فحصهم بعد شفائهم بطريقة العلاج الروحي حتى يتيقنوا انهم شفوا -

حديقة المقتطف

الحركة الادبية

في سوريا ولبنان

للاستاذ يوسف

—

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

للسيد ابو النصر احمد الحسيني

—

مرثيي ظل الغمامة

من قصيدة لكثير

الحركة الأدبية

في سورية ولبنان

لم تعرف الحركة الأدبية في لبنان وسوريا ، منذ عشرين سنة ، نشاطاً قائماً على عقيدةٍ صحيحةٍ وإيمانٍ راسخ كالنشاط الذي عرفتهُ في السنوات العشر الاخيرة. ففي هذه السنوات العشر انتقل الادب في هذه البلاد من مرحلة اللهو والتردد الى مرحلة الجدّ والعزم ، فلم يبقَ أهليَّة يتفرغ لها الاديب على هامش مشاغل الحياة كما يتفرغُ الصانع او التاجر للهوة الفرد او الشطرنج

على انَّ الانتاجَ مايزال ضعيفاً بالقياس الى قوة اليقظة الاديبة في مجموع الأمّة لا بالقياس اليه قبل اليوم. فقبل اليوم — ولنحصر كلامنا في هذا الثلث من القرن العشرين — كان القلم لا يشر على الغالب الكثير الاّ في الصحف والمجلاّت وقصارى مايطمح اليه القارىء ان يقع في الصحف على مقال أدبي في كلّ اسبوع أو قصيدةٌ في كلّ شهر أو شهرين . فبشارة الخوري مثلاً ، هذا الشاعر الذي ملأت شهرتهُ الاقطار العربية ، لم تتعرف اليه المطابع حتى الآن ، فقصائده مشتتة هنا وهناك وقد لا يُفلح — اذا استثنى المأثورة منها — في مهر الادب بأكثر من مائة صفحة ، ومهما تكن هذه المائة الصفحة بليغة فلا يصحّ ان تعدّ انتاجاً في حياة اديب . وما نقوله عن بشاره الخوري نقوله عن شبلي الملاط والمرحومين امين تقي الدين والياس فياض ومعظم الذين حملوا أعلام الحركة الادبية في مطلع هذا القرن. فشبلي الملاّط لم ينشر الاّ ثلاث مسرحيّات او اربع منقولة عن الفرنسية وديوان شعر فيه الغثّ وفيه السمين واذا نحن ضربنا صفحاً عما في ديوان الملاط من شعر المناسبات العارضة ، هذه المناسبات التي كثيراً ماظهرت على اقلام الشعراء العرب في كل عصر فكانت حائلاً دون انطلاق الفكر الاستقلاليّ مع العاطفة الغريزية ، لا يبقى

لنا في هذا الديوان الا بضع قصائد لا يصح ان تعدّ انتاجاً في حياة اديب . ولم ينشر الياس فياض الا بضع مسرحيّات منقولة عن الفرنجة ودواوين صغيراً قد لا يليق فيه بكرامة الشاعر اكثر من اربع قصائد او خمس . اما امين تقي الدين فقد يكون الأديب الوحيد الذي لم يعتمد في تلك الحقبة خصلة غيره في الاغارة على تريكة الغير . على انهُ — لسوء الطالع — لم يختلف من النثر والشعر ما يملأ كتاباً حسنَ العرض

ولا نريد بهذا ان نكر فضل هؤلاء الادباء، فقد كانوا فاتحةً حسنة لهذا القرن بخروجهم في حلبة الشعر على غفلة القرن التاسع عشر ، وان قصروا في حلبة النثر وفي التوسع الفكري والابداع عن بعض جهابذته كاليازجي والشدياق واديب اسحق . واذا حقّ لنا أن نلومهم فعلى كونهم شهدوا أوجع مأساة عرفها التاريخ ولم نشهد لأقلامهم منظراً موجعاً من هذه المأساة ، اللهمّ إلا بعضَ قطع لا قيمة لها . يُمرُّ بنا المنجل الاسود على شفرته المقدّسة كجناح الموت سحن الجوع والمرض والذل والظلم والحقد ولا يقوم فينا شاعر أو ناثر يغمس ريشتهُ في هذا البؤس ؟ ألا يقوم فينا شاعر او ناثر اجترّت عيناهُ حصيدَ تلك الشهادة فيطبع على جبين التاريخ الادبي لوحة خالدة مما الطبع على عينيه ؟

كانت الحركة الادبية التي نشطت في جريدة « البرق » عام ١٩٠٨ على يد طائفة من رجال العلم كالشيخ اسكندر العازار وفليكس فارس والخلايني وداود جماعص وبشاره الخوري وشبلي الملاط وغيرهم سهل النهضة التي حاولت قبل الحرب الكبرى النزوع عن القديم المألوف ، عن الادب البطريركي والسلطاني الذي تفشى في ذلك الحين . على ان هذه النهضة لم تُعطِ أُكُلها لقرب ما بينها وبين الحرب ، الحرب التي عطّلت الصحف إلا المملوكة منها وغضّت شرف الفكرة الحرّة في البعض الكثير من رجال العلم فاصبح الأدب سلعة تباع على أبواب الحكام مخوراً وقرابين

وبعد أربع سنوات مرّت على السُبات السياسي والادبي في لبنان وسوريا لم نجرؤ الناشئة على النظر الى الماضي لهول المشهد ، ولا الى الحاضر لفراغه الموجع .

فاستسلمت الى الغرب القاتح المتفذ وراحت تتبّ ماهبٌ ودبٌ من صادراته، مؤمنة بكل مايشحنه حتى بحواشيه . ولشدّ ماتأثرت في ذلك الحين بموجة الأدب المهاجر حامل الروح الشرقية في الجسد الغربي ، واذا هي اصداء مشوهة لذلك الانتاج السماعيّ الخصب . وان يكن الأدب المهاجر قد نفخ في الناشئة اللبنانية والسورية روحاً لاعهد لها بمثله فقد استبدها لفته المضمونة وسيّرها في طريق متحيّرة بين الفوضى والتقليد

وفيا هذه الناشئة تضطرب بين الغرب والغرب ، بين الاصوات الشرقية المغرّبة في الاميركيتين والشمالية منها بوجه خاص ، وما تشحنهُ اوربّا الفاتحة ، سيدةُ مصائر الناس ، كان حملة الاقلام المخضرمون — اولئك الذين لبسوا الوجوه قبل الدستور العثماني وبعده — يحاولون لباس الوجه الثالث باسم التحرر السياسي

***

ولكن ... فيما هؤلاء منصرفون عن الادب الى استثمار السياسة في العهد الجديد كان بعض المفكرين الأحرار في الشباب يلقون في الناشئة بذرة التحرر الأدبي . كان الاستاذ عمر فاخوري في جريدتي « المعرض » « والبيان » ببيروت والمرحوم احمد شاكر الكرمي في « الزمان » بدمشق يقودان طليعة هذه الحركة التحريرية المباركة

وهذه الحركة لم تنهض الى هدفها الاّ في جريدة « المعرض » الاسبوعية فلعشر سنوات الاّ قليلاً تألقت في هذه الجريدة رابطة من أدباء الشباب وراحت تذيع مبادئها الأدبية فتقسط حيناً وتظلم حيناً ، تهتدي تارة وتضلّ أخرى ، وبين تطرفها واعتدالها قامت في الشباب نهضة لم يخرج الادب منها لاخاسراً ولا مغبوناً

وكانت جريدة « البرق » مازال سياسية فحوّلها منشئها الاستاذ بشارة الخوري الى جريدة أدبية أسبوعية . على أن الاعصاب الادبية التي ساهمت في تحريرها لم تكن من الصف بحيث تستطيع مجاراة « المعرض » — وكان الشباب في ذلك الحين أميل الى التطرف والفوضى منه الى الاعتدال والنظام — فلم يُقسَط للبرق

في النجاح فوقفت في منتصف الطريق واستنى صاحبها بشهرته عنها وأغنى العالم الادبي بشعره عن صحيفته . واذا حق لنا أن نلومه فعلى انصرافه في الكثير الغالب الى الغنى بما يُحتمل عليه لا بما يندفع اليه . ولا نزاع في أن الاستاذ بشاره الخوري يشرف في احساسه الباطني الصرف على العالم الذي عاش قبل الحرب والعالم الذي يعيش بعدها ، فهو انتقال حي من عهد الى عهد ، من عهد رزح فيه الادب تحت ثقلين : الضغط السياسي الحميدي والارشادي والضغط الروحي الناشىء عن ضعف اليقين بالنفس ، الى عهد تحاول فيه الناشئة توطيد استقلالها الروحي توطئة لاستقلالها السياسي الصحيح . فهل يستطيع سبيلاً الى تأدية الرسالة الملقاة على عاتقه ؟ فشاعر الأمة يجب أن يكون عظيماً كالأمة

وفي ذلك الحين ، فيما الحركة الأدبية ماضية في نشاطها بجريدة « المعرض » وبعض الصحف اليومية — وسعظم صحف بيروت تخص الأدب بصفحة في كل اسبوع — كانت حركة أدبية رصينة تنشط في سوريا ، بمجلة « الحديث » الشهرية في حلب ، وبجريدة « ذي العرب » وغيرها في دمشق . وما عتمت هذه الحركة أن أعطت ثمارها فأصدرت المطابع مؤلفاً نفيساً عن المتنبىء للاستاذ شفيق جبري ومؤلفاً آخر عن سيد قريش للاستاذ معروف الارناؤط . وأذكر أن المغفور له شوقي قال لي يوماً إنه سهر ثلاثة أيام على قراءة « سيد قريش » . والواقع أن هذا الأثر الخالد الذي يضارع بلغته وأنواله ملحمة « الشهداء » لشاتوبريان هو ، على ما في إخراجه الفني من الهنات ، أفضل كتاب أدبي ظهرت به المكتبة العربية في سوريا . ولم يقف جهد معروف الارناؤط عند « سيد قريش » بل تجاوزه الى كتاب آخر قد يقل عنه خطراً هو « عمر بن الخطاب »

وفي تلك الحقبة الخطيرة من حياة سوريا الأدبية صدر في بيروت أول جزء من « أدباء العرب » للاستاذ بطرس البستاني ، وتبعه الجزء الثاني فالثالث . وكانت المطابع في الوقت نفسه تصدر كتاب « المراحل » للاستاذ ميخائيل نعيمه و « جبران خليل جبران » للمؤلف نفسه . وقد أحدث هذا المؤلف الأخير ضجة صحفية وخطابية لم يسبق لها مثيل إلاّ في النادر القليل . ويرجع السبب في هذه

الضجة الى بعض حقائق أوردها الاستاذ نعيمه في كتابه الخالد ودرس على ضوئها سلوك جبران في حياته الخاصة وعلاقة هذه الأخيرة بحياته الأدبية .

وكان الاستاذ أمين الريحاني قد بدأ منذ سنوات بتجديد المكتبة العربية بروائعه ، فبعد الجزء الرابع من الريحانيات « ملوك العرب » وبعد ملوك العرب « النكبات » وبعد النكبات « نجد الجديدة » وبعد نجد الجديدة « قلب العراق » ويعدّ الآن كتاباً عنوانه « قلب لبنان » وأمين الريحاني يقف اليوم على هضبة الانبعاث الفكري موقف نبيّ من أنبياء المجتمع الآتي ، فتى أدبه إيمان بالشباب ، إيمان بالوطن وإيمان بالمستقبل

* * *

في بيروت اليوم جريدتان اسبوعيتان يغلب عليهما الطابع الأدبي هما « الجمهور » و« المكشوف » ولكلٍّ من هاتين الجريدتين أقلام وهدف تلتقي على صعيد الأدب ومهما بعدت بينهما شقة السياسة الشخصية التي تخلقها أحوال الادباء في كل بلد فلا تستطيعان الاساءة الى الغاية التي تسعيان وراءها . وقد يكون هذا البعد باعثاً لاحياء الحركة الأدبية وإضرام اللهب في عروقها . واذا نحن قابلنا بين قوى الاقلام التي تساهم في هاتين الجريدتين رأيناها متعادلتين . على أن جريدة « المكشوف » داراً للطباعة ما فتئت منذ سنتين تغذي المكتبة العربية بنتاج مرجوّ الفائدة . ويكفي جريدة « المكشوف » فضلاً أنها أفسحت لكثيرين من الأدباء المغمورين سبيل الظهور وشجعت الادباء الآخرين على العمل فنشطوا الى الانتاج نشاطاً لم يُعرَف مثله قبل اليوم

ولا نريد أن نختم هذه التوطئة للفصول المقبلة في « الحركة الادبية بسوريا ولبنان » قبل أن نأتي على عرض سريع لأبطال هذه الحركة . فتى سوريا طائفة من جملة الاقلام تقطع الدليل على إدراكها رسالة الادب وخطرها في حياة الأمة بزوغها البذور المرجوّة الثمر ، في تربة ملائمة وجوّ صالح . وقد ذكرنا من هذه الطائفة الاستاذين جبري والارناؤوط . ونذكر الآن الشاعر خليل مردم بك في دمشق ، والشاعر عمر أبو ريشه في حلب ، والشاعر محمد سليمان الأحمد

المعروف ببدوي الجبل في بلاد العنويين . فالاستاذ سرديم وبدوي الجبل قصائد لم تجمع حتى الآن في كتاب ولكنها أحلّت شاعريها محلاً موفور الكرامة بين شعراء العصر . أما الاستاذ أبو ريشه فله ديوان حافل بأطيب الشعر ، وقد يكون أبو ريشه الأديب السوري الوحيد المتصرف الى الانتاج في هذه الايام ، فهو يعدّ ملحمة بعنوان « الاساطير » تم مقدمتها التي اتصلت بنا على مجموعها . وقد شاء الشاعر ان يفتح ملحمته بمثل ما كان شعراء الملاحم الاغريق والرومان يفتتحون ملاحمهم بمخاطبة ربة الشعر . قال :

لا تنامي يا راويات الزمان فهو نولاك موجةٌ في دخان
تتوالى عصورها وبها منك ظلالٌ طريّة الالوان
ابداً تبسم الحياة عليها بسمة المطمئنّ للحدثان
اتعبي خيف اجنحة الاهام من افقك القصيّ الداني
وانثري حولي الاساطير فالروح على شهية غصّة الظمآن
حسبك أن اردّها لك من فمي صلاةً ومن شفاهي أغاني

وفي سوريا ادباء مهيّأوا التربة لانتاج حسن كالدكتور منير العجلاني في دمشق والاستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة « الحديث » الحلية التي ما برحت منذ سنوات تطلع علينا كل شهر بنماذج طريفة من أدب صاحبها وسائر ادباء العرب

وفي لبنان وهط من حملة الاقلام اكثر انتاجاً وانصرافاً الى الادب من اخوانه في سوريا على ان المذاهب الغربية ما زال تسطو على بعض الادباء اللبنانيين سطواً يفصلهم عن جوهر نفوسهم ، ولكن هذا البعض بدأ يتحرّر من ربقة الغرب ويخلق لنفسه عالماً روحيًّا له طابعه وله تلاميذه . وقد ذكرنا من ادباء لبنان اكثر من واحد ، ونذكر الآن الشاعر امين نخله الذي عرف ان يبدع لنفسه سواء في الشعر او النثر رمزية عربية التعبير متزنة التفكير لا يشق العقل في فهم اغراضها ومعانيها وصورها . والشاعر الدكتور حبيب ثابت الذي نفض القلم اخيراً من طرته الشعريّة « ادونيس » والشاعر سعيد عقل الذي امتاز برغبته في التسلل الى دياميس اللاوعي... والاستاذ صلاح لبكي ، شاعر « أرجوحة القمر » الذي يعطف على

اللقب البشري بخشوع موجع . والشاعر الياس خليل زخريا صاحب القلم اللازوردي . والشاعر نقولا يوسف الثالث من البشر في داي . والشاعر ميشال طراد الذي ابدع في الشعر الريفي طريقة هو أقرب فيها الى جاستان منه الى ميسترال . وعمر الزعني ، بيراعجه هذا الزمن . والاستاذ بطرس البستاني ، صاحب «ادباء العرب» وفي طليعة المنشئين والنقادين . والاستاذ عمر الفاخوري ، صاحب «الباب المرصود» الذي يرجع اليه فضل المتقدم في توجيه النقد الفني . والاستاذ فؤاد افرام البستاني صاحب « الروائع » الذي ملك على حداثة سنه ناصية العلم واحتل مكاناً رفيعاً في عالم الادب . والاستاذ مارون عبود ، الاديب الحيّار وأحد أئمة النقد الأدبي في هذا العصر . والاستاذ ميخائيل اميه ، الأديب الذي وقف من قمم الفكر على واحدة لم يبلغها من نوابغ الشرق إلاّ نفرٌ قليل . والاستاذ رئيف خوري الذي ساهم بقسط وافر في الحركة الفكرية الحديثة . والاستاذ لطفي حيدر الذي عرف في قصته « عمر افندي » أن يحفظ التوازن بين التقاليد الشرقية والغربية فلم تقطع صلته شعرة معاوية . والاستاذ توفيق يوسف عواد الذي يحاول مع الاستاذ خليل تقي الدين رفع القصة الى المستوى المنشود . وقد بذل حتى الآن جهداً محموداً في « الصبي الاعرج » و« قميص الصوف » و« عشر قصص » . والاستاذ يوسف غصوب ، شاعر « الموسجة الملتهبة » وناسج الفصول الجميلة في مختلف نواحي الادب . والدكتور نقولا فياض ، الشاعر الخطيب الذي يرجع اليه فضل التقدم في الشعر الوجداني السائد الى يومنا هذا . والاستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، حجة التاريخ في هذا العصر . والاستاذ انيس المقدسي صاحب المباحث الرصينة في تطور الأدب العربي . والدكتور أسد رستم صاحب المؤلفات التاريخية القيمة . والدكتور قسطنطين زريق الكاتب الاجتماعي الرصين

***

ومعظم هذه الصراصير المذهبة يدندن في جريدة « المكشوف » للشيخ فؤاد حبيش وجريدة « الجمهور » للاستاذ ميشال ابو شهلا الياس أبو شبكة

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

— ١ —

لم تصب الهند كلها بوابل العرب الدافق ، ولا بسهم سلطانهم الخارق ، غير الموجة التي مست سواحلها الغربية ، مثل السند وما جاورها ، حتى لم يضرب فيها ايضاً حكم عربي الى مدة طويلة ، والاّ لكان مصير الهند من جهة وحدة اللغة والثقافة كمصير مصر ، وإن كان العامل النظام الآخر لتلك الوحدة في مصر هو قربها من جزيرة العرب واتصالها المباشر بها

على ان سكان الهند الوثنيين مع مناعة السياج الطبيعي حول بلادهم وجسامته — اذ يحدق بهم شمالاً جبال الايا وهو أعلى الجبال في العالم قاطبة ، ويحفهم جنوباً وشرقاً وغرباً محيط الهندي وهو الثالث في العالم في العمق والسعة — لم يقدروا ان يحافظوا على سكون بالهم ، وركود خاطرهم من تكدير الدخيل ، وتشويش الغريب . فقد طرق ابوابهم الغازون ، وقهر بلادهم الفاتحون من اليونان ، والسيث [1] والافغان والعرب ، والترك ، والمغول حيناً بعد حين . فلم يكن للهندي الوثني الخارق في تفكيره الفلسفي العميق بدٌّ من ان يتأثر في لغته وثقافته وافكاره وآرائه من احتك بهم . فاليونان ، والسيث ، والعرب ، والترك ، والافغان ، والمغول وغيرهم جميعاً لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الهند في صوغ الفكر الهندي على طابعهم الخاص بعض الصوغ فكما ان الهند تأثرت بتلك القوى الخارجية في عاداتها واطوارها واديانها واخلاقها كذلك تأثرت منها بلغاتها ولهجاتها

ولا يمكنك ان تقشع غمام ذلك الاثر في لغات الهند ولهجاتها ، ولا ان تدرك مبلغه وتستقصي مداه اذا لم تسبر غور ما وصل اليه مجهود الهنود الوثنيين في اجادة لغات هؤلاء الغازين الى بلادهم ، ولم تختبر حال تضلعهم من فنون الآداب فيها

(١) Scythians

حيث اصبحوا خبيرين بقرض الشعر، بصيرين بمذاهب الكلام، عارفين بموضع النقد، متصرفين في ضروب الأنشاء فيها مسدَّدين فيها بالامر، وموفقين بالمراد

من تلك اللغات اللغة الفارسية التي حملها الافغان والترك والمغول الى الهند فكانت لغة رسمية طيلة مدة حكومتهم فيها. وللفارسية علاقة دانية وقرابة وطيدة الى أسرة اللغات الآرية التي اليها يمت جميع اللغات واللهجات الهندية. لذلك يجوز انه لم يجد الهندي الوثني تعلمها عزيزاً مستطاباً، ولا الخوض في ادبها شروداً منحاصاً بالقياس الى اللغات الاجنبية الاخرى، فأطاعته امورها بأيسرها، وانقادت له مطالبها بازمتها

كان لهؤلاء الهنود مع جيرانهم في الشمال علائق الجوار الحسنة، وصلات التجارة المتينة من الزمن الغابر الى قبل عهد سبكتكين [1] اي قبل ان تعبر جيوش ابنه السلطان محمود الغزنوي [2] نهر اندس — الحد الفاصل حينئذ بين الهند والدولة الغزنوية — في غاراته الشهيرة على الهند. بيد ان الداعي القوي الذي أهب بهم الى صرف عنايتهم في اتقان لغة هؤلاء الفاتحين النازحين الى بلادهم، والضاربين فيها بجرانهم، والذي أجأهم الى بذل وسعهم وطاقتهم لحوز قصب السبق في حلبة آدابها وإحراز فوق التضال في ميدان نظمها ونثرها، كان طمعاً في العهد الاخير. وهو عهد — القرن العاشر الميلادي — نجد فيه العلامة الفيلسوف ابو ريحان البيروني مكبّاً بين ظهرانيهم على دراسة لغتهم وفلسفتهم وعاداتهم واخلاقهم وعلومهم وفنونهم وجامعاً لكتابه الشهير عن الهند، أوضاعه المحكمة، واغراضه المتشعبة، ومناهجه السديدة، وفوائده الكثيرة. وهو ايضاً عهد بدأت فيه الكلمات الفارسية والعربية تدخل اللغات الدارجة في شمال الهند، اذ نرى الشاعر الهندي الذائع الصيت « شاندكيو » وهو شاعر بلاط الملك « پرثيوي راج » يتسلل في رثائه الشهير لممدوحه الملك كلمة « پروردكار [1] » و« سلطان »

(١) تولى سبكتكين من سنة ٩٧٦ الى سنة ٩٩٧ ميلادية (٢) تولى السلطان محمود الغزنوي من سنة ٩٩٨ الى سنة ١٠٣٠ ميلادية وأغار على الهند من سنة ١٠٠١ الى سنة ١٠٢٤ ميلادية اثنا عشر مرة الى ان ضم الى حكومته اقليمي البنجاب والكجرات. (٣) ومعناه باللغة الفارسية « الرب »

ولكن مما يؤسف له ان مصادر المعلومات عندنا في هذا البحث من مباحث التاريخ الهندي قليلة . لان علماء اللغة الفارسية سواء أكانوا فارسيين أم الذين تعرعوا في الهند لم يزوها في مصنفاتهم — كما يظهر لنا — جديراً بان يوكلوا بها رعايتهم ، ويوفوا عليها عنايتهم ، ويلقوا ضوءاً على حالته الظاهرة من حد الهنود الوثنيين ونشاطهم . فواله داغستاني مثلاً صاحب الكتاب الشهير « رياض الشعراء » في تراجم شعراء اللغة الفارسية يفتخر باهماله في كتابه ذكر الشعراء الهنود الوثنيين باللغة الفارسية . وعليه فاهمال داغستاني المشرب بالكبرياء ومن حذا حذوه قد جعل جمع المواد لهذا الباب الغامض من تاريخ الفكر الهندي صعب المرام ووعر الملتمس . لذلك فالقرون الاولى من استيلاء المسلمين على الهند لا تقدم لنا مراجع تستحق الاعتبار للبحث

على انهُ في الاخير حين رجحت الاعتبارات السياسية والاجتماعية كفة الموقف لمصلحة هؤلاء الهنود في تعلم اللغة الفارسية واتقانها ، حملوا بصره ، وتكفلوا عبئه ، فبرعوا فيها وحذقوها . لذلك نجد في « تاريخ فرشته » انهم في عهد دولة لودية[1] في الهند كانوا كلفين بلغة حكامهم ومشغوفين بدراستها ، فمن ذلك الزمن ثابروا عليها كتباً ، واظهروا لها طلباً حتى بلغوا من الاتقان فيها غاية استحقوا بها أعلى المناصب وأرفع المراتب في الدولة فيما بعد . فكان مثلاً لدى اغارة ملك المغول ظهير الدين بابر وابنهُ نصير الدين همايون [2] على الهند ، يتشرف برياسة الوزارة في الدولة الافغانية [3] الآئلة الى الانحلال حينئذٍ ، هندي وثني مسمى « هيمو بقال »

اختار المغول بعد فتحهم الهند وطناً لهم — وهي ميزة تميز بها الفاتح المسلم الشرقي عن الفاتح المستعمر الغربي . فان الغربي مهما كانت البلاد المفتوحة أغنى ثروة ، وأعذب ماءً ، وأجود هواءً من بلاده ، لا ينقل مركزه منها الى تلك البلاد ، فتدفق ثروتها

(١) دام عهدها في الهند من سنة ٨٥٥ الى سنة ٩٢٣ هجرية

(٢) تولى ظهير الدين بابر الامر من سنة ١٥٢٦ الى ١٥٣٠ ميلادية وأما ابنه نصير الدين همايون فمن ١٥٣٠ الى ١٥٥٦

(٣) دامت هذه الدولة في ناحية من نواحي الهند من سنة ١٥٣٩ الى ١٥٥٤ حتى استولى عليها المغول

الى الخارج ، فيستحيل ظلها الذي اتسق فيه الحض حروراً ، وماؤها الذي اطرد فيه النعيم مهلاً ، وجوها الذي انبلج فيه الأنس وحشة فيبدو أهاليها من البؤس والفقر بؤساً ، تفجر في وجوههم الاهوال ، وتغبر في عيونهم الآمال ، لا شريك من اوليائهم في عواطفهم ، ولا حليف من ساداتهم في مصائبهم ، ولا نصير من حكامهم في حاجاتهم ، ولا مغيث من ولاتهم في استغاثتهم — لذلك لا يسهم المغول بحكم إخوة الوطن الواحد ، ومازجوا ، وزاوجوا ، وعاشروهم مجتمعي الشمل ومتصلي الحبل ، مصيخين لكل أنة العاني ، ومصغين الى كل نشجة الباكي ، ومغيثين لكل لهفة المستغيث ، فبلغوا به في قلوبهم منزلة لا تساوى ورتبة لا تدانى

بهذا التمازج والخلطة والمعاملة الحسنة أغرى المغول الهنود الوثنيين ، وأوقدوا في قلوبهم نار الشوق الى التمكن من اللغة الفارسية والتضلع من علومها وفنونها ، أضف الى ذلك ما زاد نزوعهم اليه وهو المشابهة والمماثلة بين افكار التصوف الاسلامي بالفارسية وبين أفكار ويدنتا[1] بالسنسكريتية . فكان أكبر مظهر أشرق بهاؤه ، ولاح علاؤه لهذا التمازج بين الحاكم والمحكوم في عهد الماحل العظيم جلال الدين أكبر [2] اذ اصبح الادب الفارسي العربي الذي حمله المسلمون الى الهند في هذا العصر الذهبي مصدراً عاماً لالهام الجميع . ولقد بلغ تقرير الهنود الوثنيين في هذا العهد الزاهر للثقافة الاسلامية مبلغاً حملهم على تعلم العلوم الاسلامية الشرعية واجادة اللغة الفارسية والعربية ، وايضاً على بناء المساجد للمسلمين كما بناها لهم « راجا بهكوان داس » وابنه الشهير « راجا مان سنغ »

لم يكن تشجيع الملك العظيم جلال الدين أكبر وعونه للادباء في بلاطه مقصورين على المسلمين ، فقد ترجم بأمره العلماء الهنود البراهمة البارعون في ادب السنسكريتية وعلومها مع اشتراك العالم المسلم المؤرخ الشهير عبد القادر البداوني كتباً نفيسة من اللغة السنسكريتية وادبها الى اللغة الفارسية مثل « سنكهاسن بتّيسي » و« رامايانا » « ومهابهارات » فاصبحوا بهذا على اتصال بعلماء اللغة الفارسية المسلمين في بلاط

(١) اسم كتاب مقدس عند الهنود الوثنيين (٢) أكبر ملوك المغول في الهند تولى الامر من سنة ١٥٥٦ الى ١٦٠٦ ميلادية

الملك وأسلم بعضهم على أثره مثل « بهون » . فشاعر بلاط الملك « فيضي » وشقيقهُ الوزير الشهير والعالم الجليل « ابو الفضل » صاحب الكتابين القيمين « أكبر نامه » « وآئين اكبري » كانا هنديي الاصل . « وفيضي » هذا مع كونه شاعراً مطبوعاً باللغة الفارسية اذ له فيها ديوان عظيم معترف به من الادباء والشعراء ، كان عالماً محرراً باللغة السنسكريتية فان القصة « نالا داماياني » التي كتبها نظماً باللغة الفارسية تدل على استقائه اياها من المصادر السنسكريتية وطول باعه فيها ، وكذلك كان ادينا متقناً باللغة العربية فان تفسير القرآن الكريم الذي صنفهُ بالعربية بالحروف النير المنقوطة وسماه « سواطع الالهام » يشهد على براعته وقدرته فيها

***

وعليه فلا شك فيه انهُ في مثل هذه الاحوال الموفقة في بلاط الملك برع الامراء الهنود الوثنيون في لغة البلاط الفارسية شعراء وكتاباً . فالملك نور الدين جهانكير [1] ينوه في مذكراته « تزك جهانكيري » بامير راجبوتي [2] وثني سمى « راجا منوهرداس » الذي كان محبوباً عند والده الملك جلال الدين اكبر لعلمه الغزير واطلاعه الواسع باللغة الفارسية . فهو يجمل ذكره ، وينشر مناقبهُ مظهراً تقديره الكامل لبراعة هذا الامير في الشعر الفارسي مستشهداً لرأيه فيه بالشواهد الكثيرة من شعره . ولم يرفع هذا التقدير الملكي والعطف السامي « راجا منوهرداس » الى الصف الأول من العلماء الهنود الوثنيين الذين ساهموا في ارتقاء الأدب الفارسي وتقدمه في الهند بل ما أحرزه من الأعتراف والتقدير من علماء ايران وادبائها وشعرائها بأنفسهم كالعالم الاديب والشاعر المطبوع بالفارسية لذلك ارتفع بشعره الصوت وسار في البلاد الى ما وراء الحدود الهندية فتداوله الناس بالذكر الجميل ونال اعجابهم حيث ادرج الشاعر الفارسي الكبير الفائع الصيت

(١) تولى الامر من سنة ١٦٠٦ الى ١٦٢٨ ميلادية (٢) نسبة الى قبيلة « راجبوت » في الهند وهي من قبائل الهنود الوثنيين الشهيرة

« صائب » بعض اياته في مجموعته المختارة من الشعراء المختلفين ، وهو عزة ورث اليها حينئذٍ الابصار وطمحت اليها القلوب . وكان شعره رائق الاسلوب يتدفق طبعاً وسلاسة مشبعاً بالافكار الصوفية الرقيقة واليك ترجمة بعض الايات المختارة منهُ قال : —

ينبغي لك ان تعلم الانفراد والاتحاد من عينيك
فانهُ وان كانت كلٌّ منهما منفردة ولكنهما لا تنظران الاَّ بالاتحاد

وقال أيضاً : إن الشيخ يطمئن الى إيمانه ، والبرهمي يفتخر بكفره
ولكن سكران جمال الحبيب لا يباني بالايمان ولا بالكفر

ومن شعره الصوفي ما يلي ترجمته : —

يا ربي اشرح صدري بالحب
واعطني قلباً كنز الأسرار
واطبع قلبي بالحب الخالد
واجعل شعار حبك روحي
أنا أسألك يا ربي فضلك العام
فان القنوط منك حرام
إن أذنت بان اروي غلتي من بحر وحدتك
فذلك لا ينقص شيئاً منهُ
اعطني النطق لحمدك
والقوة للمشي في سبيلك
أنا لا أعرف يا ربي ! ما هو الايمان والكفر ؟
ولا الواقع في شركك هذا أو ذاك
فان كنتُ كافراً فاعطني الايمان
اعطني اليقين يا ربي فاني أطلبهُ منك

(يتبع) السيد ابو النصر أحمد الحسيني الهندي

«مرتجي ظل الغمامة»

من قصيدة لكثيّر:

وما كنت أدري قبل عزّة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولّت
فوالله ما فارقتُ الاّ تباعدت بصرم ولا أكثرت الاّ أقلّت
وكنا سلكنا في صعودٍ من الهوى فلما توافينا ثبتُّ وزلّت
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا فلما توافقنا شددتُ وحلّت
فان تكن الدنيا فاهلاً ومرحباً وحفّت فما الدنيا لدينا وقلّت
وإن تكن الأخرى فان وراءنا مناديح لو سارت بها العيس كلّت
فاني وان صدّت لغنٍ وصادقٌ عليها بما كانت الينا أزلّت
فما أنا بالداعي لعزّة بالجوى ولا شامتٍ إنْ لعل عزّة زلّت
فلا يحسب الواشون أن صبابتي بعزّة كانت غرةً فتجلّت
فوالله ثم الله ما حلّ قبلها ولا بعدها من خُلّة حيثُ حلّت
وما مرّ من يوم عليّ كيومها وان عظمت أيامُ أخرى وجلت
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه وللنفس لما وُطّنت كيف ذلّت
وللعين أسرار اذا ما ذكرتها وللقلب وسواس إذا العين ملّت
واني وتيماء بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلّت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما تبوأت منها للمقيل اضمحلّت

المسألة الدولية

في البحر المتوسط

محمد رفعت بك

الطبعة الثانية
القاهرة
مطبعة المعارف
١٩٢٥

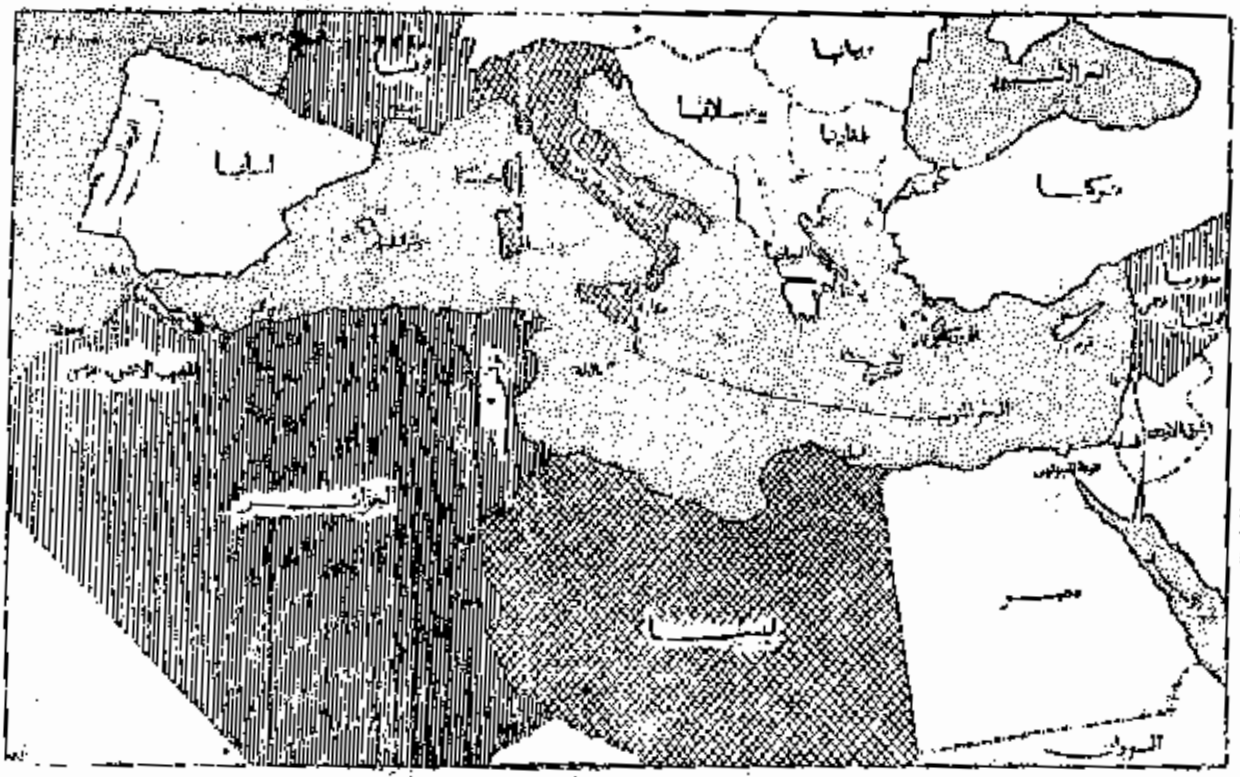

خريطة للبحر المتوسط وسواحله

السياسة الدولية

في البحر المتوسط[1]

يشاهد الباحث المحقق في السياسة الدولية في البحر المتوسط أربعة عوامل مهمة تتحكم في الموقف الحاضر بين الدول

(العامل الأول) : التسلح الذي تتسابق فيه الدول الكبرى والصغرى تسابقاً لم يشهد العالم مثله قبل الآن . واذا كان التاريخ يذكر عهد الفروسية في العصور الوسطى حين كان العرف يقضي على كل رجل حر نبيل بان يتسلح ويتعلم فنون السلاح والقتال فان عهدنا الحاضر سيذكره التاريخ بأنهُ العصر الذي تسلحت فيه الامم بجميع طبقاتها من قمة رأسها الى اخمص قدمها وان التسلح قد شمل كل شيء وذللت له العناصر جميعها من ارض وماء وهواء

اما اسباب هذه المغالاة في التسلح فكثيرة وتختلف بحسب احوال كل دولة ولكن هناك أسباب عامة تفسر ظاهرة التسلح الحديثة منها ضعف اداة السلم التي تمخضت عنها الحرب العظمى وهي عصبة الامم وضياع الثقة بمبدأ التضامن الدولي للتأمين ضد الحرب الذي يسمونهُ Collective Security فمعظم الدول التي كانت تؤمن بهذا المبدأ لم تر في اول الأمر ضرورة قصوى تدعوها الى زيادة التسلح فلما تفتحت العيون عن مشهد انهيار هذا المبدأ منذ سنتين حين وقفت دولة واحدة تتحدى الجميع زالت الغشاوة من فوق اعينهم وأخذ الجميع يتسلحون معتمدين على انفسهم

ومن هذه الأسباب ان العالم الحديث قد فقد الثقة فيما كانوا يسمونهُ بالمحالفات والمعاهدات فقد برهنت الحوادث قبل الحرب العظمى وفي اثنائها وبعدها الى الآن ان المعاهدات ماهي الا قصاصات من الورق يرمى بها في سلة المهملات اذا لم تخدم اغراض صاحبها في الوقت الذي يشاؤه وان القداسة التي كانت للعهود والمواثيق قديماً قد حلَّ بها الهوان كما حلَّ بكثير من النظم والتقاليد التي كان يعتز بها قديماً فجاء اتيار الحديث فجرفها ومزقها فيما مزق شذر مذر .

وأظن ان الاتجاه الحديث في العلاقات بين الدول سينحرف تدريجاً عن المحالفات والمعاهدات ويتحول الى اتفاقات وقتية تؤلف سريعاً لعلاج حالات معينة ثم تزول وتحل محلها اتفاقات أخرى

---

(١) خلاصة المحاضرة التي ألقيت بقاعة بورت بالجامعة الاميركية في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٨

كما حصل بين دول البحر الأبيض المتوسط حين اشتدت وطأة حركة القراصنة المجهولة والقرصنة فعقدوا مؤتمر « نيون » في سبتمبر سنة ١٩٣٧ وكما حصل في موينخ في سبتمبر الماضي بين الدول الأربع لحل مشكلة تشيكوسلوفاكيا

لذلك كان من خطر الشأن بمكان عظيم ان تكون كل دولة مستعدة لأية مفاجأة حتى تحتاط جانبها وتعمل حسابها فيرتفع سعرها في السوق السياسي الدولي متى أزفت ساعة المساومة

ولهذا كانت المسابقة القائمة الآن بين الدول في التسلح وكان هذا النشاط العصبي الذي نلحظه كل يوم بل كل ساعة في العلاقات السياسية بين الدول

﴿ العامل الثاني ﴾ : اضطراب مياه البحر المتوسط — مضى وقت كان فيه البحر المتوسط قبلة أنظار السياح من مختلف أنحاء العالم لما حباه الطبيعة به من جو منعش وسماء صافية وشمس دافئة تبعث الحياة والنشوة في النفوس ومن ألوان زاهية ساحرة وفاكهة وعنب ونخيل وما أنشأه الانسان على سواحله من آثار خالدات ومعابد ومساجد وكنائس ومآذن وتماثيل هي آيات من الفن والذوق والجمال أبدعتها شعوب البحر المتوسط في مختلف العصور والحقبها المدنية الحديثة نماذج تحاكيها وتقتبس منها. لقد انطفأ فجأة جمال هذه المناظر وكأن عصا سحرية قد حولت هذه المناهج التي كانت ملتقى السياح من جميع أرجاء العالم ومبعث الجمال والشاعرية في نفوسهم الى مناظر حربية تسود سواحل البحر وتعج بها شواطئه فمن قواعد حربية وبحرية تنشأ من جديد الى أخرى قديمة تجدد وتعزز ومن دبابات تسد الطرق الى طائرات تملأ الجو بهديرها ومن مطارات ومصانع وتكنات الى مبان شاهقة ظاهرها خدمة العلم وباطنها تغذية الحرب

هذا الى المواصف السياسية التي تهتاجه بين حين وآخر فتجعل خطر الحرب والدمار قريب النزول وحينئذ تعتلي موجة الاضطراب هذه الشعوب الوادعة التي تفيأ منذ القدم ظلال أغصان الزيتون رمز السلام والسعادة في العالم

وليست هذه اول مرة تهب فيها على هذ البحر العواصف والاعاصير. فقد سار البحر الشعوب التي تسكن أرجاءه في رقيها وتدهورها فكان نصيبه تارة الهدوء والسلام وتارة تجتذب مياهه وسواحله التيارات السياسية والاجتماعية فتعرضه لأشد ما عرفه التاريخ من اخطار

ولا اظن اني بحاجة الى تعداد ما قام في البحر المتوسط من كفاح وحروب بين الشعوب في عصور التاريخ المختلفة ففي البحر المتوسط قام النزاع بين الفرس والاغريق ، وبين روما وقرطاجنة ، وبين الصليب والهلال في عهد الحروب الصليبية ، وظلت هذه الحروب تختفي وتظهر في البلاد المقدسة تارة وتارة في مصر واخرى في صقلية واسبانيا الى ان تسلط الهلال في شرق البحر وجنوبه وتسلطت المسيحية في الغرب والشمال

ثم جاءت حركة الاستكشافات الحديثة فكشف كولمبس عن القارة الجديدة وساح فاسكوده جاما حول رأس الرجاء الصالح الى الشرق فأحدث هذان الاستكشافان انقلاباً اقتصادياً هائلاً انتقل على أثره ميدان النشاط في الملاحة والتجارة الى المحيط الاطلسي واتجه مركز الثقل في العالم غرباً تاركاً البحر المتوسط ومدنه ودوله في ركود لم تكره سوى أعمال القرصنة التي انتشرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر قرب سواحل الجزائر وما جاورها . وظلت شعوب البحر المتوسط تغط في نوم عميق استمر الى قرب نهاية القرن الثامن عشر حين أيقظها من سباتها دوي الثورة الفرنسية وصرخة نابليون في الشرق

ولقد بلغ من قلة اكتراث الدول الكبرى بشأن البحر المتوسط أن نابليون حين قام بحملته الشهيرة سنة ١٧٩٨ قاصداً مصر أمكنه أن يفلت بأسطوله من رقابة انجلترا سيدة البحار بالرغم ما ارصدته لمراقبته من سفن وقوات ذلك لأنها لم تدرك قصد نابليون من حملته البحرية وما فتئت الى انه يريد احتلال مصر . وأخيراً ظهر بحرية الانجليزية ان نابليون ترك مصر واخذ في طريقه اليها مالطة . عند ذلك تنبهت الدول الى مكانة البحر المتوسط في العصر الحديث وعادت الحركة والنشاط الى مياهه وأعقب الحركة اضطراب سرعان ما أدى الى معارك حربية عنيفة . ثم سكنت العواصف نوعاً واهتمت الدول في منتصف القرن التاسع عشر بالبحر المتوسط لغرض واحد هو منع روسيا من اختراق البوغازات والخروج منها جنوباً مهددة مصالح الدول الأخرى

واستمر الحال كذلك حتى بعد فتح قناة السويس واحتلال انجلترا مصر الى ان نمت قوة ايطاليا في اوائل القرن العشرين واخذت تصبو الى الاستعمار كغيرها من دول أوربا وكان أن تحركت في سنة ١٩١٠ للاستيلاء على طرابلس فاحتاجت مياه البحر المتوسط من جديد وهاهي العواصف السياسية تهب على البحر المتوسط من الشرق ومن الغرب ومن الوسط بسبب ايطاليا — في الشرق باستيلائها على الحبشة واهتمامها بطريق القناة . وفي الغرب بتدخلها الى جانب الوطنيين في اسبانيا . وفي الوسط بتهديدها تونس . وبفضل هذا النشاط الايطالي اصبح البحر المتوسط من أهم مواطن القلق والاضطراب في العالم في الوقت الحاضر

﴿ العامل الثالث ﴾ : تباين الشعوب المحكومة — تختلف الشعوب التي تسكن سواحل البحر المتوسط عن الشعوب الأخرى التي تحكمها الدول الاوربية في افريقيا وآسيا . فشعوب البحر المتوسط شعوب راقية لها قوانين وأديان الهية ولغات وأدبيات وكان لها في الماضي تاريخ مجيد ومدنيات اقتبست منها المدنية الحديثة نوراً وعرفاناً ولها آثار تعزيها وتحفزها الى العمل على استرداد مجدها الغابر لذلك كان الشعور القومي والوطني بين الشعوب المحكومة في البحر المتوسط قوياً وكان عمل الحاكم الاجنبي في اخضاع هذه الشعوب عملاً محفوفاً باشد الاخطار من اضطرابات

الى قلائل وثورات وحروب قد تقهر فيها الشعوب المحكومة فتسكن فترة من الزمن تستجم في أثنائها لتقوم ثانية تواصل جهادها في سبيل الاستقلال. لذلك ما كادت تعرف نقط الرئيس ولسون الاربع عشرة وتعلن الهدنة في نهاية الحرب العظمى حتى أخذت الشعوب المحكومة تسعى لتحقيق امانيها

وكان من جراء ظهور هذه الروح القومية بين شعوب البحر المتوسط ان اضطرت بريطانيا ثم فرنسا اخيراً الى تصحيح علاقتها مع الشعوب التي كانت تحت وصايتها او حمايتها بعقد محالفات يعترف فيها باستقلال هذه الشعوب وتحتفظ فيها الدولة الحاكمة بمزايا الدفاع عن ارضها وقت الحرب او عند خطر الحرب وذلك باستعمال طرقها وسككها الحديدية وموانيها ومطاراتها. وكانت المحالفة البريطانية العراقية اولى هذه المحالفات سنة ١٩٣١ ثم اعقبتها مصر سنة ١٩٣٦ وها هما سوريا ولبنان تعقدان مع فرنسا مثل هذه المحالفات. والشعوب الاخرى التي لا تزال تجاهد في سبيل استقلالها تطالب بعقد مثلها

وبالجملة ان الشعوب الاسلامية التي تسكن سواحل البحر المتوسط في حالة تطور جديد يصعب معه أن تستكين الى حكم او تدخل اجنبي

﴿ العامل الرابع ﴾ التيارات السياسية المتعارضة في البحر المتوسط — اقليم البحر الابيض المتوسط تعبير جغرافي صرف فليست هناك وحدة تجمع بين شعوبه سوى الوحدة الجغرافية اذ تشترك هذه الشعوب في مظاهر وصفات خاصة تميز جو هذه الاقاليم ونباتها وطبائع سكانها، كما تشترك في ان المعادن في هذه المنطقة قليلة وان موارد الخامات ليست كثيرة. وان محصولات هذه الاقاليم متشابهة. اما فيما عدا ذلك فالتباين بين هذه الشعوب عظيم

في الشرق والجنوب نجد الشعوب التي تعتنق الاسلام والتي تعمل جهدها للتخلص من نفوذ الاجنبي وفي الشمال والغرب نجد الدول المسيحية ذات الاثر الكبير في توجيه السياسة الدولية في البحر المتوسط. ومن هذه الدول ظهرت الآراء الجديدة التي كانت سبباً في اضطراب مياه هذا البحر. وتتلخص هذه الآراء في مبدأين هامين: الاول مبدأ التوسع والتسلط في الحكم وتنادي به ايطاليا؛ والثاني مبدأ الاحتفاظ بالحالة الحاضرة والديمقراطية في الحكم وتنادي به انكلترا وفرنسا. ويعمل الجانبان جهد طاقتهما في اكتساب الانصار فينحاز الى ايطاليا من دول البحر المتوسط المستقلة البانيا وحكومة فرنكو في اسبانيا وينحاز الى جانب بريطانيا وفرنسا اليونان وتركيا ويوغسلافيا ومصر وحكومة اسبانيا الجمهورية. والكفاح بين هذه الآراء قد بلغ منتهى الشدة وليس أدل على شدته مما نرى الآن في اسبانيا من استماتة الجانبين في سبيل النصر. وهو كفاح سيزداد على مرّ الايام وسيعيد الى الاذهان ما كان بين الصليب والهلال في العصور الوسطى

ولا يتطرق الى الذهن ان مجرد التباين في الآراء والمعتقدات بين الامم كاف لاثارة الحروب بل لا بد من اسباب اقتصادية او استراتيجية أي حربة تستند فيها هذه الآراء فتدفع بمعتنقيها الى الحرب على هذه الاسس قامت الحروب في الماضي وعليها ستقوم في المستقبل . وسنرى عند بحثنا في سياسة الدول المختلفة ما للعوامل الاقتصادية من أثر في توجيه سياستها غير ان هناك حقيقة ظاهرة وهي انهُ ما دامت الدول التوسعية مصممة على تنفيذ سياستها وما دامت الدول الديمقراطية لا تريد ان تمس الحالة الحاضرة بأي تغيير فان النزاع بين الفريقين لا بد ان يؤدي يوماً الى الحرب

قبرص السياسة البريطانية

ولنبحث الآن في سياسة الدول التي يهمها البحر المتوسط ولنكتفي في هذه المقالة بسياسة كل من بريطانيا وايطاليا

(بريطانيا) يقولون ان البحر المتوسط هو في منزلة الشريان للامبراطورية البريطانية والحق ان هذا التشبيه مبالغ فيه كثيراً لأنه اذا انقطع هذا الشريان فلن تموت الامبراطورية البريطانية لأن هناك طرقاً اخرى ربط انجلترا بمستعمراتها واهمها طريق رأس الرجاء الصالح الذي استخدمه الانجليز في اثناء الحرب العظمى خوفاً من الغواصات الالمانية التي كانت تملأ البحر المتوسط فأسفر استعماله عن نجاح تام. حقًّا ان السرعة عامل مهم في عالم التجارة والحركات العسكرية ولكن الوقت الذي يستغرقه طريق رأس الرجاء الصالح الآن لا يزيد كثيراً عما كان يستغرقه طريق البحر المتوسط وقناة السويس عند بدء استعمالها

ولكننا اذا انتقدنا فعلينا ان البحر المتوسط شريان للامبراطورية البريطانية فلا نستطيع ان نتكر انه طريق سلطاني مهم بتقريب المسافة بين بريطانيا واجزاء امبراطوريتها تقريباً تتوقف عليها سلامة هذه الأجزاء في وقت الحرب. فواسطة البحر المتوسط وقناة السويس تستطيع انجلترا ارسال جيوشها في زمن قريب الى نقط الضعف التي تتطلب المدد والمعونة

لذلك كان من الطبيعي ان تعمل انجلترا على المحافظة على هذا الطريق بانشاء محطات تكون لها بمنزلة نقط بوليس لتأمين الطريق ضد العابثين . ومن حسن حظها ان جاءت مواقع المحطات في نقط استراتيجية على درجة عظيمة من خطر الشأن فلها جبل طارق على الباب الغربي وعدن وجزيرة برين عند مدخل باب البحر الاحمر ولها عند مدخل البحر المتوسط من الشرق فلسطين وحليفتها مصر التي تملك قناة السويس . ولها وسط البحر جزيرة مالطة ثم لها قبرص

واستلاك انجلترا لكل من هذه المحطات علامة على تطور خاص في الموقف الدولي ويكفي ان نقول كلمة عن كل منها

﴿ جبل طارق ﴾ اما جبل طارق فقد احتلته انجلترا سنة ١٧١٣ بمقتضى معاهدة اترخت التي انتهت بها حرب الوراثة الاسبانية وكانت انجلترا قد خشيت انضمام قوات فرنسا واسبانيا ضدها بعد ان صار جفيد لويس الرابع عشر ملكاً على اسبانيا كذلك ارادت انجلترا ان يكون لها قاعدة بحرية بعد ان اتسع ملكها في الشرق على اثر إنشاء شركة الهند الشرقية

ويعتبر جبل طارق مثلاً مثيراً للانجليز يضربون به المثل في الثبات والمتانة ويبلغ عدد سكانه ٢١،٠٠٠ نسمة ، ١٥ تقريباً من الاسبان والايطاليين واليهود وهم جميعاً موالون لبريطانيا ولا خوف منهم في أي وقت . وأهم عيب في هذا الحصن أن أرضهُ جبلية ولا تصلح لاقامة المطارات ضماناً لمكانة انجلترا في جبل طارق راعت حكومتها عند توزيع مناطق النفوذ بين فرنسا وأسبانيا أن (سبتة) والأقليم المقابل لجبل طارق في بد اسبانيا وهي الدولة الضعيفة حتى لا تقوم قاعدة بحرية فرنسية تنافس جبل طارق وتعرقل سير الملاحة البريطانية في مضيقه

﴿مالطة﴾ لما إتجهت أنظار الانجليز الى مصر وطريق البر الى الشرق رأوا ضرورة أخذ مالطة من الفرنسيين بعد أن احتلها نابليون لتكون قاعدة بين جبل طارق ومصر وفعلاً لم يجد الانجليز صعوبة في احتلالها سنة ١٨٠٠ وقد تأيد احتلال انجلترا لها في مؤتمر فينا سنة ١٨١٥

ولقد سار الانجليز في حكم مالطة وفق خطتهم التقليدية فلم يتدخلوا في شئون الدين الكاثوليكي وهو السائد بين السكان كما لم يتدخلوا في استعمال اللغة الايطالية مع الانجليز . وبما أنهُ لا يفصل مالطة عن صقلية سوى ٧٠ ميلاً تقريباً فان أكثر ايطاليا في مالطة كان عظيماً ويكفي أن تكون الكنيسة ورجالها تابعين لايطاليا أو للبابا وأن تكون اللغة الايطالية لغة الثقافة بين الأهالي واللغة الرسمية في المحاكم مع اللغة الانجليزية لندرك مدى تغلغل النفوذ الايطالي في مالطة . ولم تكن انجلترا تهتم بذلك كثيراً حين كانت تربط انجلترا بايطاليا أواصر المودة القديمة ، ولكن لما تبيَّنت انجلترا ما تكنهُ ايطاليا من سياسة توسعية ظهرت آثارها للعيان في حرب الحبشة أعادت انجلترا النظر في سياستها في مالطة فأغلقت المدارس والاندية الايطالية ومنعت اللغة الايطالية من المحاكم واستبدلت بها اللغة المالطية وأبعدت كثيرين من المعروفين بميولهم الايطالية . واندمج الانجليز مع المالطيين وقبلوهم في أنديتهم وحفلاتهم فاذا أضفنا الى ذلك أن ثروة الجزيرة متوقفة على ما تنفقهُ بريطانيا على قواتها وما تنفقهُ الشركات الانجليزية على سفنها التي ترسو بها أدركنا بسهولة سبب ولاء المالطيين لانجلترا واستقرار الحالة في هذا الحصن البحري استقراراً يدعو الى الاطمئنان

وهناك رأي بأن مكانة مالطة كقاعدة بحرية منذ أن قوي سلاح الطيران قد أخذت تتناقص ويستدلون على ذلك بأن انجلترا لما حشدت أسطولها في أثناء الأزمة الحبشية وأزمة سبتمبر

الماضي فضّلت أن يكون ذلك في ميناء الاسكندرية بدلاً من مالطة حتى لا يتعرض الاسطول لهجوم سلاح الطيران الايطالي. ولكن هذا لا يؤثر في مكانة موقع مالطة الحربي وسط منطقة تشتبك فيها مصالح ايطاليا في صقلية وفرنسا في تونس وقد اهتمت بريطانيا أخيراً بتحصين الجزيرة وتعزيز حاميتها وانشاء مطار بها

أما قبرص فعهد انجلترا بحكمها حديث نوعاً. استأجرتها من تركيا سنة ١٨٧٨ عقب انتهاء مؤتمر برلين الذي وضع حداً لمطامع روسيا في تركيا وكانت قناة السويس قد افتتحت سنة ١٨٦٩ واشترى دزرائيلي أسهم الخديو سنة ١٨٧٥ فكان لا بد لانجلترا من قاعدة بحرية قريبة من القناة وتشرف منها على أملاك الدولة العثمانية في الشرق. والقبرصيون من صميم اليونان جنساً ولغةً وميولاً سياسية ويودّون لو أمكنهم الانضمام الى أمهم الكبرى بلاد الاغريق ويعزز مقام الانكليز بالجزيرة وجود أقلية من الاتراك يبلغ عددهم ٦١٠٠٠ وهم موالون للانكليز وعدد القبرصيين ٣١٠٤٠٠٠

ولم يكن في قبرص ما يدعو الى اهتمام انكلترا بها فاتبعت فيها أيضاً سياسة ترك الأمور تجري في أعنتها وتركت الدعوة ينشرها القساوسة الأغريق للعبرة سياسة الضم. الى اليونان فقامت الثورة سنة ١٩٣١ وهجم الثوار على بيت الحكومة فأحرقوه عند ذلك تنبهت انكلترا فاشتدت في حكمها وأخضعت الثوار وأبعدت الاساقفة المحرضين على الثورة ومنعت الأعلام الأغريقية من الظهور وقضت على حركة الدعاية لليونان. ثم جاءت الأزمة الحبشية فهدأت كثيراً من حماسة القبرصيين لحركة الانضمام الى اليونان إذ وجدوا أنهم في الحقيقة مخيرون لا بين انكلترا واليونان ولكن بين انكلترا وايطاليا. وليس بين ايطاليا واليونان حب مفقود أو غير مفقود فقد حرصت الكنيسة الارثوذكسية على تنشئة الشعب على كره ايطاليا كما أن الاغريق لم ينسوا ضرب ايطاليا جزيرة كورفو سنة ١٩٢٣ تهديداً لليونان. لذلك يكتفي القبرصيون الآن بالعلاقة الروحية وبالحب الافلاطوني بينهم وبين أمهم. وأما العلاقة السياسية فيختصون بها انكلترا لانها أقدر على ملء جيوبهم مالاً وقلوبهم طمأنينة

﴿ فلسطين ﴾ : والآن نصل الى صخرة تصطخب حولها مياه البحر المتوسط وتتكسر عليها أمواجه ألا وهي صخرة فلسطين فقد أصبحت فلسطين منذ الثورة الاخيرة التي قامت سنة ١٩٣٦ أضعف نقطة في جسم الامبراطورية البريطانية. والمدهش أن بريطانيا لا تناهض الفلسطينيين دفاعاً عن كيان الامبراطورية ولكن مدفوعة بعوامل تاريخية وانسانية نحو طائفة معينة

ويرجع تاريخ هذه المسألة الى سنة ١٩١٥ في أثناء الحرب العظمى إذ استغل الحلفاء شعور العرب بالجامعة العربية ضد الاتراك حلفاء الالمان واستمالوهم الى جانبهم فعقد السر هنري ماكماهون

معتمد انكلترا في مصر مع الملك حسين اتفاقاً سريًّا وعد فيه العرب بالاستقلال بعد الحرب. وفي سنة ١٩١٦ عقدت معاهدة سرية أيضاً بين انكلترا وفرنسا تعرف باسم منشئيها Sykes-Picot وبمقتضاها تأخذ انكلترا من أملاك تركيا في الشرق العراق بما فيه بغداد والبصرة وتأخذ فرنسا سوريا بما فيها اسكندرونة وعكا. وفي سنة ١٩١٧ أعلن وعد بلفور ويقضي بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين

ويلاحظ ان هذه الاتفاقات السرية والعلنية كانت مبهمة وغير محدودة المعنى ففي الاتفاق مع العرب لم تبيَّن حدود الدولة العربية المستقلة كما أن الاتفاق مع فرنسا على ان تأخذ سورية لم يكن ليتفق مع الوعد بانشاء دولة عربية مستقلة

اما وعد بلفور فلم يبين فيه المساحة التي سيشغلها الوطن القومي ولا عدد اليهود الذي يسمح بهجرته الى هذا الوطن

وقد كان من رأي اليهود في ذلك الوقت ان يأخذوا تصريحاً بأن تكون فلسطين وطناً قوميًّا فلم يخوزوا الا بانشاء وطن قومي في فلسطين والفرق بين المعنيين ظاهر. ولو ان الحلفاء بروا بوعدهم للعرب فأقاموا دولة عربية واحدة او اتحاداً عربيًّا من سوريا وفلسطين وشرق الأردن لما قامت مشكلة الصهيونيين الحالية لأن اليهود الذين عاشوا مع العرب كأصدقاء قروناً طويلة كانوا يستطيعون ان يوزعوا انفسهم في جهات عدة من الدول الجديدة بدلاً من حصرهم في هذا الاقليم الضيق من الأرض

ويظهر ان الانكليز ارادوا ان يتخلصوا من الفلسطينيين واليهود مرة واحدة فوضعوهما في هذا المأزق كما كان يفعل قضاة العصور الوسطى اذا ارادوا عقاب النساء المشاغبات فكانوا يحجزون كل اثنتين في حجرة واحدة فاما ان تصطلحا واما ان تمزق إحداهما شعور الأخرى!

وتواجه انكلترا الآن في فلسطين مشكلة من أعقد المشكلات اذ كان بهم انكلترا ارضاء العالم الاسلامي بانصاف اهل فلسطين فكذلك يهمها ألا تغضب ملوك المال من اليهود في اوربا واميركا

والخلاصة ان مركز بريطانيا في البحر المتوسط لا خوف عليه ما دامت اسبانيا محالفتها الحاضرة ولا يضعف من مركز بريطانيا سوى مشكلة فلسطين ولذا يبدو ان حلها سيكون سريعاً

اما ما يقول بعضهم من ان بريطانيا بالمحافظة على نفوذها وممتلكاتها في البحر المتوسط تعرض نفسها لهجوم منافسيها وتحمل نفقات باهظة هي اولى بصرفها في جهات اخرى ولذلك فهم ينصحون بانسحاب بريطانيا من البحر المتوسط فقول لا قيمة له

١ — لأن بريطانيا اذا تركت البحر المتوسط رغبة في صون السلم فانها بذلك تمهد الطريق فوراً لاحلال دولة اخرى محلها وبذلك يختل التوازن الدولي وتقوم الحرب التي تعمل على تفاديها

٢ — اذا تركت انكلترا البحر المتوسط تركها حلفاؤها فيه وصعب عليها ايجاد غيرهم اذا قامت الحرب

٣ — ان اقتصار انجلترا على تملكاتها فيما وراء البحار من غير ان يكون لها في البحر المتوسط مصالح حيوية يحولها في الحال الى دولة ساحلية من الدرجة الثانية في المقام وتصبح اشبه بهولندا في اوربا وهي تملك مستعمرات كثيرة وراء البحار

٤ — ولا ننسى ان طريق البحر المتوسط يمر على سواحل دول متعددة واستمرار الملاحة والتجارة من هذا الطريق يكون في منزلة اعلان للعالم بعظم نفوذها ورواج بضائعها

٥ — وأخيراً لا ننسى ان بريطانيا تعتبر نفسها دولة عالمية وقد اصبح البحر المتوسط بعد ان اعلنت اميركا مبدأ عزلتها السياسية عن القارة وانبعث سياسة الحواجز الجركية في الداخل من اهم المراكز السياسية والاقتصادية في العالم فاذا زالت بريطانيا عن نفوذها في البحر المتوسط فكأنها زالت عن مكانتها الممتازة بين الدول

اتجاه السياسة الايطالية

تنتقل الآن الى سياسة ايطاليا في البحر المتوسط وهنا نرى صيحة ايطاليا التي لا تنقطع فهي تنادي بكل صوتها ان البحر المتوسط هو بحرها وعليه يطلقون في كتبهم ومقالاتهم وكلامهم Mare Nostrum اي بحرنا ويستمدون في ذلك على ان سواحل ايطاليا تغمرها مياه البحر المتوسط . ولكن في هذه النسبة مبالغة كما قلنا في حكاية الشريان بالقياس الى الامبراطورية البريطانية

حقاً ان لايطاليا سواحل يبلغ طولها ٢٥٠٠ ميل مغمورة بالبحر وان الرومان القدماء سيطروا على البحر المتوسط وأقاموا على سواحله دولة رومانية استمرت عدة قرون حتى انك لتعثر في اي ناحية من سواحل البحر فلا بد انك واجد اثراً رومانياً

وحقيقة ان الخلق الايطالي ومستوى معيشة الايطالي وقدرته على الاندماج في شعوب البحر المتوسط تقربه الى نفوس هذه الشعوب وتميزه عن اهل الدول الكبرى الاخرى ، ولكن قولهم «بحرنا» فيه مس لشعور دولة صديقة كمصر يمتد ساحلها من السلوم الى جنوبي سواكن اذ البحر الاحمر ليس الا امتداداً للبحر المتوسط ، ولمصر في البحر المتوسط والبحر الأحمر تاريخ مجيد قديماً وحديثاً — قديماً حين كانت مصر ترسل اساطيلها في عهد الملكة حتشبسوت تعثر عباب البحر الى بلاد «بنت» وهي ارض الصومال التي تحتلها ايطاليا الآن — وحديثاً حين كانت مصر في عهد محمد علي ثالث دولة بحرية في البحر المتوسط بعد انجلترا وفرنسا وحين كانت تحكم سوريا ولبنان وفلسطين وبلاد العرب وجزءاً من آسيا الصغرى وكريد

وحين احتلت جنودها في عهد الخديو إسماعيل مصوع وهرر وزيلع وبربرة ووصلت منارتها السبع على ساحل البحر الاحمر جنوباً الى بربره

واذا كان الايطالي يمتاز على الآخرين بأنه أقرب الى قلوب أهالي البحر الابيض من غيره فأنا من هذه الشعوب نفسها لحماً ودماً ودينها دين الاكثرية وثقافتنا قد نفذت الى قلوب هذه الشعوب قبل أن تنفذ الكتب الايطالية الى حوانيتهم

تقول ايطاليا أنها في البحر وسط الطريق وهذا حق اذا اعتبرنا البحر المتوسط وحده ولكننا اذا اعتبرنا البحر الاحمر امتداداً للبحر المتوسط فتكون مصر لا ايطاليا هي القابضة على أوسط مكان في البحر وليس أدل على مكانها المتوسط من وجودها في مفترق الطرق بين القارات الثلاث ويكفي أن تكون مصر هي المالكة لقناة السويس التي هي مصدر الحياة والنشاط السياسي والتجاري لهذا البحر لتقول ملء فيها أن البحر المتوسط لها قبل أن يكون لغيرها

كانت ايطاليا تقول منذ سنتين مثنا أن البحر المتوسط يجب أن يكون بحيرة ايطالية ولكنها الآن بعد أن ضمت الحبشة فقد أصبح البحر لها كما هو لا تكفتا وفرنسا طريق مواصلات قبل أن يكون بحيرة. ولهذا اتجهت أنظارها أخيراً الى التدخل في شؤون قناة السويس وغيره من المسائل الخاصة بالمواصلات

والحقيقة أن ايطاليا من حيث موقعها في البحر المتوسط في موقع لا تحسد عليه اللهم إلا اذا كانت السيادة البحرية لها فهي كما في بلاد البحر المتوسط تحتاج الى كثير من المعادن والخامات الاولية ولا يمكنها الاعتماد كلية على منتجات البلاد القريبة منها كالمانيا مثلاً بل لا بد لها من استيراد أشياء كثيرة مثل القمح وزيت البترول والقطن والمطاط والبن والتصدير. وهذه الاشياء ترد اليها اما عن طريق القناة واما عن طريق جبل طارق وتبلغ نسبة ما يرد الى ايطاليا من خارج البحر المتوسط ٧٥٪ من وارداتها ونسبة ما يرد من ذلك عن طريق جبل طارق ٧٠٪ وعن طريق السويس ١٧٪ وعن طريق الدردنيل ١٣٪ لذلك تضطر ايطاليا الى أن تولي وجهها شرقاً نحو السويس وغرباً نحو جبل طارق والمفتاحان بيد بريطانيا أو حلفائها ولأجل ان تكون ايطاليا على استعداد وجب أن تكون لها قوة دولتين بحريتين حتى تستطيع مراقبة الموقعين من الشرق والغرب وهيهات أن يتم لها ذلك لاسيما وأن التسلح في بريطانيا وفرنسا جار على قدم وساق

وكل ما تستطيعه ايطاليا في مركزها الحالي اذا جاءت ساعة الخطر ان تعرقل حركة المرور في البحر المتوسط وذلك بالاكثار من السفن السريعة الخفيفة والغواصات التي ثبت في الحرب العظمى أنها تستطيع ان تعوق الملاحة في البحر المتوسط ولكن سلاح الغواصات تستطيع استعماله أية دولة ولو لم يكن لها سواحل على البحر المتوسط بدليل ما قامت به الغواصات الالمانية

في هذا البحر في أثناء الحرب . كذلك تستطيع إيطاليا الضغط على انجلترا وحليفتها مصر غرباً من طريق ليبيا ومن الجنوب الشرقي من طريق الحبشة وأرتريه والصومال وبذلك تكون مصر والسودان مهددتين بعدو واحد من جهتين مختلفتين وهذا يفسر اهتمام إيطاليا بحشد قواتها في ليبيا والحبشة في اثناء الأزمات . يقابل ذلك انهُ اذا اعلنت بريطانيا الحصر البحري على ايطاليا تعذر عليها استيراد ما تحتاج اليه من الخارج كما يتعذر عليها الدفاع عن مستعمراتها خارج البحر المتوسط بدليل ان المانيا لم تستطع الاحتفاظ بمستعمراتها امام قوة انجلترا البحرية

لذلك كان اهتمام ايطاليا بمساعدة القوات الوطنية في اسبانيا اذ هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها ايطاليا ان تنفذ الى خارج البحر المتوسط ما دامت القناة وجبل طارق في ايدي الآخرين . وتستند قوة ايطاليا في البحر المتوسط الى الدعامات الآتية :

١ — ﴿ المانيا ﴾ : وهي مرتبطة منذ سنة ١٩٣٧ مع ايطاليا بمعاهدة دفاعية لمدة عشرين سنة ولايطاليا في المانيا رؤوس اموال كبيرة معظمها في السكك الحديدية والطرق والاشغال العامة وهنا خبراء في المصالح الحكومية

ومكانة المانيا من الوجهة الحربية ان مرتفعاتها تتحكم في بوغاز الترتو مفتاح البحر الادرياتي الى البحر المتوسط وبوغاز الترتو الذي يفصل ايطاليا عن البلقان هو المنفذ الوحيد ليوغوسلافيا الى البحر المتوسط وعرضهُ ٤٥ ميلاً . ولالبانيا ميناءان حربيان فالونا ودورازو . وفضلاً عن ذلك فقد كشفت اخيراً آبار زيت البترول تستغلها ايطاليا وتنتج مقدار ٣٠٠٫٠٠٠ طن سنوياً وهو ١٠ ٪ مما تستهلكهُ ايطاليا سنوياً من البترول . وتتبع البانيا سياسة موالية لايطاليا فهي لم تشترك في ميثاق البلقان الذي يجمع بين تركيا ورومانيا واليونان ويوغوسلافيا كما انها لم تشترك في تنفيذ العقوبات الاقتصادية ضد ايطاليا في اثناء ازمة الحبشة

٢ — ﴿ جزيرة بنتلاريا ﴾ : وقد ظهر ما لهذه الجزيرة من الشأن الكبير في السنوات الثلاث الأخيرة إذ تقع هذه الجزيرة في موقع استراتيجي هام بين صقلية وتونس ويبلغ ارتفاع صخورها ٢٥٠٠ قدم وبالجزيرة بحيرة صغيرة تصلح لاقامة قاعدة جوية للطائرات البحرية وقد سارعت إيطاليا في تحصين هذه الجزيرة فأصبحت من أهم قواعدها البحرية في البحر المتوسط . وقد حظرت مرور الطائرات من فوقها

٣ — ﴿ جزيرة رودس وجزر الدودكانز ﴾ : ومركز إيطاليا في هذه الجزر مهدد من ناحية تركيا التي كانت تملك هذه الجزر ولا تزال ترنو اليها لقربها من سواحل آسيا الصغرى ولوجود أقلية تركية في رودس . وكذلك يميل سكان هذه الجزر من الاغريق الى الانضمام الى امهم الكبرى اليونان . وأهمية هذه الجزر وباقي جزر الأرخبيل في الحرب أنها تصلح ان

تكون مخابئ للقواصات والمدمرات وغيرها من السفن الصغيرة السريعة

٤ — (ليبيا) وقد اصبح الآن مركز ايطاليا فيها آمناً وقوياً بعد ان كان مهدداً في الداخل بقيام السنوسيين ضدهم. وقد انشأوا اخيراً طريقاً ممهداً قرب الساحل من حدود تونس الى حدود مصر يبلغ طوله ١٢٠٠ ميل كما انهم اقاموا اسلاكاً شائكة مزدوجة على الحدود الشرقية يبلغ طولها ٢٢٠ ميلاً ويحاول الايطاليون الآن بمختلف الطرق كسب قلوب الأهالي

***

وليس لايطاليا خطة سياسية معينة تنتهجها فليس بينها وبين احدى الدول عداوة مقيمة كما انهُ ليست لها صداقة مقيمة مع احداها رغم قيام محور برلين روما. ولا يزال موسوليني بعد فتح الحبشة متردداً بين رأيين الاول يقول بضرورة التفاهم مع الديمقراطيات الكبرى حفظاً للامبراطورية الايطالية الناشئة التي لا تستطيع البقاء اذا قامت الحرب وكانت ايطاليا في غير صف بريطانيا وفرنسا. وحجة انصار هذا الرأي ما يتوجسونه من اثر زيادة قوة المانيا عند حدود ايطاليا الشمالية بعد ضم النمسا والسوديت وبعد تغلغلها سياسيًّا وتجاريًّا في وسط اوربا وشرقها. والرأي الثاني يقول بضرورة استغلال الفرص والمحافظة على محور برلين روما وخلق الاهداف والغايات امام الشعب الايطالي حتى لا تخمد حماستهُ وتضعف رسالة الفاشستية

ولايطاليا على سواحل البحر المتوسط أكثر من ٢٠٠٫٠٠٠ ايطالي يسكنون ارجاءها المختلفة من هؤلاء نحو ٩٠٫٠٠٠ في تونس و ٦٠٫٠٠٠ في مصر ومعظم هؤلاء من العمال والميكانيكيين واصحاب المطاعم والفنادق وليست لهم مصالح حقيقية ذات قيمة اذا قوبلوا بالفرنسيين أو البريطانيين ولكن ايطاليا تعنى برجالها الآن أشد عناية وتعمل على تدريبهم وتزويدهم بمختلف المساعدات من سياحات الى ايطاليا ودخول في جامعاتها الى إنشاء الأندية وإقامة المباني لهم

وقد ارتفع ذكر إيطاليا أخيراً وصارت لها مكانة بين الأهالي تداني مكانة بريطانيا وفرنسا لا بسبب الدعاية التي ينشرونها في الصحف ولا بواسطة الراديو ولا بسبب المدارس والجامعات التي يفتحون أبوابها لمن يريد ولكن لسبب واحد له أثره الفعال في نفوس عامة الناس وهو النصر الذي أحرزتهُ في حرب الحبشة والموقف الذي وقفتهُ إيطاليا وتحدت به اجماع الدول تقريباً ضدها

وهناك سبب معنوي آخر له قيمته بين الشعوب التي تعمل على التوسع وهو روح الثقة والايمان التي تملأ الشعب الايطالي الآن اينما وجد فالجميع لهم قبلة واحدة هي دولة روما ولهم دين وطني واحد هو الفاشستية ورسول واحد يقودهم الى النصر ويكاد في نظرهم يكون معصوماً من الخطأ

باب المراسلة والمناظرة

بين النقد والتقريظ

حول «اعترافات فتى العصر» و«هكذا تكلم زرادشت»

في الصفحة ١٣٠ من مقتطف يناير كلمة للاستاذ حبيب الزحلاوي عن ترجمتي لزرادشت ولاعترافات فتى العصر اوردها بعد مقدمة أعلن فيها ان لديه عشرة كتب مترجمة يعد العدة للوقوف حيالها وقفة الناقد الصارم ليحاسب مترجميها «بالدقة والضبط دون مواربة ولا تحيز».

وقد توقعت بعد هذه المقدمة ان اجد ما اتوق اليه من درس وتحليل للترجمة يظهران نواحي الشطط والتعسف فيها وعهدي بالزحلاوي طماحاً الى مجاراة كبار الناقدين فاذا به يأخذ بتقدير مطلق فيقول انه وقف طويلاً عند كتابي يراجع الأصل الفرنسي ويقارنه بالترجمة العربية فتبيّن له ان مترجم «رولا» الصادق الذي استطاع ان يسير مع موسيه على نفس واحد في مراحل القصيدة الكبيرة كلها لم يؤاته التوفيق كله هذه المرة. اما عن ترجمة نيتشه فيقول ان المترجم لم يتيسر له قراءة سائر كتب المؤلف ولو انه فعل لاستطاع ان يحاشيه بعض المزلة

هذا هو النقد الذي وعد به الأخ الزحلاوي وما هو في الواقع الا تعبير عن شعور او ابداء رأي مجرد او افصاح عن ذوق له خاصته وكل هذا له قيمته ولكن في غير مجال النقد الصحيح الذي يقوم عليه اصلاح الاخطاء ومعارضة الشذوذ في كل فن

ولو ان الاستاذ الزحلاوي من طلعة القراء المتمعنين لا من عداد الكتاب المفكرين لكنا نغتفر له ابداءه التحيد وبذله الاستهجان دون ان يسلم سبباً لتحيده واستهجانه

ومن غرائب النقد أن يقول لك كاتب ما قاله صديقنا من انهُ لا يردّ شكه وظنونه «الاّ بقيام الدليل على صدق الترجمة وصحتها وهما الاصل في عمل الترجمة»

وما نعلم ان الشك والظنون المبنية على التوهم يحق لها المطالبة بقيام الدليل على بطلانها

تلقينا من علامة الشرق الاب انستاس ماري الكرملي رسالة يناقش فيها ما جاء في المقتطف الماضي عن كتابه «نشوء اللغة العربية» فأرجأنا نشرها لعدد التالي آسفين لضيق المقام

في شرعة اي بلد أو أي عصر ورد النص على تكليف المدعى عليه إقامة الدليل

ان الاصل المترجم عنهُ والترجمة امام ناظري حضرة الناقد وما نحن ممن يدَّعون العصمة عن الزلل فليتفضل وليدلنا اين « لم يسعفنا استعدادنا النفساني » على قهوذ فكرة المؤلف واين برزنا نحن لتخفيه . . .

لو ان صديقنا الناقد أتى بأمثلة على ما يقرر ودلنا على المواضع التي قصَّرنا فيها والمواقف التي طفنا فيها على نيتشه وموسيه لكان تفضل على الأدب وهدانا الى التصحيح وما ينكر على المنطق والدليل الحق إلاَّ الجاهلون

وعسى الصديق يبذل شيئاً من جهده في هذا السبيل وعساه يتخذ هذه الطريقة المثلى في نقده للكتب الثانية الباقية فلا يتعسَّف في احكامه على مترجميها ، إن للأدب محاكمهُ وقضاته فلا يقوم طاغية في دولته

***

وأخيراً نستميح صديقنا الحاكم علينا بمثل هذا التسرع ان نسأله عما دعاه الى الظن «الكبير» باننا لم نقرأ من نيتشه الاَّ كتاب زرادشت الذي أقدمنا على ترجمته واكثر مؤلفات هذا الفيلسوف موجودة في مكتبتنا منذ عهد بعيد ثم ما لناقدنا بهم بسائر كتب المؤلف فاذا كان يعتقد أننا لم نفهم زرادشت فكيف يحسن بنا الظن ويتراءى له أننا كنا سنفهم كتاب « ما وراء الخير والشر » مثلاً ؟ ان نيتشه هو نيتشه في كل مؤلفاته ومن يقصر في فهم زرادشت فلا بدَّ له من الوقوف عاجزاً أمام « مشيئة القدرة » و« فجر الاصنام ». ونحن لم نعثر فيها طالعنا لكبار النقاد على منقاله ناقدنا من ان جميع مؤلفات نيتشه تعد كمفاتيح لزرادشت وهب أن أحدهم قال بهذا فان لنا نحن أيضاً ان نقول ان في زرادشت من الجلاء في بعض فصوله ما يعين القارىء على فهم الغامض في سائر مؤلفاته الاساسية . وليس في هذه المؤلفات كلها ما يجلو عنك ما غمض من أقوال زرادشت ولصديقي الزحلاوي ان يقرأ كتاب السيدة لو أندرياس سالومه عن عاشقها فردريك نيتشه فقد حللت هذه الكاتبة التي خشعت عبقرية الجبار أمام عبقريتها فلسفة حبها ورفيقها تحليلاً لم نقرأ خيراً منهُ فكانت كلما وقفت أمام عقبة من تاريخ هذه الفلسفة ترجع الى زرادشت أولاً ثم الى سائر الكتب لتذليل صعابها

وعلى كل فاكنا ملزمين نحن بالرجوع الى أي تأليف لنيتشه عند ترجمتنا زرادشت

لان مهمتنا كانت قاصرة على نقل ما في هذا الكتاب الى العربية دون أن تتخطى دائرته تفكيراً وتعبيراً

***

أما ما يقوله الناقد في ترجمتنا للاعترافات من أننا تهاونا فيها تهاوناً لا أرضاه لنفسنا لاننا كنا على زعمه نترجم الفصل منها بنصف ساعة فنقول مجرد عن كل دليل ونحن نصرح هنا أننا لو اعدنا طبع الاعترافات فان نستطيع تبديل شيء فيه كما يظن لاننا ترجمنا الكتاب وطبعناه تحت اشرافنا وراجعنا تلامذته ثلاث مرات ، هذا ماوصلنا اليه وهذه هي طاقتنا فان تفضل الناقد أو أي أديب آخر بتصحيح فاننا نأخذ به ونشير الى مصدره ونكرن له معاونتنا في عمل ان كان منه فائدة فهي ذاهبة الى محجة كل اديب ومستقره في رغباته لا في الزمان

ثم ان الناقد يتهمنا زاعماً اننا انهينا شيئاً بضلالات عصر موميه وشكوكه والحاده ، وهو انه رجع الى تمهيدنا ليوفر على نفسه هذا النقد الفاشل لاننا قلنا بصراحة : اما هذا فداء العصر « عصر موميه » لم يزل يراود الشيبة وعواطفها مراودة لاتستسلم لها القلوب والقلوب دون شمس هذه السماء لم تشرق يوماً على جيل جحد ربه ورفض حياة جيه بانقضاء على غيرته المقدسة

وقد اختم صديقنا جميع هذه الانتقادات بقوله انه لم يكن لمصطفى صادق الرافعي او لسواه ممن ذكرنا في تمهيدنا لترجمة زرادشت ان يحفزنا الى هذه الترجمة فان من هدانا الى نيتشه وريتان واضرابهما انما هو فرح الطون

فهل يريد الناقد ان يقول ان احداً لم يكن يعرف فلاسفة الغرب لولا المرحوم فرح ؟ ان هذا المقري الكبير عاش قبلنا فكان من الطبيعي ان يقرأ نيتشه وغيره قبل ان قرأه من جاؤا بعده ولا نعلم لماذا يريد الصديق الزحلاوي ان ينكر على أعلام من الأدب العربي ان يكونوا هم من رغبوا الينا في ترجمة زرادشت أثناء محادثة جرت بيننا كما ذكرت في تمهيد الترجمة

***

هذا ما رأينا إيراده بصدد نقد صديقنا الزحلاوي الذي كتبهُ ولاشك في ساعة ملال في حين كنا ننتظر منهُ نقداً يهدينا الى مواطن الخطأ ولعله فاعل في عودة الى زرادشت والاعترافات او لعله على الأقل يأخذ بما عرضناه على رويته عندما يتناول بنقده الكتب الباقية

الاسكندرية فليكس فارس

كيف تدور الارض حول الشمس

اذا تأملنا في أي رسم للفصول الاربعة نجد ان ميل محور الارض الثابت في جهة واحدة له تغييرات اربعة بالنسبة للمدار وهي أولاً مائل داخل المدار وثانياً مائل جهة السير في المدار وثالثاً مائل خارج المدار ورابعاً مائل جهة عكس السير في المدار. ولو طبقنا هذا الفرض على العمل لما وجدناه يطبق تمام الانطباق. مثال ذلك: اذا نظرنا الى السماء ورأينا الطيور والطائرات وهي طائرة في الفضاء (هذان مثلان يمثلان الحقيقة لدوران الارض لحدوثهما في الفضاء كالارض) ثم نظرنا على الارض ورأينا القطار والترام نجدهما كلما اذا دارت في دوائر او في انحناء او في مدار كمدار الارض ان محاورها جميعاً تكون مائلة داخل هذه الدوائر ما دامت تسير فيها واذا غيرت مثلاً هذا الميل لمحاورها من داخلها الى خارجها (وهذه صفة من الصفات الاربع التي اختص بها ميل محور الارض وهو في نفس المدار كما بينا سابقاً) اخرجت من السير او الدوران فيها الى اخرى غيرها اي الى دوائر او انحناء أو مدارات اخرى. هذه امثلة نجد فيها الطبيعي كالطيور والصناعي كالطائرات التي هي وليدة العلم وتطبيق العلم على العمل والتي فيها اثبت العلم بصفة عملية انهُ لا يمكن ايجاد دوران او انحناء بدون ميل لمحاورها داخلها ولم يكن العلم قد أثبت هذا في الفضاء فقط وانما أثبتهُ أيضاً على الارض في قضبان الترام والسكك الحديدية في جعلها منخفضة قليلاً عن الأخرى المقابلة لها والخارجية للدوران او الانحناء

نرى مما تقدم ان جعل مهندسي الطائرات والترام والقطار ان يميلوا محاورها داخل الدوران او الانحناء كي يحصل الدوران او الانحناء لم يكن عن جهل وانما أخذوها عن علم درسوه فهو ميل اجباري لا اختياري. ومن حيث ان مجرد ميل محور الارض لادخل للجاذبية فيه ولا هو طبيعي لان الطبيعي هو الاستواء قبل محورها اذن مسبب لذلك يجب ان تخضع للنظام السابق وهو أن يكون محورها دائماً مثلاً داخل المدار مادامت هي الارض تدور في نفس المدار حول الشمس. وبالتجربة نجد ان هذا الميل لم يكن كافياً في تكوين الفصول الاربعة اذن يجب ان نبحث عن كل ما يسبب الميل لنجد سبباً آخر تتم به الميل الاول وهو الناتج من الدوران والذي هو جزء من الحقيقة حتى تحصل الفصول — أما أهم ما يسبب الميل فالآتي: —

(١) ميل ناتج من عدم تساوي أجزاء لاخرى مقابلة لها (٢) ميل ناتج من الدوران (٣) ميل ناتج من وضع أشياء على سطح غير مستو (٤) ميل ناتج من الصعود والهبوط في منحدر (ويحصل في الفضاء وعلى الارض وفي الماء) وبعد الاختبار نجد رقم (٤) متمماً لرقم (٢) حتى تحصل الفصول

أذن مدار الارض يجب ان يكون منحدراً لا أفقيًا . مرتفع من جهة فصل الربيع والصيف ومنخفض من جهة فصل الخريف والشتاء . فاذا سارت الارض في ارتفاع تدريجي من الخط الفاصل بين الشتاء والخريف حتى تصل المستوى الافقي للشمس ليحصل الربيع ومن هناك تأخذ في الارتفاع تدريجيًا عن هذا المستوى حتى تصل الى الخط الفاصل بين الربيع والصيف ومن عنده تأخذ في الهبوط تدريجيًا حتى تصل الى المكان الذي بدأت منه السير . يلاحظ ان السير في هذا المدار المائل مستواه يجعل محور الارض يميل الى اسفل اي الى جهة واحدة مهما صعدت الارض وهبطت فيه ويجعل له نفس التغيرات الاربعة بالنسبة للمدار وهي السابق شرحها ولكن حاصله هنا بصفة عملية لا بصفة فرضية . بقي اشياء اخرى يجب ان اشرحها . سبق ان ذكرنا ان الانحناء او الدوران يسبب لنا . ولكن ميل الانحناء يكون اقل بكثير من ميل الدوران ويمكن ملاحظة ذلك في الاشعة الشمسية . وبما كان مدار الارض عبارة عن خطين بهما انحناء قليل عند الاعتدالين فالسير عندهما يسبب ميلاً قليلاً وكذلك السير عند الانقلابين يسبب ميلاً كثيراً لانهما جزءين من دائرتين فيميل محور الارض الثابت في جهة واحدة بميل قليلاً من نمرة [٢] داخل المدار عند الاعتدالين . ويميل منها اكثر [٢] عند الانقلابين ولكن يكون عندهما صالحاً في تكوينهما لاني قد وجدت بالتجربة ان بعد الكرة الارضية في ارتفاع او في هبوط عن المستوى الافقي للشمس بسبب هبوط اشعة الشمس قليلاً من عاليها الى اسفل عما لو كانت على استواء هي والشمس فالميل الناتج من الدوران وهو نمرة [٢] يكون معوضاً لما فقدته من النقص في اشعة الشمس عند الصيف الذي احدثته نمرة [٤] وتنقص نمرة [٢] ايضاً ما قد زادته الارض من ظلام عند الشتاء الذي احدثته ايضاً نمرة [٤] فميل المحور اذن لم يكن مستقرًا على حالة واحدة . بقي شيء آخر مهم تقوم به أيضاً نمرة [٢] وهو ان الارض اذا كانت مثلاً على مدارها وقت الخريف ومددنا محورها المائل في جهة واحدة الى اعلا المدار في خط مستقيم ثم مددناه بالوصف السابق وهي في الربيع الى اعلا المدار في خط مستقيم لتقابلا المستقيمان بالنسبة لميل كل منهما جهة الآخر من نمرة [٢] فيحصل من التلاقي وجود مجمة قطبية شمالية بالنسبة لوجودها عندها . واما اذا مددنا المستقيمين الى اسفل من نفس المكانين السابقين فلن يتقابلا مهما مددناهما وعدم التلاقي او التقابل لا يعارض طبعاً عدم وجود مجمة قطبية جنوبية بل يكون هناك فقط نجوم تدور في دوائر ولا تغرب عند القطب الجنوبي كالتي حول النجم القطبي الشمالي وجميع السيارات تتصف بهذا الوصف لدورانها في شبه دوائر حول الشمس

سراي القبة محمود متولي علي

مكتبة المقتطف

مستقبل الثقافة في مصر

للدكتور طه حسين بك

جزآن في ٥٠٠ صفحة ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

لا نعرف موضوعاً متعلقاً بالناحية الفكرية اعظم خطراً من موضوع الثقافة في مصر ولون اتجاهها فضلاً عن انهُ مشكلة الساعة . ونظن الدكتور طه حسين بك من احق الناس في معالجته وأقدرهم على النظر فيه ، ذلك بأنهُ عميد كلية الآداب ومعنى هذا انهُ من اصحاب أمر الثقافة العالية وبأنهُ واقف على الطبائع العقلية لابناء مصر ومطلع على ما يجري في ميدان الفكر في البلدان الاوربية

والكتاب غزير المادة مشبع الفصول سيّر الى نتائج قائمة

يستهل المؤلف الكلام بحديث الملاءمة بين الحياة المصرية الحديثة وبين مصر القديم ويجره هذا الى الفحص عن العقل المصري فيفصل في أن هذا العقل ليس بشرقي بل هو أقرب الى العقل اليوناني للصلات التي قامت بين ارض الفراعنة والبطالسة وارض الاغريق ، وفي رأيه ان الحضارة الاسلامية لم تبعد الذهنية المصرية عن الذهنية الاوربية من حيث ان العقل الاسلامي كالعقل الاوربي يرد الى عناصر ثلاثة : حضارة اليونان ، حضارة الرومان ، الدين . ولولا ان يكون الامر هكذا لما سلحنا من الاوربيين في هذا الزمان الوان حياتهم المعنوية وما تأثرنا بنظمهم السياسية وما اخذنا بطرائقهم التعليمية . ويستخلص المؤلف ان مصر ينبغي لها أن تأخذ بأسباب الحضارة الاوربية «في كل نواحي الحياة» من غير تردد ولا مماطلة

ثم ينتقل المؤلف الى مسئلة التعليم فيطالب بإشراف الدولة على التعليم العام في جميع المعاهد سواء كانت وطنية او أجنبية ، حرة او دينية ، على شرط ان يكون المشرفون من صفوة الامة . ويجب ان ينبسط التعليم الاولي على الفقير والغني لان التعليم امر ديموقراطي ، واذا شئنا احد البطالة فانما المعالجة من طريق اصلاح النظام الاجتماعي والموائمة بين التعليم النظري والحياة العملية لا من طريق ايقاف التعليم العام أو تفضيل فئة على فئة

ثم ينظر المؤلف في اضطراب التعليم وينسبه الى رجال الوزارة الفنيين والى المركزية في وزارة المعارف والى اعتداد الناس بالامتحانات وانزالها منزلة الغاية لا الوسيلة والى احتكار التأليف المدرسي . ثم يعرض البرنامج الصالح فيطلب تعليم جغرافية البلاد وتاريخها ، واللغات الاجنبية ، وفرض اللاتينية واليونانية على طلبة العلم الخاص ، واصلاح علوم العربية وتيسيرها

ثم يشير الى اعداد المعلمين وواجب الوزارة في سبيل ذلك . كل هذا تمهيداً لاعلاء شأن الجامعة وجعلها مستقر الحضارة العالية ولا يكون هذا الا اذا استقلت ماديًّا وعلميًّا ، والجامعة قد بذلت جهوداً محسوسة نافعة . ويجري الكلام بعد هذا على التعليم الديني في الأزهر وعلى محاولة الأزهر التحول الاجتماعي على ان يقف عند الاشتراك في الحياة العملية . والتعليم الديني واجب للاقباط كما هو واجب للمسلمين لأن الكنيسة القبطية مصدر ثقافة دينية . ويتلو هذا حديث قوي عن الانتاج في العلم والادب من تأليف وترجمة ونقل ومما يراهُ المؤلف ان حظ المشتغلين بالكتابة في مصر ضئيل فعلى الحكومة ان تعاونهم وتشجعهم على التأليف . وأما الاقطار العربية الشقيقة فعلى مصر ان تمد يداً اليها بان تعلم ابناءها سواء في مصر او فيها وان تسعى في نشر ثقافتها في ارجائها وان تعاون على توحيد البرامج لانها مركز من اهم مراكز التعاون الفكري . ويختم المؤلف كتابه بقوله « فان مصر التي انتصرت على الخطوب وثبتت للاحداث ، وظفرت بحقها من اعظم قوة في الأرض في هدوء وأناة وثقة بالنفس وايمان بالحق ، خليقة ان تنتصر على نفسها وتظهر على مايعترض طريقها من العقبات وترد الى نفسها مجداً قديماً عظيماً لم تنله ولن تناله »

كتاب كله جرأة واقدام لا يعرف التردد ولا المراوغة سيغضب ناساً ويحفظ ثقة من قادة الرأي في مصر . غير انهُ سيقع عند المستنيرين والتواقين الى المضيّ قُدُماً موقعاً جليلاً . ومهما يُقال في هذا الكتاب الزاخر فانهُ يقرر حقائق ويدفع اوهاماً ويدافع عن الثقافة ويطالب بالتعليم العام للفقير والغني ويعلي من شأن الأديب والعالم والمفكر ثم يجري الى تعزيز مكانة مصر وتثبيت خطى اهليها

رجعة أبي العلاء

للاستاذ عباس محمود العقاد — ٢٧٤ صفحة من القطع المتوسط
طبع مطبعة حجازي بالقاهرة

ناحية طريفة تلك التي اتجه اليها الاستاذ عباس محمود العقاد في دراسة فلسفة أبي العلاء وتطبيقها على مشكلات العصر الحديث وتياراته الفكرية أو تطبيق هذه المشكلات والتيارات على هذه الفلسفة بمعنى أدق

ولا شك — كما يقول الاستاذ العقاد — ان أحوالاً كأحوال العصر الحاضر قد كانت مشهودة معهودة في أيام أبي العلاء ، ولاشك أننا واجدون في كلامه حكماً مكشوفاً أو ملفوفاً

على جميع تلك الأحوال فأما ما يختلف من شؤون زماننا وزمانه فهل يستطاع قياسهُ والتقاذ الى رأي أبي العلاء فيه وفاقاً لذلك القياس ؟ وهل في مقدورنا نحن أبناء هذا الزمن أن ندعو الحكيم الى الخبر برأيه فيه ؟ ذلك ما أراده الاستاذ العقاد

وليس موضوع كهذا بالسهل الهيّن ، فان التصدي له يحتاج الى احاطة شاملة بفلسفة أبي العلاء مع تقليب لمختلف الآراء التي تناولت هذه الفلسفة وتدقيق في الاغراض التي رمى اليها الشاعر أو ظُنَّ أنه رمى اليها واستخراج الابيات التي يمكن الاستشهاد بها من مختلف قصائده في ذلك . كما انه يحتاج الى أن يكون القائم بهذا بصيراً بالتيارات الفكرية الحديثة واتجاهات كل منها ومزاياها وعيوبها . والاستاذ العقاد خير من يمثل كل هذا

فقد بعث الاستاذ المؤلف حكيمَ معرّة النعمان من مرقده وردّه الى هذه الحياة وطوّف به في هذا العالم شرقيّه وغربيّه وأطلعه على مشاعر العصر ومخترعاته ومظاهر تقدّمه وتيارات فكره وأدبه وأنطقه بما يراه في كل منها بالتطبيق على شعره وبالتفسير الذي رآه الاستاذ العقاد في البعض منها كما أوضحه في تفسير قول أبي العلاء :

لو كان لي أو لغيري قدر أعتقر من البسيطة خلت الامر مشتركا

أنهُ انما يعني به التوحيد الالهي ويريد به ان الناس أغنياؤهم وفقراؤهم على حد سواء لا يملكون في جانب الله أرضاً ولا يستعبدون أحداً ... فمن أين — يقول المؤلف — تسربت الاشتراكية الى معناه ؟ فما أراد إلاّ الرفق بالناس بل ما أراد إلاّ الرفق بجميع الاحياء . واجعاً في ذلك الى كثير من أقوال أبي العلاء

***

وقد وضع الاستاذ العقاد عن لسان المعرّي ، هذا الحكيمَ موضعه بين أبي نواس وعمر الخيام فأعطانا رأيه في فلسفة هذا وفلسفة ذاك

ومن فصوله النفيسة فصل له في المقارنة والمشابهة بين فلسفة أبي العلاء وفلسفة شوبنهور مؤيداً ذلك بأقوالها انتهى به — عن لسان المعرّي — الى « ان هذه قرابة في الطباع لا قرابة في الرأي والاطلاع ، فان تشابه الطباع هو الذي يوحي بالقول الواحد الى أفواه الكثيرين ، أما المتشابهون في العقول فقلما يتفقون ، وقد يتباينون لأنهم متشابهون »

وفي الكتاب فصل عن دانتي رسم فيه الاستاذ العقاد صورة للشاعر الايطالي فيها تحليل رائع وسخرية لاذعة

واذا شئنا أن نستطرد الى كل فصل من فصول الكتاب أسترق ذلك منّا الحيّز والوقت ونحن معرض حافل لآثار الذهن العربيّ حين ينظر الى حقائق العالم في زماننا الحديث

ديوان ابن الساعاتي

الجزء الاول — قام بتحقيقه ونشره الاستاذ أنيس المقدسي — ٣١٠ صفحة من القطع الكبير — طبع بالمطبعة الاميركانية — بيروت

يعرف أدباء العربية عامة وقراء المقتطف خاصة العلامة أنيس المقدسي أستاذ الأدب العربي بجامعة بيروت الاميركية من مؤلفاته النفيسة وبحوثه القيمة . فقد أخرج كتابيه « أمراء الشعر العربي في العصر العباسي » و « تطوُّر الأساليب النثرية » فلقيا من أندية الأدب تقديراً سامياً . وقد تناول المقتطف الكتابة عن الكتابين وقت إخراجهما . ثم طلع الاستاذ المقدسي في العام الماضي على قراء هذه المجلة بالبحث الرائع « العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث » الذي نشر في أعداد متتالية فاسر القراء في فصوله دقة في البحث واحاطة شاملة لنواحي الأدب العربي الحديث في مختلف أقطاره وعهود الى أعماق التيارات السياسية التي مرَّت بالعالم العربي ، وكان لها أثر في خلق ناحية قوية في الادب كما كان لهذا الادب أثره القوي في بعث الروح الوطنية في أبناء العروبة

وان جهد الاستاذ المقدسي الذي تشغله مهام الدرس أبى عليه إلاَّ ان يخرج للناس ديوان بهاء الدين أبي الحسن عليّ بن رستم بن هَرْدُوز الخراساني المعروف بابن الساعاتي وهو الشاعر الوصَّاف المعاصر لابن الفارض والذي اتصل بكثير من ملوك الامويين وامرائهم وعظماء هذا العصر ونظم الكثير من المدائح فيهم . وقد بذل الاستاذ المقدسي جهداً بعيد الغاية في تحقيق شعر هذا الديوان الضخم بعد مراجعات عديدة على نسخ مختلفة لعبت بكلماتها تحريف النساخ فردّ كل بيت الى حقيقته بعد طول الموازنة والروية وقدم لهذا الديوان بمقدمة رائعة في أربع وأربعين صفحة — سينشر في عدد ابريل القادم من المقتطف ملخص لها — تناول فيها نشأة الشاعر وشخصيته وشعره بما عرف فيه من دقة البحث والاستقصاء

ولعلَّ الاستاذ — بعد أن يخرج الجزء الثاني من هذا الديوان — يخدم الآداب العربية ببعث دواوين فحول الشعراء بالدقة التامة التي حظي بها ديوان ابن الساعاتي — الصيرفي —

« مكارم الاخلاق الاسلامية »

للدكتور بشر فارس

اهدى الينا صديقنا الدكتور بشر فارس بحثاً جديداً له عنوانه « مكارم الأخلاق الاسلامية » نشرته له باللغة الفرنسية « مجلة المجمع الوطني للعلوم » Bindinonti della Reale Academia Nazionale dei Lincei. Vol. XIII, 193 في مدينة روما وهي من ارفع المجلات الأدبية قدراً وقد كان الدكتور بشر ألقى هذا البحث محاضرة في مؤتمر المستشرقين المنعقد في روما سنة ١٩٣٥

فرأى المغفور له الاستاذ فليبو ان ينشره في تلك المجلة . والبحث قائم على الفحص عن عدة مخطوطات مجهولة والتنقيب عن نصوص مطبوعة لم تنشر قبل اليوم وهو مسوق على طريقة علمية بديعة وتحقيق وخرج صاحبه بنتائج تتصل بالاخلاقيات الاسلامية تزدان بالجدة والاستقامة

وكان في نيتنا ان نلخص هذا البحث للقراء ، ولكنه بلغنا ان الدكتور بشر فارس سينشره باللغة العربية مع زيادات في كتاب سيصدره بعد اسابيع عنوانه « مباحث عربية » وسيضم هذا الكتاب غير « مكارم الاخلاق الاسلامية » مما سبق للمقتطف ان يصفه وينقده لقرائه ومما لم ينشر من قبل سواء بالعربية ام باللغات الاجنبية

حياة الطفل

تأليف الدكتور مصطفى الدبواني — ٧٦ قطع وسط — مطبعة فتح الله عباس نوري بمصر

لسنا نغالي اذا قلنا ان هذا الكتاب يجب ان تقتنيه كل ربة عائلة في الشرق العربي . ففي رعاية الطفل — على ما يقول المؤلف في مقدمته — «اصبح من موضع اهتمام وعناية جميع حكومات العالم الراقية . اذ به تكمن لاجيال الناشئة الصحة جيدة كاملة تمكنها وتؤهلها في المستقبل لخدمة الوطن العزيز » والمؤلف عالم عامل وطبيب ممارس مختص بامراض الاطفال وحائز لاعلى الشهادات في هذا العلم من كليات الطب الكبرى في بلاد الانكليز . وطريقة معالجته موضوع قائمة على قواعد تتسم بالسهولة وتوخي الفائدة العملية وذلك باسلوب عربي يجمع بين السلامة والسلاسة

هنا تجد ربة البيت اهم ما تهمها معرفته مما يتعلق بها وهي حامل ثم اهم ما تهمها معرفته عن تغذية الطفل وملابسه ورياضته ونظامه واسنانه وشهيته . والبحث في هذه الموضوعات متدرج تدرجاً وفقاً لنمو الجنين فنمو الطفل ، يبتدىء بالحامل وينتهي بتمريض الطفل

واذا كان القارىء في حاجة اقامة الدليل على ما تقدم فلنسق اليه فقرات خاصة بالرضاعة من الفصل الذي وقفه المؤلف الفاضل على هذا الموضوع . قال على طريقة السؤال والجواب

— كيف تحمل الأم طفلها أثناء الرضاعة ؟

هناك وضعان . الوضع الأفقي وفيه تضع الأم طفلها في حجرها أفقيًّا بحيث تكون رأسه أعلى قليلاً من بقية جسمه وقد يمنع هذا الوضع حركة ابتلاع اللبن والتنفس ، أما في الوضع العمودي فان الأم تجلس وتضع الطفل عموديًّا على فخذها ، وبذلك يرضع وهو جالس ، وهذا هو الوضع الأصح فهو يسهل حركة الامتصاص والابتلاع والتنفس

— ما هي المدة التي يجب أن يرضعها الطفل كل مرة ؟

مدة الرضاعة لا يمكن تحديدها بالضبط لأنها تختلف حسب قوة امتصاص الطفل . فالطفل

القوي اذا ما رضع ثدياً يحتوي على كمية وافرة من اللبن تكفيه خمس دقائق . أما اذا كان ضعيفاً هزيلاً أو كانت كمية اللبن غير كافية فانهُ يستمر في الرضاعة عشرين دقيقة أو أكثر يترك في خلالها الثدي مراراً ليستريح

وعلى العموم فان متوسط الرضعة هي ١٥ دقيقة تقسم على الثديين . ويجب أن لا تزيد على عشرين دقيقة لأن الطفل يحصل على أكبر كمية من اللبن الموجود بالثدي في الخمس الى العشر دقائق الأولى . فاذا لوحظ أن الطفل بعد الخمسة عشر دقيقة الأولى لا يزال يمص الثدي بقوة فهذا دليل على أن لبن الأم غير كاف

— هل يجب اعطاء الطفل الثديين في كل مرة ؟

اذا كان افراز اللبن غزيراً وكافياً فيكفي ارضاعه من ثدي واحد في كل مرة . وإلاَّ فيجب أن يرضع الثديين ليحصل على كفايته من اللبن واذا ابتدىء بأحد الثديين في رضاعة ما يبتدأ بالثدي الآخر في الرضاعة التالية

مصطفى كامل

تأليف عبد الرحمن الرافعي بك — ٥٣٠ صفحة تطبع المقتطف — ثمنه ١٥ قرشاً

ليس ثمة ريب في ان دراسة مصطفى كامل وما يدور حول اسمه من الحوادث السياسية في تاريخ مصر الحديث ، امر لا يستغني عنهُ من يريد ان يفهم الارتقاء السياسي الوطني في مصر من اواخر القرن الماضي الى مستهل الحرب الكبرى . فهو الذي عزز الشعور الوطني ، بخطبه ومقالاته النارية ، وبمساعيه التي بذلها في مختلف بلدان اوربا ، لبسط المشكلة المصرية امام الرأي العام الدولي وذلك في مقالات نشرها في الصحف الغربية ورسائل تبادلها مع الحكام والوزراء . وقد خدمتهُ الظروف في حادثة دنشواي فكان في فرنسا عند وقوعها وصدور الحكم فيها ، فكتب مقالهُ الرنان فيها فنشرتهُ جريدة الفيغارو في صدرها ، وذهب الى انكلترا فتحدث مع ممثلي صحافتها ، فأبلغ الى العالم شعور مصر المتألمة المتلوية على آلمها . واذا لم يكن لمصطفى كامل من أرباق الا تنبيه الشعور بالوطنية والكرامة الوطنية ، في وقت قضى فيه الاحتلال على هذا الشعور على اثر هزيمة التل الكبير ، فذلك حسبهُ . ولكن للرجل مآثر اخرى تراها هي وآثارهُ السياسية الوطنية مفصَّلة احسن تفصيل في كتاب عبد الرحمن الرافعي بك . هنا نشأتهُ الاولى ودراسته وتفتح قلبهِ على حبّ مصر وخدمة قضيتها — فقد دوَّن اسمهُ بعد تخرجه من مدرسة الحقوق في سجل المحامين ولكنهُ لم يمارس المحاماة لانهُ كان محامياً عن قضية مصر . ولما عاد من رحلتهِ الاولى الى اوربا عاد ومعهُ صناديق حافلة بالكتب عن المسألة

المصرية فأكبَّ على دراستها وفقاً لبرنامج منظم ، وذلك لأنه ادرك ان المحامي القوي الحجة هو المحامي الذي يتوفر على دراسة قضيته . وحبذا الحان لو فاز هذا الكتاب من عناية الطابع والناشر بقسط أوفر من القسط الذي فاز به فان ما يحتوي عليه من دراسة مفصلة لحياة مصطفى كامل وعمله ، وما تطوي عليه صفحاتهُ من مقالات ومختارات ورسائل لم تنشر قبلاً ، دبجها جميعاً يراعة ذلك الزعيم الوطني ، لجديرة بكتاب اثخر ورقاً وغلافاً وأتقن طبعاً من هذا الكتاب. وان كنا نعلم ان قيمة الكتاب ليست في مظهره المادي

مجلة الثقافة

من دلائل إقبال الجمهور العربي على القراءة المفيدة السهلة في آن واحد أن « لجنة التأليف والترجمة والنشر » رأت ان تخرج مجلة اسبوعية وسمتها بالثقافة . وقد برز منها حتى اليوم أربعة اعداد وهي سلعة نافقة لما هي عليه من تنوع الابواب ولما تضمه من المقالات الشيقة على الغالب. أما الابواب فالأدب الصرف ونقد الادب والقصص والرحلة والعلم الخالص والفن على ألوانه . وأما المقالات فما نذكره « مع أدبائنا المعاصرين » للدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب وهي سلسلة لمحات بديعة المرمى في مؤلفات المحدثين من الكتَّاب والشعراء و « مباحث تمهيدية في الفن » للدكتور زكي محمد حسن أمين دار الآثار العربية و « تحت مصباحي الأخضر » للقصصي الاستاذ توفيق الحكيم و « على هامش العلوم » للدكتور أحمد زكي بك . ثم مقالات أخر لامثال الأساتذة شفيق جبري ومحمد كرد علي وأحمد ضيف وابراهيم عبد القادر المازني

ثم اليك بعض ماجاء في تصدير المجلة بقلم رئيس تحريرها الاستاذ احمد امين « أصبح الشرق مرتبطاً بالغرب ارتباطاً وثيقاً في كل مرفق من مرافق الحياة : في الحركات السياسية ، في الحركة العلمية والأدبية والفنية ... ومن الخير للشرق أن يقف على هذه الحركات فيتصرف فيها عن خبرة ويحكم فيها عن علم ... » ثم « لا نريد حرباً إلا حرب الآراء ، فهي حرب خير من سلم، وصراع خير من مهادنة ... أما حرب شخص لشخص في شخصيته وجماعة لجماعة في ذاتها لا في آرائها ، فسخافة نرباً بأنفسنا عنها ... » . فهذان أمران : الأول العناية بما يجري في الغرب والثاني نبذ البواعث الشخصية والتشبث بالآراء لذاتها . وللأمرين جلالتهما

بقي ان مجلة « الثقافة » ضاربة الى بذل الأدب والعلم وقد أراد أصحابها ان تكون كذلك رغبة في التهذيب . وها هم أولاء يشاركون غيرهم من المخلصين للآداب العربية في خدمة مصر وأخواتها من ناحية الفكر

ب . ف

مقابر الفجر

صاحب هذا الديوان محمد رشاد راضي شاعر برم بالحياة ضيق الصدر فيها كما يقول هو في آخر الديوان عن نفسه . وهذا البرم قد اعطى شعره طابعاً خاصًّا يلوح الحزن ويتصجر في كل سطر من سطوره ولا ادري سر هذه النظرة القاتمة الى الحياة مع ان الشاعر لا يزال على عتبة الصبا وفي شرخ الشباب . واذا كان يضيق بهذه الحياة وهو لا يزال طريَّ العود فما بنه اذا تعاقبت عليه السنون واصطلحت عليه الايام وهي قاسية لا ترحم ، شديدة لا تلين ؟

وهو يبكي كما يقول النهاية التي وصل اليها في صباه . ولا ادري هذا الشر الذي تحمله هذه النهاية . فامامه السنون تستقبله وتنتظر ما يعد لها من نضال . وما نحب لشاعر ان يستخذي في الحياة او يلقي السلاح او يشعر الناس بأنهُ شقي . ففي استطاعته ان يخلق لنفسه اجواء من السعادة يحلق فيها . اسمعه وهو يقول في قصيدة الهاتف

ايها الشاعر يا عصفور قد جاء الخريفْ
الربيع انسل كالسكين خلف المهرجانْ
ما التقت من بعده في قبلات شفتانْ
لا ولم يسمع لحس الريح في الغصن حفيفْ
عجائز الليلاتْ في أبرد الغاباتْ جلسنَ نداباتْ صبا ربيع مات
واحاً على ما فات

فهو هنا يبكي الربيع الفائت او ربيعه هو . وهذه الابيات على شيوع الحزن فيها هي تصوير جميل للجمال العابر . وهي ككل شعر الديوان رقيق جميل

وتعبير الشاعر في شعره صادق رقيق لولا غلبة الاحزان عليه وهذا الحزن الشائع في نفسه اختار للديوان اسم مقابر الفجر ، كأنما دفن فيها املاً ضائعاً . فهو يقول في قصيدته اكفان الذكرى

لما فقدت عزيزتي وحيت في الدنيا وحيدا
عفت الوجود لانها كانت لديَّ هي الوجودا

والديوان مجموعة من الزفرات والاماني الحزينة . وقد لا يميل كثير من الناس الى الأدب الحزين لانهُ يضيف الى هموم الحياة هموماً . ولكن من يقرأ هذا الديوان يجد في قراءة الحزن لذة لانهُ يصور النفس المتألمة اصدق تصوير . ونرجو أن تتسم الحياة للشاعر الفتيّ . فيظهر أثر ذلك في شعره المقبل . فان حراماً أن يقضي على هذه النفس الشاعرة وهذا القلم الفنان بالألم العميق . ونرجو منه أن يحاول تحطيم ناية الحزين ويصنع لنفسه ناياً جديداً تشيع الفرحة والابتسامة في ألحانه

واذا كنا نحن لا نستطيع أن نسعده فنرجو أن تهب له الايام السعادة التي ينشدها

عبد الغني حسن

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الرابع والتسعين

١٣٣ اليوم والامس بحث علمي جديد

١٤١ المستشرق فلبو حياته وآثاره : للعلامة المستشرق البروفسور نيكلسون

١٥٢ دمعة الحسناء (قصيدة) : لحسين كامل الصيرفي

١٥٤ خليل مطران شاعر العربية الابداعي : للدكتور اسماعيل احمد ادهم

١٦٥ الاخلاق والحضارة : لعبد الرحمن شكري

١٦٩ توافق الخواطر بين العلماء والمخترعين : لمحمد عاطف البرقوقي

١٧٦ صقر قريش : بحث نفيس في اسدي هدى المقتطف السنويين

١٨١ ثقافة الغرب وثقافة الشرق الادنى : للدكتور ستيوارت فندلاند ف.

١٨٨ دراسات في آثار الاقدمين الروحية : لناشد سيفين

١٩٣ تاريخ مصر الاخيرة : لتوفيق الفكيكي

٢٠٠ ارض شكسبير (قصيدة) : لمحمد عبد الغني حسن

٢٠١ العميان يبصرون : لعوض جندي

٢٠٦ التصوير الفني في القرآن الكريم : لسيد قطب

٢١٢ سر البقعة الحمراء على سطح المشتري

٢١٦ بكر (قصيدة) لمصر ابو ريشه

٢١٧ عالم الروح والعلم الحديث : لاحمد فهمي ابو الخير

٢٢١ حديقة المقتطف * الحركة الادبية في سورية ولبنان : لالياس ابي شبكة . الأدب الفارسي وخدمة الوطنيين لهُ في الهند : للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي . مرثيتي ظل الغمامة : من قصيد لكثير

٢٣٥ سير الزمان * السياسة الدولية في البحر المتوسط : لمحمد رفعت بك

٢٤٧ باب المراسلة والمناظرة * بين النقد والتقدير حول «اعترافات فتى المصر» و«هكذا تكلم زرادشت» لفليكس فارس . كيف تدور الارض حول الشمس لمحمود متولي علي

٢٥٢ مكتبة المقتطف * مستقبل الثقافة في مصر . رحلة أبي العلاء . ديوان ابن الساعاتي . مكارم الاخلاق الاسلامية . حياة الطفل . مصطفى كامل . الثقافة . مقابر الفيوم

هديتا المقتطف سنة ١٩٣٨

صقر قريش

تأليف علي أدهم

دراسة لحياة الامير عبد الرحمن الاول الملقب بالداخل وقد نهج المؤلف في كتابة هذا الموضوع منهجاً موفقاً عصريًّا فذكر حياة وتاريخ وسيرة الامير عبد الرحمن ورحلتهُ الى افريقية ويأسهُ من تأسيس ملك بافريقية ثم دخوله الى الاندلس وأعمالهُ المجيدة فيها ونتفاً من أشعاره وقدرته الخطابية وقوة عزيمته

١٣٠ صفحة كبيرة — ثمنه ١٠ قروش مصرية يضاف اليها اجرة البريد

نواحٍ مجيدة من

الثقافة الإسلامية

١ — التصوير والاسلام للمصورين في الاسلام للدكتور زكي محمد حسن

٢ — تأثر العربية بالثقافة اليونانية للاستاذ اسماعيل مظهر

٣ — الأثر العلمي للحضارة الاسلامية واعظم علمائها للاستاذ قدري حافظ طوقان

٤ — الصلات بين العرب والفرس وآدابها في الجاهلية والاسلام

للدكتور عبد الوهاب عزام — ١٦٧ صفحة كبيرة و١٦ صفحة بالروتوغرافور

ثمنهُ ١٥ قرشاً مصريًّا يضاف اليها أجرة البريد

ملحوظة : ارسلنا هاتين الهديتين الى جميع مشتركي المقتطف الذين سددوا اشتراكاتهم لآخر ١٩٣٨

بادر الى تسديد اشتراكك تصلك الهديتان مع شكرنا

شركة التمدن الصناعية

١٤٦ بشارع محمد علي — تليفون ٤٤٨٨٧

حروف الملتقف من مصنوعات مسبك التمدن الذي يقوم بتوريد جميع الحروف للجرائد المصرية والشرقية

وكيل الشركة

أحمد فهمي

خطاط الملوك

الاستاذ نجيب هواويني

يتولى فحص الاوراق المطعون فيها بالتزوير بمصر وغيرها من البلاد ويطلب منه كتابه « التزوير الخطي » لمعرفة الخطوط والاختام المزورة والصحيحة عربية وافرنجية ثمنه ٥٠ قرشا صاغا . وتطلب منه كراريسه « السلاسل الذهبية » التي تعلم الخطوط الجميلة بوقت قصير واسلوب مبتكر ومقررة في جميع المدارس ، وكتاب « المجلة » وهو مجلة الاحكام العدلية الصحيحة الوحيدة المصدق على صحتها من باب المشيخة الاسلامية مشروحة ومشكلة بقلمه

وهو يتولى عمل كليشهات وأختام وغيرها . ويكفي كتابة كلمة « مصر » عند عنوانه ، أو مخاطبه بتليفون ٥٠٣٣٠

مؤلفات الامير شكيب ارسلان

يسألنا القراء عن مؤلفات عطوفة اللامة الامير شكيب ارسلان أين تباع ، وها نحن نسردها فيما يلي ونذكر أثمانها : —

	ص		ص
حاضر العالم الاسلامي بمجلدين ضخمين	٨٠	آخر بني سراج في تاريخ الاندلس	١٥
الحلل السندسية في تاريخ والاخبار الاندلس	٣٠	الامام الاوزاعي	٨
السيد رشيد رضا او أخاه اربعين سنة	١٥	اناطول فرانس في ساذله	١٢
أحمد شوقي بك او اخاه اربعين سنة	١٠	تاريخ غزوات العرب وفتوحاتهم في اوربا	٢٥
ديوان الامير شكيب ارسلان	١٠	تعليقات وحواشي الامير شكيب على تاريخ ابن خلدون	١٥

وهذه الاسعار غير أجرة البريد . وتطلب مؤلفات الامير الجليل من المكاتب الكبيرة في القطر المصري

لا غنى ...
للعيدة في بيتها
والفتاة في معهدها
عن صديقتها

الطالبة

مجلة شهرية

تبحث في شؤون المرأة والادب
والعلم والفن والرياضة
الاشتراك السنوي
عشرون قرشاً
الادارة — ٣ ميدان سوارس بمصر

اعداد المقتطف

التي لم تصل الى المشتركين

ترجو ادارة مجلة المقتطف حضرات المشتركين الكرام وخاصة حضرات نظار المدارس — ان يطلبوا ما لا يصل اليهم من اعداد المجلة في حينها . والمقتطف يصدر اعداده في اوائل كل شهر باطراد ويسلمها الى ادارة البريد في اوقاتها بانتظام والاعداد التي تفقد يمكن التحقيق عن سبب فقدانها عقب حدوثه

ويحق لحضراتهم ان يطالبوا باعدادهم في الشهر الذي صدر فيه العدد اما المطالبة باعداد بعد صدورها بشهرين او اكثر بحجة عدم وصولها ففيه ضرر على المجلة لانها لا تستطيع ان تحقق عن سبب فقدان تلك الاعداد وثانياً لانهُ يتعذر عليها تلبية طلب حضراتهم وارسال الاعداد اليهم لانها تكون قد نفدت من الادارة

ادارة المقتطف

الجريدة السورية اللبنانية

الجريدة الرسمية لنزالة العربية في الارجنتين

تصدر صباح كل يوم من ١٦ صفحة باللغتين العربية والاسبانية

أنشأها الاستاذ موسى يوسف عزيزه في ١٢ ك ٢ سنة ١٩٢٩

مديرها الحالي: امين قسطنطين رئيس تحريرها المسؤول في القسم العربي : الياس فضل

يحرر فيها نخبة من حملة الاقلام الحرّة عنوانها :

EL SIRIO-LIBANES

Reconquista 339

Buenos Aires Rep. Argentina

مجلة الشرق

ادبية سياسية مصورة

انشئت للدعاية عن الشؤون البرازيلية وما في الزلاء الشرقيين في البرازيل تصدر باللغة العربية مرتين في الشهر — صاحبها ومحررها الاستاذ موسى كريم ويشترك في تحريرها طائفة من اكابر ادباء العربية في البرازيل وبدل اشتراكها ٢٤٠ قرشاً صاغاً وعنوانها :

Journal Oriente

Caixa Postal 1402, Sao Paulo, Brazil